مسك الغزال

ABU ABDO ALBAGL

حنان الشيخ

دار الآداب - بيروت

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معسّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

حنان الشيخ

مسك الغزال

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٨٨

* تصميم الغلاف: نجاح طاهر.

سهى

تهالكت على الكنبة. جاء الكنار يقف على كتفي مغرداً فأزحته قائلة: «حل عني، مش وقتك» نظرت إلى الستائر الفاتحة بلون المشمش وإلى زجاج الطاولات، وإلى اللوحات المائية، وفكرت لو أبقى في هذا البيت ليل نهار، مع هذا الكنار. كل ما في بيتي يريح النظر، بعكس أثاث الجمعية، وكل البيوت التي أدخلها، وعلى خلاف الشوارع المغبرة والأبنية التي لا ألوان لها والرمل وبقايا البناء.

حين دخل الرجال كنت أجلس في غرفة الاستراحة أشرب الليمونادة التي آتي بها من البيت في الترموس الصغير. جمدت ثم ارتجفت. قال لي أحدهم: «تستري يا حرمة». رأيت منشفة في الهواء باتجاهي. لا أدري من رماها. وضعتها على كتفي، مطرقة إلى الأرض، لا أرى إلا صنادل الرجال وشحاطاتهم وأظافرهم الطويلة وبياض أظافرهم المصبوغ بلون التبغ، ولم أتنفس، إلا عندما اختفت خطواتهم بعد احتجاج المديرة من الغرفة الثانية واتهامها لهم بالتعدي، والدخول على الحريم صائحة: «ما تعرفون تقرون، هذه جمعية تدرّس وتعلّم»؟ اللافتة على الباب تقول «ممنوع دخول الرجال».

كنت قد تمنيت أن يكون ذهابي إلى الجمعية هو الخلاص. ربما جنبني القلق والخوف الذي عانيته العام الماضي وأنا أعمل في المخزن.

كنت أختبىء كل يوم في صندوق كرتون كبير أسمر اللون. وأنا أفكر

فيما إذا كان المفتش سيشتبه بالصندوق، أستعيد شكله الخارجي، وجملة «انتبه قابل للكسر» وصورة القدح الزجاجي. حين أشم رائحة عطري الخفيف أخاف، لربما كان المفتش مزوداً بحاسة شم فظيعة.

كان الخوف من أن يضبطني يلغي كل الأحاسيس الأخرى. كالعرق المتصبب مني كأنه دوش مفاجيء، ورائحة الصندوق القوية الخاصة، ولما كان اختبائي في الصندوق يطول ولا أعود أسمع وقع خطوات، كنت أهدأ قليلاً، وأجد نفسي أضحك غير مصدقة أنني أختبيء من المفتش، لأنني أنشى وأعمل، بينما هناك مدن كبيرة ومحطات فضاء. وفي غرفة بيضاء، يفرز سائل الرجل المنوي في المرأة العاقر. يرى الجنين على شاشة تلفزيون وهو في بطن الأم، قاعات، ضحكات، بكاء، زحمة سير، زوابع، مدارس، نوادٍ ليلية، نساك، تصفيق. حاولت أن أتوقف عن العمل، فما استطعت. كان الدخول إلى هذا المخزن الواسع ذي الجدران البيضاء، ورؤية الشموع الملونة، والبطاريات، وبطاقات المعايدة، وأوراق الرسائل الزرقاء والفوط والمناشف المرسوم عليها الفطر والزهور، وألعاب الأطفال، وأقلام البيرو، ذات رائحة منعشة، تدل على أنها جديدة، تذكر بالحياة الطبيعية، وتفاصيلها اليومية. حتى البرادات في الجهة الثانية من المخزن، كانت بيضاء، نظيفة كبيرة، فيها علب المرطبات والبوظة ورسوم المانجا والفريز. حتى قطع اللحم المثلجة تبدو جميلة بشراييتها، فضلته على بيتي، وعلى زيارة النساء اللواتي تعرفت بهن. عدا شعوري بالأهمية، إذ كان صاحب المخزن، عامر، أوكلني بالمراسلات، وكتابة طلبات البضائع، بعد أن كان عملي يقتصر على ترتيب الألعاب وعرض الأدوات المنزلية في الطابق الثاني.

عملي شطر النهار. كان يومي يبتدىء في الرابعة بعد الظهر، بعد أن أتناول الغداء مع زوجي وابني عمر، الذي يأتي من المدرسة في الساعة الثانية، ثم أنهض بعد أن أنام عشر دقائق لأعلّم عمر دروسه العربية، قبل أن يذهب إلى المعلمة الخصوصية الست وفاء.

في بادىء الأمر، استغربت كيف عرضت عليّ زوجة عامر الأجنبية هذه

الوظيفة، ثم كيف رضيت بها، فأنا خريجة قسم أعمال إدارية في الجامعة الأميركية في بيروت، ولكن لم يقبل أن يوظفني أحد. خاف الجميع من القانون والكبسات والجزاء. حتى زوجي تنصل كما وعدني من أن يجد لي عملاً حين ألمّ بظروف هذا البلد. بقيت مختبئة في الصندوق، إلى أن سمعت مرة وقع أقدام، تقترب منه، أو كأن يداً أو قدماً ارتطمت به. حبست أنفاسي، ووجدتني أبتهل وأرتعش، مؤكدة لنفسي بأني إذا خرجت من هذا الصندوق بلا فضيحة، فلسوف أتوقف عن العمل.

قررت الخروج من البيت وبسرعة صباح اليوم الأول لتركي المخزن. ما أردت أن أعاني كما في السابق من الضجر، رغم أني عاندت الزكود الذي يكتنف هذا المكان، أو المستنقع الذي لا يجف ولا تزيد مياهه، وانغمست كالباقيات في الحياة هنا حتى لا أتأفف، تركت نفسي بلا أخبار عالمية ومحلية، بعيدة عن القرن العشرين. أصبحت قضيتي مقادير عجينة الكعك، البحث عن أصدقاء لعمر، آخذه لرؤية سعدان صغير رغم معرفتي أنه عضّ صاحبه. هنّأت نفسي حين استطعت تجهيز غداء، لخمسة رجال أعمال قبل مجيئهم بساعة واحدة، تقديم الحفلات للأطفال بعد أن صنعت بنفسي مسرحاً للدمى المتحركة، دققت مساميره، وعلقت الستارة بنفسي، أرسلت بطلب العرائس من لبنان. فلما أتتني فرحت بها أكثر مما فرح بها إبني وأصدقاؤه. لكن لما جاءت أمهات الأولاد وجلسن بلا حماس ولم يصفقن للمحاولة، حقدت عليهن وحرمتهن الحلوى التي أعددتها.

هل أذهب إلى سوزان؟ مريم، إلى أم كيروز، إلى سوزان إلى هند، إلى ريم، إلى استيفانيا، إلى ليلى، سوزان؟ أو إلى أم كيروز؟ إلى تهاني؟ سوزان؟ إلى أمال أو إلى مريم؟ إلى سوزان؟ شاهناز؟ إلى خلود إلى رجاء إلى دلال أم إلى صباح؟ سوزان؟ لما أبعدت سوزان عن فكري، تصورت بيوت الباقيات، ثم سمعت أصواتهن، عرفت ما تخبئه الزيارة.

صباح: تحليل العلاقات الزوجية، الكرامة، الأطفال. شاهناز: البيت والأثاث ثم البيت والأثاث وابنها الناجح جداً جداً وابنتها

المتوسطة النجاح والحق طبعاً عالمعلمة. رجاء: أفضل طريقة للدفاع عن النفس بهار وفلفل أسود تضعه في صحن قرب سريرها كلما سافر زوجها، حتى إذا ما حاول أحد الاعتداء عليها رمته بالصحن. استيفاني: فرصة العمر في الصحراء لا وقت للضجر، تستورد كل شيء من بلادها السويد وتبيعه. تنكش وتزرع في أصاصي، حين تصبح البزرة غصناً أخضر تبيعها. تقص الشعر وتلونه، تخيط الملابس. تخبز الكعك، كل هذا لقاء أجر، تلف المال في ورق الألمنيوم وتضعه في الثلاجة. مريم: الأناقة في كل مكان حتى في الصحراء. جزمات جلدية في الحر. إن ما يضايقها هو الرقابة التي تدلق حبرها الأسود على معظم صفحات المجلات إذا ما مزقت بعضها. التمارين الرياضية للمحافظة على الرشاقة. أفضل طريقة لتمارين البطن هو حبس البول أطول مدة ممكنة. أم كيروز: «الله يشنطت اللي شنطتنا، الله يقصف عمر اللي كان السبب، يا حرام يا حرام يا لبنان. امبارح كان في قواص، بس اليوم هاديه. ولو حتى تحت القواص أنا مستعدة عيش. مش هون؟ «بحفرة نفرة». ريم في النهار: شغل البيت لا يتركني أرتاح دقيقة، مسؤوليات الأولاد كذلك. ريم في الليل: ها. ها. ها. لا أستطيع لا أستطيع تبديل ضحكتي التي ينتقدني عليها زوجي. لما سألت غسان صديق زوجي، إذا كان شاربه مستعاراً، أجابني «جربي». مددت يدي وشددت بالشعيرات وكان حقيقياً. قال ولو ما في بوسه؟ أجبته: ليش لا. وضحكت ها. ها. ها.

تهاني: إيه ده! التلفون يرن كل ثانية. وعزومة عالشاي والقهوة، من بدري الصبح، إيه ده أكل وشرب ما فيش حاجة ثانية، هزار ومنافسة بالهدوم، حتى ونحن منلعب بريدج الستات بيجو وخواتم الألماز زي البيضة، الله ما نحنا سبور بقى وكلنا متعلمات خريجات جامعات، بس نعمل إيه؟ ممنوع الشغل، ممنوع سواقة السيارات، وما فيش حته تتفسح فيها - قوليلي والنبي بتشربي إيه، لا والنبي تقولي، شاي واللاقهوة واللاشاي بالنعناع. والنبي تذوقي «أم علي». ما تعرفيش أم علي. . الله حد ما يعرفش أم علي؟ شوفي يا ستي تحضري الرقايق والفاكهة و. . . ما عرفتيش الشيخة عملت عزومة كبيرة وعزمت ابتسام ومنال وهم قاعدين قالت لهم واحدة ست

أن العزومة عشان ابنها الشيخ عايز يتجوز، وقالت واحدة ثانية يمكن في كاميرا مستخبية وراء الستائر. فضلت ابتسام ومنال يبصوا في الستائر لحد ما طلعت عينهم. وبعدين الشيخة قالتلهم دول الستائرعاملهم فالنتينو، شوفي يا ... بقي فالنتينو يعملهم ستائر...

تعرفت عليهن في السنة الأولى لقدومي، شعرت ككل امرأة تأتي إلى هنا، أن هذه الأيام غير محسوبة من الزمن، أخذت أصادق أياً كانت لقتل الوقت، كنت أعيش في كمب، الغرف صغيرة معتمة، الحمام يذكر بحمامات البونسيونات، كان البيت مقبولاً إذا ما قورن بالبيوت المغبرة والطرق الملتوية والدكاكين القليلة البدائية في الشارع الذي أسكنه. حاولت أن أحسّن البيت. بدلت الستائر السميكة الغامقة بأخرى خفيفة. وضعت فوق الكنبات شراشف الأسرة الملونة، التي أتيت بها مع ملابسي. ألصقت على الجدران، مناظر لبيوت سويسرية وبحيرات. كان عمر لا يزال مع أمي في بيروت ريثما أنتهي من تحضير البيت.

عرفت أن الحياة هنا غريبة حين افتقدت الثوم لطبختي، ولم أستطع الخروج إلى الدكان لشرائه. فتحت وقتها الباب، ووقفت عند عتبته المرتفعة عن الأرض، أنظر حولي، عبر البيوت الخشبية الأخرى، المطلية باللون الأبيض، والأشجار القليلة، وخزان المياه، والشمس الحارقة فوق الأسفلت، جعلتني أفكر وكأني في محطة فضاء، والبيوت متناثرة، والأبواب مغلقة، وصوت المكيفات يهمهم. فقط حين أركب إلى جانب زوجي للتسوق، كنت أفرح لمفارقة البيت. لكن، مهما حاولت شراء كل ما أحتاجه، إلا أني كنت أنسى الكثير. ولم يكن المعروض على الرفوف يساعدني، اختلطت جميع السلع معاً. خفاقة البيض مع القماش مع الخضار، جانب ألواح الصابون، وكتب تعلم العربية، والخبز، جانب الخناجر ونقود ماريا تريز الفضية.

عرفت أن سكان الكمب هم من العرب والأجانب. لكني لم أقو على طرق أبوابهم، ربما لأني كنت أسمع شتائم الأهل، وصراخ الأولاد، حفظت

خلافاتهم، رغم ارتفاع ضجيج تلفزيوناتهم. حفظت أيضاً أسماء الأولاد، وجملة الأم: «مش فاكرة» وكلمة الأب: «عزرائيل».

أيام قليلة، وتوافدت النساء عليّ، يلمنني كيف ما دققت أبوابهن، واحدة اسمها أم كيروز قالت: «أوعي تكوني ملاك حتى ما شعرنا بك». والثانية علقت مقهورة من عدم فطنتها: «عجيب كنت أسمع السيفون، وفكر عم يشتغل السيفون على كيفه، وأسمع زيزقة، وقول يا رجال حاج تاكل عم تزيزق كل ما تمشي». شعرت بخيبة أمل. أنا لست في الصحراء التي رأيتها من الطائرة، ولا التي قرأت عنها أو تخيلتها. الرمال موجودة، الرياح موجودة، لا بيوت قديمة، وما أردت أن أحكم على الصحراء، من خلال الأسابيع القليلة التي قضيتها في البيت الخشبي، بين البيوت الخشبية الأخرى. لكن الانطباع الأول هو الأهم، لأن العين تعتاد، ولا تعود تمد العقل والقلب بما ترى وبما تشعر. الحياة اليومية موجودة في الصحراء، لكن التي تُذكر بربّات البيوت اللواتي حياتهن لا تتعدى رائحة الكزبرة، والجارة تفتح الباب نصف فتحة، لأن على فخذيها عقيدة سكر، التبصير في القهوة، والقمح المغلي للسنينية، والقيل والقال وشغل الصنارة. وحفاضات الأولاد. كنت أعرف أني مختلفة عن جاراتي، لكن، اطمأننت لوجودهن حولي.

أما زوجي فقد بدأ يكتشف ماذا بعد هذا الشارع، وذاك المنحنى، وهذه الدكاكين وخلف ذاك البناء، بيوت من حجر واسعة، لها حدائق صغيرة، وإن كانت من حصى ورمل. طلب نقله إلى بيت آخر. ولدهشتي لبى طلبه. ولما أسرعت أزف الخبر إلى جاراتي، أريد إدخال الفرحة إلى قلوبهن، بأن هناك بيتاً يستطعن زيارته خارج الكمب الذي يسكُنَّ في نطاقه. إذ كن يتحدثن طويلاً عن المواصلات، واشتراك العائلات كلها بشراء سيارة، أو استقدام سائق «حتى يزرن الشياطين»، كما علقت أم غسان. وبدل ما يفرحن بخبر انتقالي، بدت على وجوههن علامات الحرقصة، لا الحزن. ابتدأن جميعهن يلمن الشركات التي يعمل لديها أزواجهن، يتحدثن عن زوجة المدير، عن بيتها والخدم والسائق وعقدها اللؤلؤ. ارتفعت

أصواتهن، كأنهن في حمام قطعت مياه حنفياته ورغوة الصابون ما زالت على أجسامهن. قالت إحداهن موجهة اللوم لي: «صار لك شهران، ونحن ثلاث سنين»؛ وأضافت أن العقارب والأفاعي والجراذين لا بد أنها في المئات، تحت كل هذه البيوت الخشبية، المرفوعة عن الأرض. وبأنها تسمع كل يوم النقر والفحيح. أخذن يتسابقن في سرد أخبار وحكايات الجرذان. قالت أخرى ان جرذاً كان يسحب الدجاجة وهي في الفرن. شهقن جميعهن، وقاطعتها أم غسان: «كيلو لحمة اختفى عن الطاولة لما رحت أفتح الباب، يمكن الجرذون عم يراقبني».

عندها أمسكت منى ابنها، وقلبته بين يديها، تبحث في قدمه البيضاء السمينة، ثم قالت جواباً على استفسارهن: «في عقارب، يمكن اللي صار للصبي عقصة عقرب، من كم يوم صرخ، شلته من تخته وصار ينتفخ، لونه أزرق. وكل جسمه صار مثل حب الرمان».

نهضن، وأنا أرى فناجين القهوة على الطاولة. شعرت للحظة بحزن خفيف. ثم نهضت أضع كل ما تجمّع لدي طوال هذين الشهرين في صناديق. لما جلست، بدا البيت، كما دخلتُ إليه أول مرة، الستائر سميكة، خط من الغبار ينساب في الفضاء. الكنبات خشنة الملمس. لم أستطع إلا أن أشعر بالحزن على جاراتي، لأنهن في هذه البيوت. فكرت أن أدعوهن لزيارتي في البيت الجديد. لكني ما عدت رأيتهن أو حتى لمحتهن عن بعد منذ ذاك الصباح. حتى أنني كلما مررت قرب الكمب، ألتفت إلى الجهة الأخرى. رؤيتي للسقوف والجدران الخشبية الصفراء. وغرسات الدفلى المغبرة، هي كلها، تذكرني بنفسي وأنا في داخلها، بين النسوة لا حول ولا قوة، عدا أن فكرة العيش مؤقتاً في البلد لم تجعلني أشعر بالثبات كالست وفاء إزاء بيتها، فهي زرعت الحبق والفجل، أقامت قناً للدجاج، والديك الذي أصبح خطراً، لحقت به الست وفاء بالمكنسة فلحقها بدوره. كانت تفوح من بيتها رائحة الاستقرار. وأنا أرى مرطبانات المربى، الكشك والصعتر والبرغل مصفوفة في المطبخ. كنت أحب الدخول إلى بيتها، وشرب شراب التوت، كنت أتحجج بالإتيان بعمر والسؤال عنه. لأرى الأولاد ملتفين حول الست وفاء،

التي تعلمهم واحداً واحداً، وتملي عليهم الإملاء، وتفقي البازيلا وتقطع اللوبياء في آن. كان الأولاد يحبونها رغم صراخها، وشدّ أذن من يخطىء، ومناداتها لهم، أفندي، وست زبيدة، وتهديدها الدائم بأخذهم إلى مدرسة الفلاء، وهم يضحكون لأنهم رأوا مدرسة الفلاء، والشيخ والعصاة. كأن الحياة تبدلت هنا، بعد أن انتقلتُ إلى الفيلا الجديدة. لم أعد أشعر بركود الأيام، كما في الكمب. أخذت أتسلى بخياطة الستائر والوسائد، وبتعليق اللوحات، وترتيب الخزائن. استعرت كتباً عن الحدائق. وأخذت أنكش الحديقة، أزرع الحب، أنتظر من يوم إلى آخر أن يطل اللون الأخضر. أدعو النساء لزيارتي. مزهوة ببيتي الجميل، أقدم لهن الشاي والكعك في فناجين، ألوانها بلون الستائر. قررت أن أستفيد من وجودي هنا. انضممت إلى صف التمارين الرياضية عند مريم، ثلاث مرات في الأسبوع لساعة واحدة. وإلى صف تحضير الكعك وتزيينه، وإلى مجموعة تقرأ الكتب وتناقشها. حتى اني أصبحت تلميذة عند استيفانيا، أطرز بالابرة وأتعلم الباتشورك، وكنت أود أن آخذ دروساً في تنسيق الزهور الاصطناعية، لكن الوقت لم يسمح. كنت أعرف في قرارة نفسي أن تعاملي مع الحياة شبيه بتسلق الأودية والانحدار في الجبال. خفت من مقتي الشديد لكوني أعيش حياة قاحلة وغير طبيعية. لذلك أخذت أدافع عن الحياة هنا، حتى ألقّن عقلي بما يجب أن يفكر فيه. وكنت في مناقشاتي مع اللواتي يكرهن العيش هنا من عربيات وأجنبيات أتخبط أيضاً في التناقض. وأسير بالمناقشة إلى حد اللامعقول بل والتفاهة. قلت لهن إن الحياة هنا مثالية، وإنهن محظوظات، فهن يرين المدن كيف تُشاد، ويشهدن على تحول الإنسان من البداوة إلى المدنية، وأضفت بأن هذه فرصة، إذ لا شيء مهيأ لهن كما في البلاد الأخرى. يجب أن يحاربن من أجل ما يردنه فعلاً. رغم أني فكرت بيني وبين نفسي في أن الوقت يضيع في البحث وعمل البديهيات التي أصبحت معروفة وموجودة أينما كان.

ولم تسر الأمور حسبما أقنعت عقلي، وأنا أجبر نفسي على حضور الصفوف، وحين أخذت أشبّه النساء اللواتي يحضرن معي صف التمارين

الرياضية بطيور وحيوانات، وأشد على قمع الكريمة كمن ينتقم بدل أن يتفنن في عمل وردة. عندما أخذت أشرب القهوة، وآكل الكعك، بدل أن أناقش الكتب، ولما أصبحت أقضي وقتاً طويلاً أحاول إدخال الخيط في سم الإبرة، والبحث عن الإبرة. تركت كل هذا ولازمت البيت. وأصبحت كمعظم النساء هنا، أفكر في الضجر وعدم السعادة والسفر. وما كان الحل، إلا في الخروج من البيت، والعمل في المخزن. كنت وراء الأوراق، أكتب الرسائل والطلبيات وأضع الأسعار على كل ما في المخزن. وكنت أقلّب كاتالوجات البضائع، والمأكولات، كاتالوجات لماعة، ملونة، أختار مما أراه. حين تأتي البضاعة كنت أسرع إلى الصناديق بحماس، أقارن الحقيقة مع تصوري وأشعر بأني على صلة بالخارج، وأنا أقلب بين يدي كوباً، أو علبة، وكنت مع نشاطي وذكائي في العمل أخطىء. كانت الأخطاء، تكلف عامر مراقبة العمال في المرفأ، وهم يدلقون النار على صناديقه، لحرق معلبات باتيه الوزّ التي طلبتها دون الانتباه إلى كلمة دهن الخنزير ضمن المكوّنات المكتوبة. وطلبت الألعاب، دون الانتباه إلى أن ورق اللعب داخلها. وطلبت ورق الغار، والفجل الحار، والروز ماري، دون المعرفة أنها ستصل وعلى علبتها كُتِب أنها تضفي رائحة وطعماً شهياً، على اللحوم والطيور والخنزير. وكان على عامر أن يأخذ العمال ومعهم الأقلام السوداء لمحو كلمة الخنزير عن ألف علبة. رغم أني أصبحت أشد دقة في طلباتي، إلا أن بعض الصناديق لا تزال تحرق.

وما عاد الاختباء في صندوق الكرتون هو المشكلة، التوتر النفسي الذي أخذ يسود المخزن، عامر في أشد عصبيته، كذلك زوجته. في اليوم الذي أعطاني الورقة حتى أقرأها، كان يدخن بطريقة وكأنها السيكارة الأخيرة. آلاف النقود ذهبت سدى، صودرت الصناديق الآتية من الولايات المتحدة، وأتلف ما فيها، سألت بلهفة، هل هرّب أحدهم الويسكي، أم أفلام الفيديو الخلاعية بين محتوياتها؟ أتلفت اللعب والعرائس، وكل الدّمى المأخوذة عن شكل الإنسان والحيوان والطير لأنه لا يجوز مسخ حيوانات الله، رغم الحزن، ضحكت، وتخيلت الرجال، ذوي الأجسام الضخمة والأيدي

الكبيرة يقلبون دمى باربي وسنوبي، وود ستوك. يمسكون عصافير ومنافض من الكريستال على شكل قطط. يفكرون بعداء تجاهها، وهي صامتة تنظر إليهم.

فكرت كيف كنت أتحمس لرؤية برنامج «مابيت شو» وأضحك لكرميت فروغ، ومس بيجي، ولم يخطر لي أبداً، أن هذه التي تغني وتقفز وتستحوذ على ضحك وإعجاب الحاضرين، ما هي إلا دمى محشوة لا تنطق. لذلك عندما سألني عمر يوماً، إذا كانت هذه تُبدّل بأخرى جديدة، عندما تصبح عتيقة، شعرت بالحزن لأني ما تصورتها إلا حقيقية، رغم الخيطان التي تمسك أيديها وأرجلها. وتخيلتها فوق بعضها، في صندوق أو خزانة ما في الأستديو، قبل وبعد تسجيل الحلقة. العيون ميتة، الأفواه مقفلة والأجسام جامدة.

ما تركت العمل في المخزن، إلا عندما رأيت ذات صباح عند باب المستودع المفتش، حيث أدخل وأصعد السلالم قاصدة المكاتب.

وهذه المرة عرفت أني لن أزور أحداً، تجربتي الصحراوية يجب أن تعتمد على المكان أيضاً، لا على البشر قط. يجب أن أقيم حواراً مع الطبيعة.

سألت السائق سعيداً أن يلف بي البلدة، شارعاً، شارعاً، مبتدئاً بالمطار متذرعة بأني أريد مساعدة باسم في وضع دراسة للبنك. نفخ سعيد صدره اعتزازاً وزهواً، رغم عدم معرفته تماماً بما أقصده، ومد يده إلى لفة رأسه وقال: «على رأسي». ما إن تركنا المطار حتى فتحت عينيّ، وأقنعت نفسي أني آتية للتو من بلاد بعيدة، وأنه لم يسبق لي أن رأيت الصحراء من قبل إلا في الصور. ولم أر الصحراء، بل وجدت نفسي داخل مشروع بناء كبير.

شاحنات تقف تفرغ حمولة. تعبىء حمولة. بكرات ضخمة تلتف حول وسطها أشرطة كهربائية أو أشرطة هاتفية. ونش زأر. تستطيع مخالبه رفع الجبال والمدن. خلاطة لا يتوقف بطنها عن الدوران. ذيل عربات نقل يمتد عشرات الأمتار. عندما تمر هذه الناقلة، تجمد العيون. إنها ناقلة زيت. كأنها مارد بلع الكثير من البشر ومن الدنيا، حجم كل دولاب من دواليبها

الأربعة يفوق حجم سيارة، سائقها في السماء يتمهل، كأنه يدرس أمر هبوطه بمظلة في جهة ما من الصحراء.

لما رأيت رجلين يغرزان في الرمل دعاية عن افتتاح سوبر ماركت جديد يبيع عشرة آلاف صنف، تعجبت. تبدو الدعايات القديمة في المناطق النائية، كأنها خلقت مع المدن، والجديد منها كأنه من عمل السحرة.

في الشوارع التي بعضها بلا أسماء، أبنية رأيتها في الأسابيع الماضية مجرد أساسات حديدية. إنها تستهلك بسرعة السكان الآتين لبناء المشاريع الأخرى، بين أشجار النخيل الحقيقية، أشجار نخيل من البلاستيك. ومن المعدن المدهون بالأخضر، تغرز وسط الشوارع قصد الزينة، براميل عديدة، وبلاط متراكم جنباً إلى جنب، في محاولة إجراء حوار. مكنات، آلات، معدات مطروحة منذ ثلاث سنوات، تتقافز فوقها الماعز الأسود والأشقر للحظات فقط، ولا تلبث أن ترمي بنفسها على التراب هرباً من سخونة المعدن.

ثم ذهب بي سعيد إلى شاطىء البحر، حيث أقيمت محطات ضخمة لتحلية المياه ولا تزال تقام محطات أخرى. يرفرف طير أبيض، يقف على شريط لا يمسه التيار الكهربائي. رجل على رأسه كوفية بيضاء، يتطاير ثوبه الأبيض وهو يتفقد المحطة، يبدو الرجل من بعيد فوق هذا البناء الحديدي الهائل كأنه سوبرمان.

الورش قائمة في الأسواق. إنهم يهدمون الأبنية القديمة التي تختزن بين جدرانها الحر والرطوبة، والتي تفتقر إلى فن العمارة، وزخارف النحت والنقش في الحجر والخشب. يقيمون مباني جديدة، تعج بالمكيفات وأضواء النيون والبلاط المزخرف المفرط في زخرفته وألوانه. كل شيء يبدو غير جذاب. عدا الكتابة بالدهان عبارة «ما شاء الله» على الحائط وبلون مختلف.

رائحة غريبة، غيوم سوداء كالحة تتهابط عن مستوى الدكاكين، وسائق يتمهل وذيل سيارته يرش الناس والفضاء بمبيد للجراثيم.

عمال من الجنس الأصفر، في الطرقات، في السيارات وعلى السلالم

الطويلة. يمانيون بتنانيرهم وجاكتاتهم الواسعة وأحذيتهم العالية، كلما خطوا تعثروا. بينما الرمال الموجودة تزحف على الطرقات، يرشون عليها الزيت لتجمد، لكنها في تكاثر دائم، تهجم أينما كان، على الصحارى التي زرعت، وعلى الأسفلت، تقذف بنفسها على النوافذ، وعلى اخضرار الأشجار القليلة، وعلى السيارات الفخمة وهي تزاحم سيارات الشحن.

اضطربت قليلاً، شعوري السابق باختفاء إحساسي بالحياة يتأكد، وبالتالي بانعدام وجود المرأة ولو على السطح. كأن المنازل معظمها للرجال ولأشغالهم. يافطات من المعدن والقماش على كل مبنى شركة كذا ومركز كذا. حتى البيت الوحيد الذي له قرميد أحمر، ونوافذ اسبانية، ركزت على مدخله يافطة: مكتب المحامي عدلي. كانت البيوت بلا شرفات. والأسوار العالية تحيط بكل شيء حتى بالأسوار نفسها.

وجدت نفسي أسأل سعيداً لكي يأخذني إلى صديقتي أنغريد. رغم إحساسي بالغثيان وبالتعب، من اللف والدوران في السيارة. أردت أن أكون في حضور أنس، يتكلم ويتحرك حتى أستمد منه القوة والحرارة، ما يتيح لي التنفس من جديد، والاندماج في وقع هذه الحياة.

اخترت أنغريد، بسبب حديقتها. تذكرني غرساتها ببيروت: السجادة الليلكية، وميال الشمس، وغرسة ثالثة برتقالية ذات رائحة. عدا حبي لحلوياتها الشهية التي كانت تعدها بمهارة.

سأل سعيد: الأميركية؟، وأشار بيده إلى رأسه وفتلها؟ أجبته شبه ضاحكة: «لا، أنغريد الألمانية اللي عندها جنينة». «ها» فطن سعيد إذ علق: «آه الضعفانة! مسكينة». حفظ سعيد صفات اللواتي أزورهن، وإن لم يحفظ أسماءهن، وكان يكتشف طباعهن من طريقة كلامهن وتصرفاتهن، إذ لم يكن ملماً بأية لغة أجنبية. تعلم إلقاء تحية الصباح على كل امرأة زرتها، وهو يبتسم مسروراً بهذا الإنجاز، حتى تظهر أسنانه الذهبية، وما يتخللها من فراغات. لما استفهم أول مرة عن صباح الخير بالانكليزية والأميركية واكتشف أنها واحدة قال: «سبحان الله قلوبهم ولسانهم على بعض!».

كان سعيد يجلس في مطعم ومقهى عدن، عندما قرأ أحدهم على مسمع منه إعلاناً عن وظيفة محاسب شاغرة في البنك الذي يديره باسم. سأله سعيد ماذا على المحاسب أن يعمل، أجابه الرجل بتهكم: «يعد الفلوس». ذهب سعيد إلى البنك وطلب مقابلة المدير، وأصر على المقابلة ولم يسمح له بالدخول. انتظره عند الباب، ليمد يده إلى النقود الورقية التي في جيبه ويعدّها أمامه بلمحة بصر كأنه لاعب قمار محترف، لا كرجل يرتدي الفوطة وينتعل صندلاً، ثم يعيد نقوده إلى حزام وسطه ويصلح من لفة رأسه الملونة. سأله باسم: أين يعمل الآن؟ وأجابه: في مطعم عدن، يشك اللحم في السياخ ويشويها. هل يقرأ؟ أو يكتب؟ اكتفى سعيد بالابتسام. توظّف في البنك يمسح الغبار، ويحضر القهوة والشاي. بعد مدة سأل سعيد باسم أن يعلمه القيادة، شرح له باسم أصول القيادة ثلاث مرات، بعد أسابيع أصر سعيد على أن يقود السيارة أمامه، قاد سعيد سيارة باسم بمهارة، وقبل أن يستفسره باسم، قال إنه أخذ يتمرن كل يوم مستخدماً كل سيارة تقف عند باب البنك بعد أن يقنع سائقها بأنه سيركنها له في مكان ظليل. والذي كان لا يرضى كان يبدل رأيه، وسعيد يتصنع البكاء أمامه متمتماً بأنه ليس أهلاً للثقة.

وندمت، رنة الخمول لا تزال في أحاديث أنغريد. ما إن تبتدىء الجملة وتأتي نهايتها حتى يكون من سمعها قد حضر نفسه للنوم. جلست قبالتها نعسة ألوم نفسي لماذا أتيت، متمنية لو أستطيع النوم مفتوحة العينين.

وهي تخبرني عن الرجل الذي وجدته يتلصص عليها كنت أفكر في الكعك الموضوع على الطاولة، ورائحته الشهية، وميال الشمس الكبير كالقمر. ثم شعرت برغبة في الضحك وأنغريد تعيد أخبار والديها. أمها المريضة، التي لا تقوى على السير إلا بمعاونة والدها، والذي عندما زلت قدمه وقع وأوقع أمها، وكيف بقيا على الأرض حتى اليوم التالي.

ندمت لضحكي وأنا أتخيل المنظر. حاولت التركيز على ما تقوله أنغريد، ولما لم أستطع، نهضت متحججة بعذر، ولما قالت لي أنغريد، «زيارتك قصيرة، حتى إنك ما ذقت كعكتي»، تباطأت في السير، لكن النظر

في وجهها، ورؤية الملل من جديد، جعلني أسرع إلى الباب، ولم أتوقف في الحديقة. الحر كان شديداً، وأنا في السيارة رأيت ميال الشمس يتلصص عبر السور.

بقيت في السيارة حائرة، ألتفت حائرة أين أذهب؟ الوهج يدخل عبر النوافذ، حتى إلى معدن السيارة، تصل الرطوبة إليّ، رغم مكيف الهواء. وعدت بنظري إلى داخل السيارة، بعدما شعرت باكتئاب وأنا أرى الحدائق من الاسمنت.

سألت سعيد فجأة أن يأخذني إلى بيت سوزان. وليتأكد رفع يده إلى رأسه يفتلها سائلاً: «الأميركية يا عمتي؟» تصنعت الضحك وأنا أجيبه: «نعم». ولم ينتبه سعيد إلى لهجة الاختصار في جوابي إذ سأل: «من زمان يا عمتي ما تزوريها».

لما اقتربت السيارة من معمل الكولا. ورأيت القناني تسير أوتوماتيكياً، وتتوقف لتعبأ، فكرت كيف تحمست لزيارة سوزان في المرة الأولى، من أجل معمل الكولا.

لما فتح خادم سوزان، رينغو، الباب عرفت أن اختياري لزيارة سوزان، كان في محله، رأيت نفسي فجأة في عالم لا يمت إلى الصحراء بصلة، إلا في الصينية النحاسية المعلقة على الحائط، وفي أباريق القهوة النحاسية أيضاً المصفوفة على الطاولة.

أحببت العتمة التي أحدثتها سماكة الستائر المسدلة، والموسيقى الرومنسية، ورائحة القهوة، وصور سوزان المتبسمة هنا وهناك.

هرعت سوزان من المطبخ صائحة، تضمني إليها وتقبّلني، تلومني على عدم زيارتي لها، وتديرني حول نفسي، لترى ملابسي وهي تردد: «جميل، أوه كم تبدين جميلة».

وابتدأت سوزان تروي أخبارها، ومن شدة حماسها كانت تنتقل من خبر إلى آخر دون إنهائه، وتعود إلى الأخبار القديمة التي أعرفها، كلما استفسرتها

عن شيء، أجابتني: «أوكي» تبتدىء بالإجابة، لكنها تنتقل إلى خبر آخر، تذكرني بالرسالة لحبيبها، ووجدتني أبتسم وأنا أسترجع اليوم الذي التقيت بها في المخزن، وكانت تتحدث بالعربية وهي تلدغ بحرف الثاء، وتمد لسانها، وكأنها تبلع الكلمات كسمكة تبلع صغارها عند الخطر. استغربت كما في المرة الأولى لدخولي بيتها ورؤيتي للخادم رينغو وهو يسرح شعر سوزان البلاتيني كأنه حلاق محترف. لما سار إلى المطبخ ليعد الشاي بدا كأنه فتاة ملمة بجمال جسمها. ولما صبّ الشاي في فناجين أمامي، ورفع إصبعه الصغيرة، بدا وكأنه مضيفة أنيقة، وهو يحرك الملعقة مذيباً السكر.

طلبت سوزان وقتها مني أن أكتب لها رسالة إلى حبيبها العربي معاذ، وكانت الكلمات ساذجة، عاطفية، رخيصة. شممت ما بينهما من خلال السطور. ولما سألتني سوزان إذا أعجبت بأسلوبها، هززت رأسي نفاقاً، ثم طلبت سوزان من رينغو أن يأتي لها بعلبة الكاسيت. بين كاسيت مغامرات دنبو، ومطربات ومطربين من سيرلنكا، حتى اني لمحت كاسيت محمد عبده، سحبت سوزان كاسيت كتبت عليها اسمها وطلبت مني سماعها. ظننت لأول وهلة أن سوزان تمزح، لكن تعبير وجهها ووجه رينغو عكس الحقيقة، ثم أخذت أشعر بالحرج، وصوت سوزان يتأوه، ويهمس، يغني، وينادي، ويصف القمر ووجه حبيبها العربي.

ووجدت نفسي أتوق لزيارتها غير مبالية بقناني الكولا، في واجهة المعمل، أستمع إلى قصصها مع معاذ المشوقة. كلما خف حماسي لزيارتها عادت أخبارها غير العادية تجذبني من مشاهد العنف إلى مشهد مزيف لمحاولة انتحارها.

لم أنقطع عن زياراتها إلا عندما منعها عامر من دخول مخزنه لفترة ما، إذ كانت تمازح البائع، ضحكتها عالية ملفتة للنظر، حمرة شفاهها فاقعة، كانت ملابسها برغم طولها، تظهر تكوّر بطنها وردفيها كلما تحركت. إلا أني ما توقفت عن الدفاع عنها وإلصاق كل التهم بطيبة قلبها. أتأملها الآن وهي تتحدث ربما لساعة، أتأملها وأشفق عليها وهي تبكي وقد ازدادت امتلاء،

بينما ظهرت جذور شعرها البني. تريني كالمعتاد آثار قنينة الزجاج على رقبتها، آثار المنفضة على إبطها، وما كفّت عن التوسل لأن أتدخل لدى معاذ وأكلمه من أجل أن يعود إليها. استبعدت بل رفضت الفكرة، وندمت للحظة، لأني عدت أدخل شربكاتها، أقنع نفسي بأني وبالتالي عربية، ووجدت نفسي أعدها بأني سأستعيد لها «معاذ» بطريقة أخرى. ولم أخبرها عن الطريقة، رغم توسلها الشديد، خفت من تهور لسانها وعصبيتها، ووعدتها إلى الغد.

- ٢ -

دخلت وسوزان بيت صيتهْ التي تداوي بالأعشاب والكي وتكتب الأحجبة وتسوح الرصاص، كأنه ما مرت سنتان على الزيارة الأولى. صيتهْ كما هي، في الفستان الجميل الذي بهتت ألوانه، التجاعيد الخشنة، من شمس الصحراء، ومن النار ومن عبوسها وهي تمسك بالأسياخ الحديدية، تظهر أسنانها الصفراء الصغيرة وكأنها أسنان حليب. غرفتها كما هي. على الطاولة، الطاووس المصبّر، وعلى الحائط أقرأ الجملة التي ما استطعت أن أتذكرها «صيته يا من ذاع صيتها، ترقد الجن، تولّع الحب والاتكال على الله أولاً . . .» حتى الديك المرسوم فوق هذه الجملة كأنه لم يعلق بذاكرتي.

أردت أن أدخل بيت صيته مرة أخرى، لأقرأ ما كان مكتوباً على الحائط، وأتسلى، صيته كانت على لسان سعيد، يحدثني عن مهارتها، كلما ذهبت بعمر إلى الطبيب. وكلما سمع بمرض أحد من معارف باسم، حاول سعيد إقناعي بأخذهم «إلى صيته»، وكان يقسم بالله أنها شفت أحد المجانين بدفن رأسه ساعة كل يوم تحت الرمل. وأنها وضعت كرش طير الرخمة لجرح متأكل، ونبتة القيصوم والبعينزان والجعد، لمرض السكري. ولما كان الاستغراب يبدو على وجهي كان سعيد يضيف: «إذا هي ما تنفع، كمان ما تضر. ناس يحلفوا بالعظيم أنها شفتهم، ورجعت حبايبهم، وناس يقولوا، ما يشفي إلا الله».

كان بيتها يبعد عن البلد نصف ساعة. أذكر في المرة الأولى وكانت معي أنغريد، كيف اقتنعت بأن الطبيبة، هي من خيال سعيد، إذ لا يمكن للصحراء أن تتوقف، وتقلص نفسها وتنبت بيوتاً ونخيلاً، لكن طريقة قيادته والكلام المتواصل عن صيته، أقنعني بأنه يعرف هذه الطريق قبلاً، «كمان غمضة عين ونكون عند الحرمة صيته». فكرت في أنه لولا فضول أنغريد، لما أتيت، تراءت فعلاً من بعيد، منازل، وشرائط كهرباء، تمتد بين عمودين، وحين اقتربت السيارة، بدت المنازل مجرد أكواخ سطحها من صفيح، وجدرانها من حجارة متربة، تلتصق هذه الأكواخ ببعضها على سطوحها أنتين تلفزيونات. ولدان في ملابسهما الداخلية، يقفان في طشت من بلاستيك، أحدهما يعبىء الماء، في علبة حليب نيدو، والثاني بعلبة مرطبات، يرشانها على نفسيهما.

سألهما سعيد عن بيت الطبيبة، أجابه أحدهما بلهجة السؤال «صيته»؟ وهو يدلنا على كوخ، يكبر كل الأكواخ من حوله، بقي سعيد في الخارج، بينما كان عليّ وأنغريد الانحناء لندخل عبر الباب المفتوح على فسحة غير مسقوفة. لا أحد. ناديت، «يا ست صيته»، أجابني صوت: «هين، هين» سرنا خطوتين والتفتنا، كانت هناك غرفة أخرى، بل مكان ثانٍ، لأن كلمة غرفة، لا تنطبق عليه. صعقنا حين أبصرنا رجلاً ممدداً يغطيه سرواله التحتي فقط، شاخصاً بعينيه إلى السقف، بينما انحنت صيته فوقه، تمسح جسمه، أدرنا وجهينا معاً بحركة لا شعورية، المفاجأة كانت كبيرة أرجعتنا خطوات إلى الوراء. قبل أن نلتقط أنفاسنا من جديد، سمعنا صوت صيته: «يا هلا، دقيقة لما خلّص من المسكين» ابتدأنا بالضحك، سألتني أنغريد متعجبة، كيف يمكن أن يحدث هذا. وأجبتها بجدية: «ولم لا؟ صيته «دكتورة».

ثم سمعنا صرخة، ثم صراخاً، تحركت من حدته الماعز التي كانت تعلك وهي جالسة تبرم وجهها من وقت لآخر كلما أرادت إبعاد ذبابة. دقائق، وخرج الرجل وقد ارتدى ثوبه ولم ينظر صوبنا، دخلنا إلى صيته، كانت تفرك يديها في الرماد قائلة وهي تنظر إلينا «يطهر اليدين». ولما سألتها مما يشكو الرجل؟ أجابت: «كحة وربو».

كانت الرائحة غريبة، ولو لم تقل صيتهُ «لحم شيبة شايط»، وهي تطفىء البابور الصغير، وتأخذ سيخاً حديدياً في يدها، ثم تفلته من حماوته، لما صدقنا أن هذا السيخ، لمس جلد الرجل. تعود تمسكه بطرف فستانها، تأتي بقطعة قماش من على الأرض، تمسكه به، تفرك السيخ وهي تردد: «لحم شيبة شايط، مثل اللي يشوي إجرين ضاني». تضيف كمن يوضح: «صدر الرجل تعبان، يخرّ ويكرّ مثل المسبحة، دهان وأعشاب ما نفع، قلت له، والله أنا ماسكة عقدة كل كتف وكاويتك، فتشت بكل جسمه عن العقد، في ناس عقدهم صعبة بالخواصر، وعلى بطاط الأرجل، مش كل إصبع توأم الأصبع». الرائحة الغريبة ما زالت، وصيته قالت وهي لا تزال تفرك السيخ: «اللحم لاصق بالسيخ، ما يبغي يطلع، لازم جلد الشيبة مقدد».

ثم انتبهت دون أن تنظر إليّ أو إلى أنغريد، أننا لم نذكر بعد موضوع الزيارة. رمت السيخ والقماش على صينية نحاسية مجنزرة. سوت من غطائها الأسود الذي يلم شعرها ومن البرقع الذي يغطي نصف الوجه. مسحت أنفها بطرف كمّها وأعلى شفتيها، بعد أن زحزحت البرقع قليلاً. كانت ترتدي فستاناً، فكرت لو رآه أشهر مصممي أزياء العالم لشهق وتمنى لو أنه فكر في تصميمه. الزهور الأرجوانية بلون أقراص النيل، والشمس والعشب على بياضه، طرز على الكتف والأكمام باللونين الأرجواني والفوشيا. وانتهت الأكمام وذيل الفستان، بحلقات مستديرة من الفضة. العقاقير أينما كانت، أعشاب مجففة، قزازات ومرطبانات، غُطِّيت بقصاصة جريدة على طاولة، على ريش الطاووس دوائر برق ذهبية. ووجهه بدا كأنه يبكي.

ويبدو أن «صيته» ضاقت ذرعاً بصمتي وبصمت أنغريد، فتململت وعدلت من فستانها. عندها قلت لها «فستانك حلو» ابتسمت صيته على مضض وقالت «مين المريضة». أجبت مبتسمة: «ولا حد، لكن صديقتي تحب تكتب عنك لمجلة في ألمانيا». قالت صيته وهي تضع يدها على وجهها: «أعوذ بالله، ما في تلفزيون». فكرت أنه ربما يتوجب عليّ ألا أتطرق إلى الموضوع مباشرة؛ وبسرعة كأني أمحو جملتي السابقة قلت:

«رأسي يوجعني؟» وما كنت أكذب، كان يأتيني الصداع بعد ظهر كل يوم، وقفت صيته ومدت يديها الاثنتين وأمسكت رأسي بقوة، وهي تسأل «فين الوجع يا بنيه» حركتها أخافتني، فجأة أبعدت رأسي عن يديها وقلت بتراجع: «مش رأسي، يعني أي رأس». أجابت صيته عابسة: «جايين تكشفو الأسرار؟». وجلست تعبث بما حولها متجاهلة وجودنا ثم انسحابنا.

ما إن أجلستنا صيته هذه المرة على طراريح، وجلست قبالتنا، حتى شعرت بالراحة، لأن صيته ما عرفتني، إذ تأهلت بنا كثيراً، وسألتنا: «شاهي أو قهوة؟ - لكن إلحاح سوزان جعلني أروي لصيته سبب زيارتنا، كأن صيته لم تأبه للأمر لأنها نهضت قبل أن أنهي كلامي، ورفعت ستارة، تدلّت من على جانبي طاولة، وأخرجت منها سلّة، وعادت تجلس في مكانها، تضع السلة في حجرها، تقلّب القناني وتتفرس بها ثم تعطيني قنينة وهي غير متأكدة، أمسكت بها أحاول القراءة: جوز الهند بالياسمين. قالت صيته وهي تتناول مني القنينة وتتفرس بها، «لا يا بنيتي، الكتابة مو لازمة، قناني أجيبهم من سوق الحريم، فاضيه وأنا أعبيهم».

لا تعرف سوزان ما يجري بيني وبين صيته، لكنها تضع يدها في السلة، ترى وجوه نساء هنديات، تسألني بسخرية إذا كانت ستحولها صيته إلى واحدة منهن.

كنت مشغولة أقرأ المكتوب على القناني بينما صيته لا تزال تحرك يدها بين القناني، تتأمل بعضها، وتعيدها إلى السلة، ثم تتركها لتمسك إصبع قدمها.

«زيت الخروع معطر للشعر». «زيت من ٤٢ عشبة وصفة قديمة لدكتور البلاط الامبراطور شاه آلام، لوقف تساقط الشعر؛ الزيت لتطويل الشعر فيه زيت اللوز والخس، وخشب الصندل».

كانت صيته تنتظرني أن أترك القناني، قبل أن تبعد السلة، وتسوي فستانها وغطاء شعرها، وتنظر إلى القنينة، ثم تضع يدها على يدي وتقول: «شوفي يا بنتي: ثلاث نقط، بس في الشاي، وأحسن شاي معطر، يشربو

أحسن على معدة فاضية وتشوفي . .» ثم تضحك من قلبها، تميل إلى الخلف من شدة ضحكها وتقول: «وتشوفي يركض مثل المجنون على الاجرين واليدين ويصير يشمشم مثل الجرو».

حاولت شرح ما تقوله لسوزان، تذكرت كيف ستضع له هذه النقاط وهو انقطع عن زيارتها، والتفت إلى صيته أقول: «يمكن ما نشوفه يمكن حجاب أحسن». تقول صيته، وهي تضع كفها فوق كتفي: «ما أنت قلت زوجك يا بنية؟» وما انتظرت جوابي إذ عرفت أنه لا جواب عندي سوى الحيرة، أحاول ترجمة ما يحدث إلى سوزان، لكن صيته لا تحب المماطلة والأخذ والرد. هي عملية، ويبدو أنها تثق بما تقوم به. أخذت تقص الجلد، وتشعل النار، ويتصاعد البخار، وتأتي بالمستحضرات، تتلو أدعية، وتمر بورقة على النار وتمسك بيدي وبحركة لا شعورية أمسك بيد سوزان وأعطيها لصيته، أفكر في حركتي هذه، لا بد أني أثق وأؤمن بما تفعله صيته، وإلا لماذا خفت وانتشلت يدي وأنا أتصور معاذ يلحق بي ويحبني نتيجة هذا الحجاب؟

تفتح صيته عينيها، وتكتب على الورق، تضعه في الجلد المقصوص وتأتي بمرطبان تفتحه وتغمس إصبعها، تمر بها على أطراف الجلد، تلصقه قبل أن تمده لي. وهي تقول: «لازم الحجاب في الغرفة اللي يكون فيها. لازم»، وما قلت لها كيف وهي لا تراه؟ نهضت صيته، تصفق كفاً بكف وتقول: أهلاً وسهلاً إن شاء الله ما تحتاجوني، شاهي والا قهوة. ثم أضافت وهي تمسك بيدي مبتسمة: «هالمرة أنت تمام، ريحتيني، وتسألي مشورتي، السنة الماضية جيت تضحكي علي وتأخذي الأسرار». دهشت، وسألت صيته: «فكرتك نسيتيني؟» خبطت صيته على صدرها قائلة «نسيتك؟» وسألتها عن الأجر، قالت صيته، «اللي تدفعيه، وأنا متأكدة لما يجيك على أجريه وإيديه حترجعي وتكافئيني». ثم قالت كمن تسأل نفسها: «سبحان الله، ليش الرجال داحين، تعبان وراقد ومتنسك» ومدت يدها تشير إلى أسفل بطنها قبل أن تكمل: «من زمان كان الحريم يجوني من الدم ومن الألم، ويقولوا لي، وحياة من سماك صيته توصفي علاج، ينفّر رجالنا حتى يعيفو المرقد ويتركونا

ننام، أقول أكتبلهم يتجوزوا ثانية وثالثة ويعفونكن من الرزالة ومن الوجع؟»
ثم تضحك صيته قبل أن تضيف: «صوتهن يوصل السما: لا يا صيته رزالة ولا وجع ضرّه».

- ٣ -

صعدت إلى سطح بيتي. الأرنب والأرنبة يرقدان تحت موتور مكيف الهواء، قفص الحمام فارغ. حبوب الذرة متناثرة على أرضه وعلى بلاط السطح، اختفى جوز الحمام الأبيض والأسود بعد أن وضعت الأنثى بيضة واحدة. سألني عمر: «الأم طارت لأنها ما بدها الزغاليل؟» أجبته: «مش معقول الحمام يفكر هيك».

عدت أنظر عبر سور السطح إلى سطوح البيوت. الدخان يتصاعد من محطات، ومعامل بعيدة، شعلة غاز هناك، طبقة كأنها شاش رمادي، قذر، تغلف المكان، رائحة المجاري ومواد كيميائية، تتصاعد في الجو. قلت في نفسي، «يمكن عمر معه حق».

لن أذهب إلى الجمعية في الغد، الجو في الجمعية الآن يشبه الجو الذي سبق الأسابيع القليلة لتركي عملي في المخزن. عدا أن ما حدث لي البارحة آلمني لدرجة.

كنت أسير في الشارع الضيق، أفكر أن الوهم هو الذي يضغط على تحركاتي. أريد أن أمحو بصماته عن فكري وإحساسي لأعود كما في الأيام الأولى لدخولي وتعليمي في الجمعية، بلا شائعات ونشرات. بدا السير في هذا الشارع كالسير في مكانٍ آخر في العالم. رؤيتي لفساتين الأطفال المعلقة، معظمها من الدانتيل الأبيض الرخيص، وملبوسات أخرى ملونة من

الصين الشعبية، والبائعات المتحجبات جالساتُ بين الدكاكين يفترشن الأرض، حولهن بضائعهن من الملابس النايلون. أقول لتمر: «لولاك، ما صدقت أنو في الصحراء واحة، مثل ما قرأنا بالكتب، ولا ينابيع»، ضحكت تمر بفخر. فهي منذ الصباح، تتنقل بي من بيت والدها في المنطقة الأخرى، إلى الينابيع الجوفية، حيث البنات الصغيرات وقفن يتأملن بحسد الصبيان، وهم يغطسون في مياهها بين السلاحف والضفادع الصغيرة، وعلى كل من ضفتيها زهور الثوم البنفسجية. تأخذني تمر إلى بيت والدها لتريني الرسوم المنقوشة على الجدران وعلى السقف، بينما السطح ما زال من سعف النخل. يلفت نظري منزلان طينيان بين البيوت الجديدة التي هي من الحجر والاستينلس ستيل، تشير تمر إلى بنايات زجاجية الواجهات تقول: «سوق الجمال كان هني، السوق كان ثلاث دكاكين لكن سوق الذهب لسه موجود، شهر واحد ويهدوه، فيه حريم يبيعو الحنة والفضة».

توقفت لما رأيت قماشاً محلياً مطرزاً. أمسكه بيدي، وأقرر شراءه رغم استغراب تمر التي اشترت قبل قليل قماشاً أوروبياً. وأنا أعد النقود، وأفكر أن الحياة طبيعية في هذه المنطقة. ربما لأنها ما فقدت القديم بعد. سمعت صوت ولد يقول: «أميركية» التفت إليه أحاول تصحيحه خوفاً من أن ترتفع الأسعار. وجدته يومىء بطرف عينيه ويهمس «عشان العجوز» وما فهمت إلا لما قالت لي تمر: «عشان العجوز المتدين، إذا عرف أنك عربية يزعل». نظرت بسرعة خلفي، رأيت رجلاً عجوزاً ذا لحية بيضاء، يضع النظارات الطبية، ويمسك عصا. قلت لتمر بصوت منخفض وبالانكليزية: «يللا نروح». فكرت بتحدثي الانكليزية قد وضعت على رأسي طاقية الإخفاء؛ لكن الرجل اعترض طريقنا وخاطب تمر: «قوليلها تستر ما في سفور عندنا». قالت تمر: «ما هي أجنبية، ولهم دينهم، ولنا ديننا يا شيبة». تظاهرت بالجهل التام بما يحدث، وكأني أحدث نفسي بالانكليزية دون أن أنظر إلى تمر، قلت: «نروح السيارة». كأني فجرت كل الغضب المخزون في قلب العجوز، صرخ بي وهو يمد عصاه سادا طريقي: «يللا، يللا، ما في تسويق وأنتم سفور».

شعرت بأني محاصرة من جميع الجهات. لما تدفق الرجال والأولاد من كل أنحاء السوق والتفوا حولي وحول تمر، شعرت بالغضب يفور، مبتدئاً بالقلب، مسرعاً حتى الرأس. ولما واجهت الرجل الذي وقف يسد بعصاه طريقي، وما استطعت ردها عني ولا زحزحت نفسي شعرة عنها، عرفت أني لا أملك نفسي وأني أسيرة هذه العصا، وهذه الجموع. شعرت بأني أغلي، وعرفت أني سأبكي بعد قليل. رغم صوت تمر واعتراضها، إلا أني شعرت بنفسي وحيدة. وبدت لي تمر كالنساء الأخريات الملتفات بالأسود.

عادت البائعة تصيح بتمر: «اشتري للست عباءة، وروحوا بيوتكم، الله يصك عليها باب الجنة، وأنت كمان عليك لوم».

نفرت بها تمر قائلة: «والله ما عرفت أنك حاملة مفتاح باب الجنة؟» ثم التفتت إلي بسرعة تنزع من يدي الكيس وتفرد القماش المطرز. أمسكه وأغطي رأسي به. وحين سرت، حجب الخجل والضيق كل شيء أمامي عدا الكراهية لباسم.

ولم أخبر سعيد بما جرى حين عدنا إلى السيارة رغم أن تمر ضحكت من قلبها، وهي تضرب كفاً على كف قائلة: «هالشيبه الله يساعده».

أخذت رأسي بين يدي، لما رفعته كانت الصحراء برتقالية بلون الأفق؛ كذلك واحة النخيل، لم أشعر بشيء سوى عجزي. إنيْ لا أملك شيئاً، ولا حتى عيني لأتأمل وأتعجب. لقد أدركت تماماً ما حدث: كان من أجل تمر وغيرها، ومن أجل شل حرية تنقل النساء. حتى لا تبدو بتلك السهولة والراحة، التي كنا قد بدأنا بها تجوالنا. عدت أمسك رأسي بيدي، لاحظت الليل. البنايات صامتة. أعمدة الأساسات الحجرية كثيرة، السكون يتأرجح على صفحة صخب، إنما مطمورة، لا يعكره إلا رائحة طعام كريهة. النجوم بدت لا معنى لها، كذلك القمر، هل كل شيء حقيقي؟ أحاول أن أتمطى، حتى علو سور السطح. وأطلّ كما أفعل دائماً، رغم أني لا أرى سوى أضواء البيوت وحقول الغاز، إن في الليل أو في النهار أو الصيف أو الشتاء.

في الغد سيذهب سعيد إلى الجمعية ويقدم للمديرة استقالتي. السبب:

أوجاع مؤلمة في الظهر، تعيق الحركة والنشاط. لن أرى بعد اليوم باب الجمعية الذي ينذر كل يوم بالتوتر، والمفاجأة. والنساء المحجبات الهارعات إلى الداخل، المنتظرات دائماً، تحت رحمة حسن أو سوء ذاكرة الأزواج أو الأخوان أو السائقين، ليعودوا بهن إلى بيوتهن.

في اليوم الأول لمكوثي في البيت لم أهرع كسابق عهدي لأزور الأخريات، بل صممت أن أعيش هنا بطريقة مختلفة، وبالتالي أن أفكر تماماً، كما فكّرت وأنا أطل من شباك الطائرة وأرى الصحراء لأول مرة. الرمال ساكنة تشدني إليها لتفش غموضها، وحتى أصبح قريبة منها ومن كتب التاريخ والجغرافيا، وبيوت الشعر والابل والقمر الواسع والنجوم القريبة والواحات والسراب والظمأ وحب الهيل. لكن المطار الواسع والكبير، كأي مطار عالمي، لولا كثرة الوجوه الشرقية الآسيوية، كان مجهزاً بأحدث الوسائل، الطريق إلى الفندق أوتستراد واسع. رأيت الأضواء، البلدة مشعشعة، السيارات كثيرة، الأشجار موجودة رغم قلتها. المطاعم، الفنادق، تصاميم هندسية مبدعة، متفوقة وصارخة بعصريتها.

كان الفندق فاخراً، وإن فشل من صممه وهو يفكر بعين الأجنبي الذي يود أن يرى هندسة عربية وأثاثاً عربياً، الثراء قبل الذوق في كل غرفة. الشباك الزجاجي يطل على أنوار بعيدة. في النهار رأيت ميناء كبيراً، جسوراً متينة. من قال إن هنا صحراء؟ وكل مكونات وأساسات المدن موجودة.

ولم يمض وقت طويل حتى عرفت أني واهمة، ما كنت في الصحراء تماماً ولا في المدينة. الصحراء استكشاف فقط، حتى العيش مع أهاليها، هو تجربة وكتتمة سياحية، وهم بالتالي غرباء إلا عن خيم الشعر والإبل والرمال، بينما الذين في المدن، يتصارعون، مع ما يأتيهم من خارج الرمال. كل طائرة حطت على رمالهم كانت تأتيهم بما يخافونه، ولا يتعرفون عليه، لأنه لم ينبثق عن الرمل القاحل هنا. لكن الطائرات تحطّ محملة بالبشر وحضاراتهم المختلفة، ولا مجال لرفضهم إذ هؤلاء هم الذين يعرفون أسرار الصحراء، كأنهم خلقوا في بطنها ويعرفون أين السائل الأسود، كيف يحولونه إلى مقابض وحنفيات ذهب في الحمامات.

أردت اليوم أن أفعل، كما فعلت في اليوم التالي لوصولي، عندما كنت أمارس نفسي، ونزلت إلى بركة الفندق أسبح وأقفز من على الخشبة، وأدلك ساقيّ بالزيت، وأبتسم للساقي الذي أتى لي بعصير البرتقال، وأتمدد براحة، لكن ما عادت روح ذاك اليوم تتكرر. فكرت وأنا أتأمل لون موزاييك المسبح، «أخضر البحر»، والشماسي المتينة الزرقاء، والشيزلونغ المريحة، النظيفة وكوب العصير البارد الواقع بجوه الخانق سلخ قشرة الحداثة. ما عدت ذهبت إلى المسبح، بعد أن دخل أحد الرجال يضرب الطاولات، يفرق المستحمين والمستحمات، احتمت معظم النساء، بغرف التبديل وهن يرتجفن، والقليلات من الأجنبيات لم يفهمن ما يجري. أحد الرجال تحاشى النظر إلى الأجسام، أخذ يضرب بعصاه وهو يلتفت إلى الناحية الأخرى، زلت قدمه في المسبح، وأخذ رأسه يعلو ويهبط يبلع الماء، ويكاد يغرق.

حرصت هذا اليوم على التكلم بالانكليزية وأنا أدفع رسم الدخول. رغم الشمس الحارقة، استلقيت على كرسي المسبح، أبعد شعري عن رقبتي، أمسح العرق: «دخيلكم ساعة واحدة بهالبلد ما فيني بعد ضلّ». وما سمعني أحد سوى الذباب والرطوبة. أتناول كريم الوجه، وما أن أفتح غطاءه حتى يندفق كخيط ماء حار. «حتى الكريم يذوب». أرميه، أفتح مجلة، أتركها جانباً. ألتفت حولي، أجنبيات، عربيات، أولاد، وصبيان لا يتعدون التاسعة من العمر، يومان للنساء، والأيام الباقية للرجال. لا موسيقى، إنما ضجة موتورات. وبلدوزر يحفر أو يعمّر. أغمض عيني. أفتح عيني، أعود أغمضهما عندما أرى امرأة قادمة. لا أريد أن أتحدث مع أية امرأة. انقطعت عن الزيارات والاستقبال. حتى إني لم أفتح الباب لسوزان رغم فضولي، لمعرفة أخبار معاذ بعد زيارتنا معاً لصيته. انسحبت من الحياة اليومية، منذ أن عصرت رأسي بين يدي وتساءلت: «قديش فيني إتحمل؟» وقبل أن أفكر أجبت نفسي: «لا، ولا تكة». وكان اليوم الأول لاستقالتي من الجمعية. درت في البيت، نظفت قفص الكنار، وجلست على الكنبة، آخذةً رأسي بين يدي. فكّرت: أين؟ أين الأشياء التي تمنيت أن أعملها لو أني لم أذهب إلى الجمعية؟ فتحت الدرج. أصداف ملونة،

حلقات فضية. قماش، ألوان، أغلقت الدرج. رن الهاتف، أسرعت مجيبة. طار الكنار من قفصه المفتوح ووقف على كتفي كعادته كلما أمسكت سماعة التلفون، زوجي يخبرني أنه سيأتي بعد الغداء، ويشرب معي القهوة. «معي كم واحد من بيروت». وجدت نفسي أسأله أو أقول: «ونحنا أيمتى بدنا نترك هالبلد؟». صمت ثم قال ضاحكاً: «هلق بدك تعرفي؟» أجبته: «أي، ضروري أعرف لأني مش قادرة». قبل أن أبكي، سمعته متردداً على الخط الآخر: «بعدين منحكي يللا باي باي» بكيت وصرخت: «أي بها الحشرة بدي أعرف، قديش بعد بدنا نقعد بها البلد؟» أجاب: «شو القصة، روقي، طوّلي بالك، شو صار فهميني شو صار من الصبح لهلق». رددت باكية: «ما صار شي، لح أفقع بدي أعرف...».

وكنت أعرف أنه لا يعرف. مصيرنا كمصير كل اللبنانيين الذين نقلت وظائفهم إلى الخارج، وأتتهم فرص أفضل مما يتوقعون. حثثت نفسي على النهوض ولم أستطع، بقيت جالسة. الرأس بين اليدين. الكنار فوق الكتف، أفكر بأهلي وأهل باسم وصديقاتي. الكل غير سعيد في بيروت الآن. الكل حائر بين البقاء والرحيل. أختي تكتب لي من البرازيل رسائل مهاجرة حزينة. الهاتف مرة أخرى. مريم على الخط، أجد نفسي أعود شيئاً فشيئاً إلى هدوئي. وكأني أدخل مرة أخرى في الحياة هنا. أنهض آتي بالقماش وابتدىء بصنع دمية بدوية. ولم أشعر بالوقت. أرسم العينين والحاجبين والشفاه، إلى أن جاء ابني عمر من المدرسة يصرخ ويصيح، يريدني أن أنزل معه حتى يرى جملاً صغيراً قرب بيتنا. كنت لا أزال أفكر في لون شفتي الدمية، لما سحبني من يدي والكاميرا في يده، وجدت نفسي خارج البيت على الطريق ولدهشتي رأيت كلباً قرب الجمل المقيد القدمين يحنو على الجمل، والجمل يلاعبه. أكبس على زر الكاميرا ونحن نقترب منهما وسعيد يصيح بنا: «بالهداوة. لجمل يخاف وهو مكّار».

أتى باسم وأصدقاؤه الثلاثة. قدمت لهم القهوة، بينما الكنار، يطير في أنحاء البيت، يقترب من الطاولة الزجاجية، ويحط على صحن

البسكوت. يحاول نقر قطعة، ربما يجدها يابسة، يطير ثم يحط على كتفي، يقترب لينقر قطعة من فمي، قال أحدهم متعجباً «شوف الملعون؟» لما نهضت، والعصفور على كتفي سألني أحدهم «شو الهيئة مبسوطة هون؟» فكرت أن الكنار على كتفي، أوحى للرجل بهذا السؤال. وما كان الكنار فقط، بل ربما أثاث البيت الجميل. ردّدت: «ماشي الحال، بس لو فيني امشي»، ردّ باسم: «على فكره جايبلك مكنة مشي، ولو ما تخنّيها يا سهى فيك تمشي بأي كمب». تشاغلت بإدخال الكنار إلى قفصه. لو أن هذا الحوار دار في السنة الأولى، لكنت أجبته بأن السير ما هو للأقدام فقط. العين بحاجة أن تنتقل من منظر إلى آخر. بينما السير في الكمب هو فوق سجاد أخضر، يشبه الحشيش. أو حشيش حقيقي يهدده الرمل كل لحظة. كنت أحاوره دائماً وأسأله إذا كانت رائحة الرطوبة تضايقه، وإذا كان هو ينتبه إلى ركود الأيام، وكان يجيبني: «ما عندي وقت حك رأسي». وقبل أن أيأس كنت أسأله باختصار. «مش حاسس أن الحياة مش طبيعية؟».

لما تحول الحديث بين باسم والرجال كالعادة إلى المال والمشاريع. فكرت بأن حتى الذين يأتون من خارج الصحراء، تنتشر على ألسنتهم عدوى المال. ولا تعود أحاديثهم لها علاقة بأي شيء سوى المال، الفرص المناسبة، الإنجازات، البترول.

ووجدت نفسي أقاطعهم قائلة بمكر: «عرفتوا، لجنة أطباء عملوا تخطيط قلب لأكثرية الرجال هون، وفكروا أنو في عطل بالآلات. التخطيط إجا صفحة بيضا». انطلى المكر على الرجال الثلاثة. فقط لما حاول أحدهم الاستفهام، ردّ باسم: «سهى دائماً بتحب تفلسف الأمور، عم تقصد أنو نحنا ما منحس، وعم نفتش عن المصاري، مختصر مفيد».

عدت أفتح في الليل موضوع البقاء هنا. حاولت أن أكون واقعية، إيجابية، حازمة. قلت لباسم إني أريد الحقيقة، أريد أن أعرف كم من الوقت سأقضيه هنا، حتى أستعد نفسياً. وشددت على أني لن أتضايق مهما كان جوابه. لما أجاب متردداً: «يمكن سنة، سنتين، ثلاث»، صرخت. خبطت الباب وأنا أفتحه وأردد كلمات أم كيروز: «راح جنّ. تحت الرصاص

أنا قابلة عيش». خرجت، ما إن وصلت إلى باب الحديقة البور حتى قفلت راجعة لأرى باسم ما زال عند عتبة الباب، دخلت وقلت: «منيح اللي عرفت».

سنوات وأنا في البلد الصحراوي. ربع ساعة وأنا متمددة على الشيزلونغ. لا موسيقى. الموسيقى من الشيطان، تدخل العقل وتوسوس به. أفتح المجلة للحظات، حين أجد الحياة الطبيعية فيها، أنقهر وأرميها، أتحسر على السنة الأولى، أغمض عيني من جديد مسترجعة أشكال وألوان الماعز، وقتها دخلت الدكاكين القليلة، وتفرجت على كل ما فيها من بضائع هندية، قلبت بين يدي الخناجر والأساور، المرجان الحقيقي والمزيف، مررت بيدي على خشب الأبواب القديم والمنحوت، بعد أن اقتلع من منازل الطين. أصبحت أعرف حتى ما في الثلاجات وأسعار كل شيء. حتى الأهالي كنت متحمسة لهم. جئت أرى وأعرف ما في خزانة المرأة، من شالات الكشمير، الأخضر والأزرق والأحمر والأبيض. حجر روبي وماسة لكل إصبع؟ وكنت مخطئة. أهالي الصحراء تبدلوا، ويتبدلون. كنباتهم منقوشة، الاستيتلس ستيل أصبح مهماً في حياتهم كذلك مجوهرات بانكوك.

ما عدت أستوحي ملابس للدمى التي كنت أحب عملها. أخذت الكتب تمدني بالضيق، تضعني في أجواء بعيدة عن جو الواقع الذي أعيشه. وما أردت رغم ضجري أن أكون شاهدة على بناء المدن حجراً حجراً وعلى توسعها، وغرس الشجر. ما عدت أتحمّل سماع مكبرات الصوت، فوق ظهور السيارات، وهي تجوب الشوارع الضيقة الرملية والمسفلتة تعدد مزايا الشجر. أردت أن أعاصر الحياة، لا أن أبدأ بها، حتى عصر القمر يبدو قديماً. الجرائد تصل متأخرة الأخبار باهتة. لذلك ما عاد يهزني ما يجري في العالم. كل شيء يبدو كأنه يحدث في كرة أرضية ثانية.

الساقي الهندي يقترب مني الآن يكاد يفترسني. وجدتني أضع المنشفة عليّ وأستفهمه هل جاء أحد الرجال ليمنع النساء من السباحة. لا، عليّ الدخول إلى المطعم، لأن المسبح حجز لعائلة يبدو أنها مهمّة. اكتفيت بهز

رأسي، وأنا أرى النساء الأخريات، يدخلن في صراع مع أولادهن لمغادرة مياه المسبح.

خلا المكان، إلا من المياه الزرقاء التي لا تزال تتماوج من القفز والسباحة. لم أشأ النهوض لسببين: عليّ أن أرتدي ملابسي كاملة للدخول إلى المطعم، عدا فضولي لرؤية العائلة المهمّة. وأنا أتوقع امرأة في برقع وعباءة تجلس عند حافة المسبح كما أراهن على البحر والأطفال في مايوهات واسعة والأب يستمتع بالمياه والسباحة. رأيت بنتاً تتبعها امرأة جميلة، وصل شعرها تحت الخصر، ترتدي فستاناً طويلاً. خلعت الفستان عند حافة البيسين بعد أن التفتت من حولها ورأتني، أو ربما لم ترني، لأنها ما اعترضت، بل ضمت شعرها ورفعته عن ظهرها. نزلت المسبح. وقفت تمسك بإحدى درجاته. بعد قليل تركت جسمها يتمدد في الماء، وهي لا تزال ممسكة بالدرج. وابنتها التي تسبح جيداً ترميها بالماء، وهي تبعد وجهها وتضع اليد الأخرى على شعرها وتقول بدلع: «بس».

وجدت نفسي أنهض، أقفز في المياه، وأنا أفكر لماذا يشيد بعض الناس مسابح خاصة بهم. المياه بلا أجسام كثيرة تبدو منعشة. لما وصلت الدرج كانت المرأة لا تزال ممسكة به. تبادلنا الابتسام. وقبل أن أبتعد، سمعت المرأة تسألني إذا كان باستطاعتي تعليمها السباحة ولما أجبتها «نعم» بالعربية قالت المرأة: «أقول أنا هالوجه عربي. من لبنان؟».

ابتسمت لها قائلة: «أي». وقفت معها في الماء، أسألها أن تنفخ في الماء كخطوة أولى، وما عرفت المرأة. سألتها أن تتنفس وتحبس نفسها، ثم تغطس رأسها في الماء وتترك يديها وقدميها. أطاعتني لكنها ما استطاعت ترك يدها من التشبث بالدرج. حاولت مرة أخرى ما استطاعت. ضحكت مرتبكة وهي تسألني إذا كنت أستطيع أن أعطيها دروساً في السباحة في بيتها. لما ترددت وظهر هذا على وجهي، قالت المرأة بدلع وبطيبة وبإصرار: «أرجوك السيارة تجيبك وتأخذك وبيسين بيتنا كبيرة». لم أتمكن من إخفاء دهشتي وحرت بماذا أجيب المرأة التي فهمت ما أفكر به، وقالت: «كنت ضجرانة،

وقلت لبنتي غاده نغير جو ونروح مسبح الفندق». لما جلست المرأة جانبي، أخذت تتكلم عن تلقيها العلم في القاهرة، وعن حبها للبنان وأخذت كلما فكرت بالنهوض تستبقيني بإلحاح، حتى عرفت أنها ضجرة.

ندمت في اليوم التالي، عندما جاء سائق المرأة واسمها نور. كنت نعسانة. وعندما توقف عند بناء فكرت بأني رأيت هذا البيت، أطلق عليه عمر «مركبة فضاء» وأنا دعوته بيت القمر، وما كان بعيداً عن بيتي. سور البيت جميل الحجر. «مجانين»، فكرت: «صرفوا مصاري وكأنه في سويسرا». لما دخلته وجلست شككت بوجود غبار الصحراء، وبيوت قبيحة متشابهة وكأنها أطلال، وأن هناك الشوارع الضيقة ذات الحفر، ونفايا في كل زاوية. أرى الأشجار والحشيش الأخضر، وأن بعضه يابس. تعجبت، إذ سرعان ما تموت المزروعات في جنائن البيوت الفخمة، من العواصف الرملية، من الماعز الذي يدخل الباحات ويتسلق ليقضي على كل ما هو أخضر.

كانت نور تنتظرني في المسبح. لما غطست في الماء النظيف فكرت بأنه لا يمكن لأحد في الخارج أن يتكهن ما خلف الأسوار. رغم غيظي ثم عدم المبالاة التي أخذت تزحف علي أمام خوف نور وعدم سماعها لما يجب أن تقوم به حتى تطفو على سطح الماء. لم أتوقف عن تشجيعها، وهي في موقف المعتذر والتلميذ المرتبك.

تعددت زياراتي لنور، رغم فقداني الأمل في تعليمها السباحة، خاصة بعد أن اعترفت لي أن هذه هي المرة الرابعة التي تحاول بها تعلّم السباحة. لقد سبق وأن التحقت بناد في أوروبا، كما أن زوجها صالح جرّب تعليمها. لكن شخصية نور، وجوّ بيتها المختلف عن جميع البيوت التي عرفتها جذباني إلى هذه الزيارات.

- ٤ -

كان من الصعب أن نصبح صديقتين . فأنا قد ختمت بالشمع الأحمر على كل ما هو موجود هنا من إنسان وحيوان وجماد . ما عدت أخرج من البيت إلا نادراً ، ولم أتح لنفسي المجال للتعرف على أشخاص ينقلونني إلى عوالم أخرى . وما كنت أعاني من كآبة الصحراء التي تزور كل امرأة ، حتى للمكتفية بهذه الحياة المحدودة . إذ لا تعرف المرأة لماذا تنسحب فجأة من الحياة اليومية ولفترة من الوقت ولا تعرف أيضاً لماذا تنقشع عنها غيمة الكآبة .

لكني أردت الراحة ، حين أخذت أستوعب التناقض بين بيتي وخارجه . كلما دخلت بيتي شعرت أني أنتقل إلى دنيا أخرى بعيدة ، الحياة في الداخل ، بكل ألوانها وتفاصيلها تبدو معقولة . أخبار العالم عبر الراديو والتلفزيون تبدو ضرورية . يشعر من يسمعها ، أنها تتحدث عن الإنسان ، والحياة اللذين يعرفهما . إذ الأخبار في الراديو والسيارة تخترق الطرق المعبدة أو الرملية تبدو بعيدة عن الواقع . كأنها تبث بلغة كسولة ، لا يفهمها أحد ، لأنها غير أخبار المال والمشاريع والأحاديث التي لا تنتهي عنه . حتى الأخبار المهمة للحياة اليومية الاقتصادية والبورصة والذهب توحي بأنها لا تتبدل بين يوم وآخر كما في العالم . فسوق الذهب ، هي دكاكين صغيرة ، لا سقف لساحتها . يجلس على أرضها الصاغة وأمامهم طاولات بلا أرجل ، فوقها مصوغات معروضة ، وأوعية من التنك لصهر الذهب أو تلميعه ، والنساء اللواتي يقفن

على أرضها التي يزحف عليها الرمل والخنافس السوداء، يخشخشن بذهب أيديهن وهن يلمسن العقود والأحزمة الذهبية. يشترين لأطفالهن المصاحف والحلق والأساور، بينما يعدّ الأزواج كميات المال، بعدم ثقة، يعطونها للصائغ البائع، الذي كلما عد مئة، لفّ حولها لاستيك.

أشعلت نور فيّ الفضول من جديد ولكن لوقت قصير. بيتها كان كصندوق فرجه، فيه الخدم والمربيات من مختلف الجنسيات، يختلطن بالأولاد والغزلان والكلاب السلوقية. رائحة العطر خفيفة، تتسلل إليّ كلما دخلت بابه. كانت الموسيقى العربية والأجنبية تصدح في فسحاته. ملابس جميلة، موض، تقاليع، حتى في الأثاث وما تقدمه لي من شوكولاته، غوديفا من باريس، وشانتي من لبنان، ومانجا وأناناس من الفيليبين. بيت كبير، أبيض الرخام، أشجار الحديقة تظهر عبر نوافذه قبل الرمال. ضجة بين أرجائه، تذكر بوقع الحياة الطبيعية التي أجدها هنا وفي بيت الست وفا.

في بيت نور كنت أجلس وأحار أين أنظر، آلتا فيديو في غرفة جلوس واسعة. كان الأثاث يقسم الغرفة إلى ثلاثة أقسام. ابنتها وعمر وأولاد آخرون يضجون، يحاربون الأقمار الصناعية على الفيديو، صديقات وقريبات نور يحضرن داليدا أو الممثلة نيلي عبر التليفزيون، الخدم الفليبينيُّون يغنون، ينادون بعضهم بالتصفير. الكلاب تدخل، تعارك الأولاد وتخرج، العصافير والببغاوات البيضاء والخضراء، تنتقل في أقفاصها تحادث بعضها. ماء، الأسماك تتنفس في الأكواريوم الكبير. حين تضجر القريبات أو الصديقات يقتربن مني ونور. أحار مع من أتكلم؟ وإلى من أنظر. بعضهن يتلفّفن في العباءات والبراقع والحنة على اليدين، وبعضهن يلبسن الأزياء المزخرفة، بالألوان والموض. مجوهراتهن هي إما النقشات الذهبية البدوية أو العصرية العالمية. أي مجلة أتصفح؟ كأن كل مجلات العالم والمحلات العالمية الكبرى فوق هذه الطاولة. لما كان سعيد يأتي ليأخذني كنت أتعجب كيف مرّ الوقت.

لكن، بيت نور ما عاد كصندوق فرجة بعد أن اعتادت عليه العين، ولا عادت السباحة في البيسين مهمة. وما كنت أنتبه جيداً إلى ما تقوله نور. وفي

حال انتبهت إلى شكاويها التي هي من وتيرة واحدة: الضجر والرغبة في السفر. كنت أهدئها تماماً كما يهدئني باسم بالجملة ذاتها «معليش، طولي بالك»، دون أن أعني ما أقول. إذ كنت غائصة في نفسي لدرجة لم أستطع أن أنشىء صداقة حقيقية مع أي واحدة هنا، «صديقاتي في بيروت ولا أنسجم مع أية واحدة». كنت أقول لباسم، لم أستطع أن أقطع علاقتي بنور كما كنت أفعل مع الباقيات. إذ كانت نور تجد حلاً لكل عذر أطلقه، من اختفاء سعيد ومرض عمر أو توعكي أو انشغالي. وحين لا أجيب على التلفون، كانت تأتي نور بنفسها تدق بابي، تسأل إذا كان تلفوني معطلاً. أخذت أشعر بالضيق من نور وإلحاحها، شكوت هذا لباسم الذي اقترح أن أستفيد منها، وأتعرف بواسطتها على البيئة الصحراوية هنا، رحبت بهذا الاقتراح رغم عدم حماسي له. وجدته أفضل من الجلوس على كنبتي أو كنبة نور الساعة تلو الأخرى. ذهبنا معاً ذات يوم إلى الصحراء، زرنا أقارب نور في خيم حديثة منصوبة، فيها غرفة جلوس، وغرفة طعام، وتواليت ودوش ومضخة ماء في الخارج. جلسنا على السجاد العجمي والباكستاني. بدت النساء أكثر حقيقة في هذه الخيمة الواسعة، رغم أنهن قدمن للتنزه في الصحراء لأيام قليلة. إحداهن سألت نور عن زوجها صالح مبتدئة بعبارة: «الله يهديه»، التي ظننت أنها بسبب سفره الدائم. كلما سألت نور عن زوجها كان مسافراً. أخذتني لنحضر يوماً حنّة العروس، ورأيت النساء على خلاف ما أراهن تحت البراقع والعباءات السود. يضحكن ويتصايحن، ويعلّقن بكلمات صريحة وبغمزات ولمزات، وهن ينظرن إلى العروس. ذهبنا في الليل إلى العرس، اكتفيت بالمراقبة، ونور رقصت وهي تمضغ العلكة. تمنعت عن الأكل، ونور أكلت. نظرت إلى النجوم الواسعة وإلى النساء.

لما رنّ الهاتف في الصباح الباكر أخذت السماعة، رغم تأكدي بأن المتكلمة نور. وافقت على زيارتها، إذ أردت الخروج من بيتي هذا اليوم. خاصة أني لم أفارقه منذ أيام. لما دخلت بيت نور الواسع، رأيت عكس ما توقعته. بدت نور وكأنها قضت الليل كله في مغطس بارد مياهه الوحدة والصقيع. إلى جانبها زجاجة فيها حبوب مهدئة، عندما تتناول نور واحدة،

تنام بارتياح لساعات طويلة وحين تنهض تسير ببطء، كأن الأرض ليست للمشي وإنما للمس فقط. أعقاب السكائر تراكمت في المنفضة. شحوب وجهها جعلها جزءاً من الكنبة السكّرية، لولا نقطتان سوداوان تحركتا قليلاً، يداها جزء من الكنبة، متهالكتان تمسكان المنفضة. أمامها على الطاولة صحن فيه حصوص رمان، وصحن آخر فيه الخيار والجزر. الخادمة الفلبينية تمسك الصحنين، تنظر إلى نور قبل أن تختفي بهما. أريد أن أسألها ما جرى، فتعود الفلبينية تضع على الطاولة صحناً من البرتقال المقشر والتفاح والعنب.

كأن نور تهذي، إنها تميل برأسها «أريد أموت. نفسي تطق كل يوم، أبغي أسافر وما أقدر، جواز سفري مع صالح، مش قادرة عيش لحظة بالبيت، أبغي أهرب». وجلست قربها. قلت وأنا أتصنع الاهتمام: «روقي يا نور، ولو، إبعتي برقية حتى يبعث لك الباسبور، بكره بيجي صالح شو هالمصيبة». فكرت في نفسي، أن نور غنوجه. ثم نظرت حولي. لأول مرة أفكر بأن كل شيء ثمين: السقف، بلاط الأرض، الكنبات، الطاولات، الثريات، خزائن التحف، كأن كل قطعة به اختيرت لتبعث المتانة والحياة الكاملة. مع ذلك فالبيت منقوع في الوحدة، ربما لانعدام ضجيج الزائرات وأطفالهن في تلك الساعة. الأبواب والنوافذ الزجاجية مغطاة بالستائر كأنها ليست موجودة، كأن هذا البيت لا منفذ تتنفس منه نباتاته، كأن كل شيء يجثم تحت غطاء زجاجي. قلت مرة أخرى متصنعة الاهتمام: «شو بك يا نور، روقي، شو صار؟ بكره بتسافري».

بكت نور، كأن البكاء أعاد الروح إلى وجهها: «ما أقدر، خلاص. يطلقني، أو يرجع، ما أقدر أعيش زي التمره اللي علقانه بطرف الغصن. لا هي متحكمة بالغصن ولا هي مرتاحة على الأرض». وجدت نفسي أقول شبه مهتمة: «طيب ليش ما تطلقتو بعد، وليش ما بترجعو لبعض» وما سمعت إلا بكاءها الحاد. كان شعرها الأسود الطويل يعيق من حرارة بكائها، فترفع وجهها تضفّر شعرها ثم ترمي به جانباً، «والله ما أنا عارفة، أبغي أموت، خلاص، أبغي أموت».

ما عرفت بما أجيبها. لكني فكرت واعترفت بيني وبين نفسي أني قاسية وأنانية لأني لا أتأثر ببكائها الآن، ولأني أفكر بعودة عمر إلى البيت، وإذا كان سعيد فهم أن عليه المرور بي بعد ساعة. ثم فكرت مدافعة عن نفسي، أن ردة فعلي ستكون مختلفة لو أنني رأيت واحدة من صديقاتي في لبنان وهي تبكي.

يزداد بكاء نور الآن حدّة. يتحول إلى نحيب وهستيريا. أنهض أبحث عن علبة كلينكس وآتي بها. أشعر بالحرج ولا أعرف كيف أصل إليها بالورقات. أجد نفسي أقول بصوت منخفض: «نور روقي شوي». كرهت نفسي، لأني لا أعرف سوى هذه الكلمات. ولا أعرف ماذا سأقول بعدها. لكن ولأول مرة، وجدت نفسي أفكر جدياً بوضع نور. كنت أظن أن صالحاً، ككل الأزواج هنا، كثير السفر، أو أنه متزوج من أخرى، الإحساس بأن البيت بلا رجل كان واضحاً، رغم تهديد نور الدائم لابنتها «والله أبوك صالح يضربك، بكره يجي وأنت تشوفي». ثم فكرت: «لا بد أن نور تثق بي وبعاطفتي وإلا لما اختارت أن تتصل بي، دون الصديقات الكثيرات والقريبات. ربما لأني غريبة؟، ولكن صديقاتها غير الصحراويات اللواتي من أمثالي كثيرات». أضع يدي الآن على شعر نور، ثم أربت على كتفها، وأقول لها: «كل شيء له حل يا نور، ما في شيء يضل عقده». تمتمت نور كلاماً لم أفهمه. ثم رفعت رأسها، أمسكت بورقات الكلينكس تجفف دموعها، تمسح وجهها وتقول: «المصيبة كبيرة». تعجبت، وفرحت أن نور تأخذ بكلامي، وها هي مستعدة لبحث وضعها دون بكاء. قلت: «أطلبي الطلاق أحسن من هالعيشة». ردّت نور وهي تميل برأسها، وكأن جملتي هذه ذكرتها بما هو أسوأ: «المصيبة كبيرة، أطلق، ومين أتزوج؟». أصدم بسؤال نور «مين أتزوج» وبدلاً من أن أقول لها هازئة: تفكري بالزواج وأنت ما فكرت بعد بالطلاق.

وجدتني أسأل: «أنتو متخانقين، على شو؟ خللي حدا يصالحكم». ردّت نور وهي لا تزال تجفف الدموع والعرق: «هو عنيد، صالح رأسه صخر ويمكن قلبه صخر». ثم قالت تقودني إلى عمق الموضوع، «عايزة

أسافر، مش طايقة عيش هنا، أسافر أسبوع، أسبوعين». تركت نور تبكي، لم أستطع إلا أن أتأمل وجهي كما بدا في برواز علبة الكلينكس وأنا أسحب ورقة منها. حتى الكلينكس، فكرت نور أن تستحضر لها غطاء معدنياً. رأيت نفسي جميلة. ما النفع؟ مددت يدي بورقات الكلينكس من جديد إلى نور التي اعتدلت في جلستها وقالت: «يا حظك، ويا بختك، إنك لبنانية». أردت أن أجيبها «بس أنا محبوسة مثلك». لكن لا، إن العطر الذي أشمه كل ما دخلت بيت نور يتسرب الآن فجأة وبقوة في ممرات دمي، في شرايين الرأس الزرقاء يدلكها، شعرت بارتخاء، كأني أطفو على سطح ما، ربما على سطح ماء، لكن لا بلل، ولا توتر. وعيت فجأة أني لست من هنا، وأني أستطيع السفر من هنا، والسير كما يحلو لي وبمفردي، سنة، سنتين، ثلاثاً وأغادر. أما نور فهي عائدة مهما سافرت وغابت. انتعشت بارتياح، حين عدت إلى علبة الكلينكس أتصنع سحب ورقة منها، بينما رحت أختلس النظرات إلى وجهي من جديد أؤكد له الواقع الذي تناسيته والذي واجهني بين دموع نور واحتراقها. الآن فقط شعرت أن حرقة نور قليلة بالنسبة لما هي فيه. لذلك حاولت أن أعود إلى موضوع صالح، دائماً إلى أساس المشكل، لكن نور تريد جواز سفرها والسفر، لا أن تبحث موضوع صالح. إنها تفكر بطريقة للخروج من هنا، تريد مني مساعدتها بمزيد من الأفكار. قلت أقترح: «أنت مريضة ولازملك حكيم؟». «لا، ما يصدقوا». «أمك مريضة كثير ولازمها علاج؟» معقول، لكن مين يقنع أمي؟ قلت وقد نفد صبري: «تجيبي جواز سفر ثاني». «لا الحين صار في صور. كان من زمان سهل، لا صور حريم بس الاسم».

عندها قلت بارتياح: «يا ريتني شبهك، كنت عطيتك باسبوري». أجابت نور: «شكراً يا حياتي. وشكراً لأنك تساعديني». أي مساعدة؟ إنما قدمت لها ورقات كلينكس. وبالمقابل، أعطتني نور بلّورة سحرية أرتني بها وجهي وحياتي.

وأخذت نور تدخل غرفتي، ليلحق بها رجل يتسلل كاللص، بينما أجلس أنا في الصالون وفي المطبخ، أنتظر فتح الباب الخارجي ثم صوت

إغلاقه. أنتظر خطوات نور، قبلتها على خدي وقولها: «ما أعرف كيف عيش من غيرك يا حياتي». ساعة وتذهب، لأدخل غرفتي، أبحث عن آثار لقاء نور بالرجل حتى أخفيه وأنا أفكر، لماذا تدخل نور بين الشراشف، لماذا هي غير حساسة؟ أفتح النافذة أبدّل الشراشف حتى تطير رائحة نور، أمرّ على الطاولة، هل نسيت خاتماً سلسالاً أو سواراً؟ يبدو أن هذه الخلوة كانت تبدد كل التشوش والقهر الذي تعانيه، تتركها هادئة، تسيطر على باقي يومها. كانت كالطعام وكالشراب بالنسبة إليها، ولهذا حين جاء باسم بالعمال ليطرشوا البيت من جديد لأيام، وحتى بعد طرشه، لم تستطع طوال أيام أخرى أن تواصل خلواتها؛ طلبت بإلحاح إليّ الحضور، في الساعة الحادية عشرة، ذات صباح كي أستقبل الرجل الذي يحمل بيده حقيبة سوداء. استقبلته على أنه الطبيب، وأدخلته غرفتها، بعد استئذان الخادمة بلطف أن تغلق الباب خلفها. أدخل إلى الحمام، أفتح الحنفية على مدى تدفقها، أنظر إلى المرآة أحدث نفسي إلى متى سأظل في حياة نور؟ أفتح الخزائن، أرى بين كريمات الوجه أكياساً من الحنة وآلات حلاقة علاها الصدأ وفناني فيها بقايا كولونيا للرجال. الماء لا يزال يتدفق وصوته يطغى على كل حركة من الغرفة. أفتح ستارة شباك صغير. يتطاير الغبار. أرى جزءاً من البيسين وبقع حشائش خضراء، وأشجاراً شاحبة الاخضرار خلف السور، صوت مضخة ماء. وبيوتاً بلا لون، إنما نوافذها وأبوابها المعدنية تتوهج. هل من يمر بهذا البيت يصدق أن في إحدى غرفه امرأة وإلى جانبها رجل غير زوجها فوق سرير واحد. التقت به في المخزن، وبغيره عند إشارة المرور الضوئية، وبآخر في المستشفى. وفي بيتها عندما أتاها البائع بالمجوهرات والأقمشة لتشتري منها، مع المهندس حين فكرت أن تزرع الحديقة بأشجار من اليابان. أفكر الآن بأن الإنسان يبقى متفوقاً على الظروف. إنه يفكر في أغرب الطرق كي يمارس متطلبات نفسه، وها أنا في منزل من المنازل التي كنت أشكك أن الجنس موجود بين جدرانه. أسمع ضحكات نور وراء الباب المقفل. أقفل الحنفية؛ لأسمع صوتاً ثم أعيد فتحها.

ما عادت هذه اللقاءات أوكسجين أيام نور. إذ عادت تهدس بالسفر

قائلة إنها لا تحب لقاءات النهار لكنها لم تتوقف إلا عند طلبي. أحد الذين كانت تلقاهم في بيتي جاءني ذات يوم ليسألني ما إذا كان باستطاعته أن يأتي بصديقته الأجنبية، وهو يضع بيدي قنينة ويسكي وقطعة كبيرة من لحم الخنزير. أعدت الكيسين وأنا أرتجف دون أن أجيبه. أردت وأنا أغلق الباب في وجهه أن أصرخ به، أحاول أن أفهمه عني وعن نور وعن الوضع. لكن بدا الشرح معقداً، ولم أستطع أن أنظر في وجهه، لم أستطع أن أقول له، إني ونور نضع رأسينا في فرن لم يشعلْ الغاز به بعد.

ـ ٥ ـ

لم أتردد لحظة في الذهاب إلى نور في الصباح الباكر. ليس لأن صوت نور بدا على الخط ضعيفاً.

كانت نور في السرير وسط بخار خفيف تلفظه آلة البخار. كأن البخار فتح تقاطيع وجهها. بانت كثمرة نضجت قبل أوانها داخل بيت زجاجي. لما قلت لها ببشاشة: «شو؟ اليوم دور الأميرة المسحورة»؟ بكت نور بصمت. وما اهتممت، ما أردت أن أسمع الشكاوى نفسها. فاليوم هو الأول لخروجي بعد ثلاثة أيام من ملازمتي البيت، إذ كانت تمطر، غيوم الشتاء، والمياه الراكدة التي رأيتها على الاسفلت وفي الحديقة، أدخلت السعادة إلى قلبي.

الشتاء، زار الصحراء هذه السنة. اختفت الشمس وكذلك القمر، تعالت أصوات المصلّين جافة، بلا ترنيم. تضاربت بعلوها وعددها. وجدتني في الليل أحضن عمر، أهدئه بعد أرقه، قال لي: «أنت كذابة ماما، هيدا مش صلاة». اعتاد على سماعه للصلاة، دائماً عند الفجر، الآن، الساعة هي الثامنة مساء. أجبته بحنان: «عم بصلّوا مشان الشتاء. لازم تشتي الدنيا مشان التمر والزرع وغسل الميكروبات».

في الليل عاد ونهض أكثر من مرة صائحاً وجاء إلى سريري. كانت السماء تبرق وترعد والمطر ينهمر غزيراً. عدت إلى سريري متمنية أن أكون قد طمأنته بقبلتي. أسمع المطر ينهمر على سقف بيت الحمام. أبتسم

بارتياح. لما فتح باسم الباب في الصباح صاح: «مش معقول». وأسرعت لأرى مياه الحديقة وقد دلفت إلى الداخل، بعد أن ارتفعت في الشارع شبرين أو أكثر.

حتى الشتاء هنا كأنه شتاء آخر. لم يعلق على الأبنية، ولا هي امتصته. ظلت شاحبة بلون الغبار. كذلك الأشجار القليلة، بينما جرفت المياه معدات البناء إلى وسط الشارع، طافت الأخشاب على سطح الماء. في بعض المناطق، تركت آثارها على الرمل وأصبحت الأرض طينية. توقفت معظم السيارات، نزل السائقون منها يرفعون أثوابهم، يمشون في الماء، وقد وصلت إلى تحت ركب سيقانهم الرفيعة بقليل. وسيارات الجيب هي الوحيدة التي استطاعت العبور رغم رذاذ المياه الموحلة التي لصقت زجاجها، أقفلت الدكاكين، بعض النساء يركبن السيارات لعبور الشارع وزيارة المنزل المقابل وهن يضحكن، بينما بقي أغلبهن داخل البيوت. لما انقطع المطر، وطلعت الشمس، لم يظهر قوس القزح، بل مئات البرغش، بسيقانها الطويلة تتهاوى كأنها راقصات باليه.

ولم أسأل نور ما بها، بل قلت بحماس، «بي تذكرت، شفت صالح عالتلفزيون، يا ملعونة، ما كنت عارفة هالقد جذّاب وصغير، حديثه لبق، عجبني، ذكي وبتعرفي بيشبه غاده». أجابت نور صارخة: «والله ما يسوي قشرة بصله. والله حتى ما حبيت أواجهه هالمرة، بعثت غاده بدون قصص ومشاكل». ثم سألتني ماذا أريد أن أشرب لتبدل الموضوع.

قبل أن أجيبها، أخذت نور تضرب بقوة رأسها فجأة، ثم وجهها، بيديها، لدرجة أني هببت عن مقعدي، أمسكها بيديها. وما خفّ تشنّجها بل صرخت: «أنا متضايقة، حاولت ما أقدر. أنقهر وأقول معلهش يا نور، لكن روحي تطلع، ونفسي تفقع، يا ريت لا يجي ولا أعرف يمكن أحسن، يا ريت لما يجي يأخذ غاده وأنا مسافره، يا ريت». وعادت تضرب رأسها وتشهق، وأنا أحاول تهدئتها ممسكة بيديها. وما عرفت أن نور بهذه القوة إلا الآن.

اعتدت على صوتها الرقيق، ولهجتها الصحراوية، الحنونة، وكلماتها

العاطفية، وهي تربت على رأس كلابها السلوقية، وتحتضن الغزال الصغير، وتغطّ إصبعها في الكريمة وتلحسها لتتأكد من أنها طازجة. وتمد رقبتها ووجهها لتُقبلها الزائرات المقنّعات. لما عادت تأخذ رأسها بين يديها أبعدتهما عنها. شدت نور على يدي بيد واحدة ساخنة، ثم رمت رأسها للحظات على كتفي كطفل حزين. ولم تنقطع عن البكاء، لم أتمكن من أن أربت على كتفها لمواساتها. ولا أن أضمّها، بل شعرت بالخجل، وتمنيت لو أن نور تتمالك نفسها. بينما نور كطفل ارتاح في ذراعي أمه أخيراً. لم أتحرك بل قلت «يا نور خلّينا نفكّر بطريقة» كأني أريد إبعادها عني. لكن وجه نور لم يعد مسنداً على الكتف وإنما على عنقي، تجاهلت رفيف فراشة، فلم أتحرك، شعرت بسخونة رطبة، ثم بدوار ارتجفت له وما تحركت. لا يزال وجه نور ملتصقاً بي. فجأة أنفاسها الساخنة، نبض لها قلبي، ثمة شعور داهمني فخفت منه. وارتجفت. لكني لم أشأ الانسحاب. بقيت أسيطر على نفسي لأبقى جامدة. أحدق في موكيت الغرفة. نور وعت ما يجري لي، كأنها تأخذني من يدي خطوة، خطوة، تتوقف قليلاً، قبل أن يتململ وجهها فوق رقبتي. وقبل أن تطوقني بذراعيها وتشدني إليها، داهمت السخونة رقبتي، هبطت في آن واحد إلى جسمي، متجاهلة كل شيء. قلت في نفسي، نور تقبلني، وما فكرت كما في الواقع أن القبل هي بين الرجل والمرأة، بل تمنيت المزيد، وكانت نور كلما وصلت نقطة في جسدي أيقظتها، وتركتها قلقة.

ما عادت العضلات منقبضة، تفككت لدرجة وجدت نفسي أستلقي على ظهري. ثم ابتدأ إيقاع قبل أن أصاب بدوار من لذة مختلفة، إيقاع جميل لا تعرفه إلا الغريزة، طائر كأنه بخار هذه الغرفة، عاد الواقع إلى الغرفة حالما شعرت بثقل نور لدرجة الاختناق. سحبت عيني وعلقتهما على السقف. ثم شعرت بمرض مفاجيء، ثم بمقت، وتمنيت الاختفاء في شقوق السقف. وما أردت البقاء مستلقية، ما أردت أن أعطي نور الإحساس بأني سعيدة لما جرى. وما أردت في الوقت نفسه أن أكون أنا وجسدي كياناً واحداً، بل أردت أن أعطيه الأوامر، ليقف ويتصرف كما أشاء أنا. أردت أن أصرف جسدي، وأفتح الباب وأطرده. لكني بقيت واقفة، لا أجرؤ على النظر إلى نور، ولا حتى في أنحاء

الغرفة، ولا في تنورتي، التي ما أن أسدلتها على فخذيّ وأنا متمددة، حتى عرفت أني لن أحبهما كما من قبل، لن أغسلهما وأدهنهما بالكريمات، وأختار لهما الجوارب الجميلة.

تنورتي بدت كأن كلباً من كلاب نور قد علكها وقذفها. أردت أن ألتفت إلى نور وأقول إنه لا علاقة لي بالتي كانت معها تلهث قبل قليل. ولكني بقيت واقفة، أنتفض، لا أجرؤ على السير، بينما جلست نور على كرسي طاولة زينتها، تتناول فرشاة شعرها، وتفك ضفيرتها، تسرح شعرها، تعيد تضفيره، تعيد قميص نومها إلى الخصر. لا تنظر إلي، إنما تبتسم في المرآة وهي تراني أخرج، وتقول لي «مع السلامة». لم أستطع إقصاء نفسي بعيداً عنها، وسرت حتى السيارة، وحين دخلت ووجهي يكاد يلتصق بالزجاج لم أر شيئاً سوى باب بيتي. وسمعت صوت باسم وعمر. تمنيت لو أنني جالسة بينهما أتأفف، أو مريضة في السرير، بدلاً من الدخول عليهما الآن. أتتني رغبة فظيعة للبكاء بين ذراعيهما. تمنيت لو أعدو إلى غرفتي دون رؤيتهما. لكنني تسمرت لما سمعت عمر يقول: «ماما أجت». سرت حتى غرفة الطعام بادرني باسم: «شو القصة؟». أجبت متعمدة اللامبالاة: «نور مريضة وجبنا لها الدكتور». أجاب مازحاً: «إذا هي مريضة، أنت ليش وجهك أصفر؟» قلت بسرعة: «سواقها ضرب بسيارة ثانية، وأنا خفت».

أبلع ريقي، كأن في حنجرتي حجراً كبيراً، يؤلمني ألماً شديداً كلما تنفست. لم أنتظر عمر في الحمام حتى ينتهي من تنظيف أسنانه، كما طلب مني. بل اعتذرت قائلة: «كمان شوي حبيبي».

دخلت غرفتي، وأنا أعلم خطورة البكاء الآن. لكني لم أملك إلا أن أبكي، أرى صورتي مع عمر وباسم على طاولة زينتي. قلبتُ الصورة لربما نفذت أعينهما، واخترقت البؤبؤ والبياض ورأت المشهد مع نور قبل وقت قصير. أمسكت بالصورة من جديد، أحدق في باسم، في إطار نظارته الطبية، وعينيه الفاتحتين، وشعره المالس، وأنفه الكبير بالنسبة إلى تقاطيع وجهه الصغيرة. من قميصه المخطط الذي أرش على ياقته سبراي، لتنظيف الياقات والأكمام. بدا كأنه أخ، صديق، تلميذ، يجلس إلى جانبي في

الصف، أو جار قريب. خرجت من الغرفة، كمن حقنت إبرة ضد السمع، والرؤية، حتى موعد نوم عمر. ثم عدت إلى السرير ككل ليلة، بينما كان باسم يشاهد فيلماً على الفيديو، حتى ساعة متأخرة. أغمضت عيني، كأني أخرج من كهف مظلم إلى بحر أزرق فيه ضياء. أفتح نافذة من رأسي، أطل منها وأرى موتوراً بلا صوت. يعمل في غرفة مبطنة بورق جدران مخملي، كما تصورتها من قبل. فيها أسلاك زرقاء وحمراء، أفتح نافذة تطل على قلبي. فأرى موتوراً يحدث صوتاً على طريقة النبض والفوران. أسأل عقلي، الذي يروح ويجيء بلا ضجة في غرفته. وقلبي الذي يروح ويجيء في ضجة. ماذا في الأوراق التي لم أقرأها بعد. ماذا في هذه الأسلاك الحمراء والزرقاء، وما هي مواضيع اللوحات المعلقة على الجدران المخملية. ماذا في استدارة القلب على شكل قلب، ولا أعرف من ابتدأ ومن أكمل وأنهى. من زاد ونقص. جاءت المعلومات على الطريقة الحديثة. بواسطة التلكس والقمر الصناعي، والكومبيوتر، وفي مغلف، ختمته حرارة الشمس.

أنا سهى، عمري خمسة وعشرون عاماً، أمي الست وداد، والدي الدكتور عدنان، لست شاذة كسحر. رغم أني مع سواي من البنات كنت أضحك وأتسلى وأتغامز على الشباب. طبيعي. رأيت نفسي على سرير، في برد الجبل. وسهيل صديق عايدة في الوسط. بعد أن ذهب كل المدعوين، يتأبطون أكياس العنب. كانت السهرة لقطف العريشة في أواخر الصيف. كانت الفكرة من اختراعي، فوالدي في أوروبا. وأنا أحب أن يزورني الشباب في بيتي. كنا ثلاثة سكارى وأردنا شرب القهوة لنصحو. وأعددتها، ولكني حين جئت بها، رأيت عايدة متمددة فوق سريري، ووجهها نحو الحائط بينما تمدد سهيل إلى جانبها، وجدتني أتسلل خلف سهيل. رائحته ربما، أو البرد والسكر، جعلاني ألتصق به. سهيل مد يده إلى رقبتي ثم أنزلها حتى ظهري، وتوقف. ارتبكت وكأني أعرف لتوي علاقة عايدة وسهيل؛ لكني تركت يده تصل تحت تنورتي. «كيفك عايدة». أجابت عايدة وهي مغمضة العينين، «منيحة». صارت يده فوق لحمي، تنتقل على هضبتي جسمي، تدقان. ثم قال «شوبان» سألته عايدة: «بتحب شوبان؟» أجاب سهيل: «أكثر

ما بتتصوري، وبحب البوليرو» عرفت أن ما أفعله الآن لن تصدقه عايدة حتى ولو التفتت ورأتني، لكن عايدة قالت: «جربت خللي سهى تحب الكلاسيكي». فأجاب سهيل وأنفاسه بدأت أشد ثقلاً: «سهى بتحب الروك»، ثم رفع نفسه حتى أصبح عند الطرف. وأنا في الوسط، أريد أن أبقى كما أنا وأريد بالوقت نفسه أن أنهض. كنت حائرة بين ترك نفسي، وتجاهل عايدة. أشفقت على عايدة في كلتا الحالتين، لكن عايدة قالت: «بس سهى بتحب البلوز». أجاب سهيل وهو يفتح أزرار بنطلونه: صحيح؟ وقلت: «رأسي ثقيل» أخذت أتصنع الكلام وضم شعري، وسهيل تزداد حركته ثم نهض سائلاً وين القهوة؟

القلب والعقل يفتحان غرفتيهما، يجعلاني أرى وأسترق النظر إليهما، عدم مبالاتي بسهيل وموريس وعادل، فهمت أن الزمن يمسك بممحاة عملاقة، يمحو الأسماء ويكتب أسماء أخرى ويعيد العواطف. ثم تعرفي بباسم وحبي له، وطيراني فرحاً عندما طلب الزواج بي. وما أردت الآن أن أراقب غرفة العقل ولا غرفة القلب. طردت كل الصور والخلجات والأسئلة، وفكرت بأن أنسى ما جرى في غرفة نور. لكن العقل والقلب مخلصان. ينبشان في درجهما، بحثاً عن الأسباب والمبررات لربما يستطيعان إلغاء ما جرى. يجعلاني أرى نفسي منذ شهر وأنا آوي إلى فراشي، أستمع إلى بكاء طفل، رغم ضجة مكيفات الهواء، وإلى موسيقى أجنبية وعربية وهندية تصدح عبر البيوت. لما وضعت يدي تحت الوسادة أقربها مني، شممت رائحة نور، وتساءلت وقتها هل هذه وسادة نور؟ وأنا أسمع ضحكة نور وأرى شعرها الأسود الغزير.

تخيلتها مع الرجل، دافئة، وفي الوقت نفسه لا قوة لها. تنحني وتميل كلعبة من العجين، تريد ما هو محرّم، التشديد على تحريمه، يذكر الناس به في كل لحظة. يخترق أذهانهم وأجسامهم. حتى عند شراء التمبكس والكوتكس والعطور وسبراي الإبط، يتبدل لون وجه البائع، خلف الصندوق، تعرف المرأة ما يفكر به وهو يبتسم، أو يتصنع اللامبالاة. في الجرائد حملة لمنع عرض الملابس الداخلية النسائية. قائدة الحملة فتاة في

العشرين، وكانت قد أثارت موضوع الأساور والحلي وكتبت تقول: «إنها رمز للعبودية، يذكر بزمن الجواري والعبيد. وأن زينة المرأة نداء للزنا حتى ولو من خلف البراقع والأحجبة السود».

رغم لملمة هذه الأفكار، وشحنها، لم أستطع إلا أن أشعر بالقهر. أخذت أذكّر نفسي كيف فكرت بنور كحالة مرضية، وأنا أحدق وقتها في الوسادة، وفي الغطاء وأقول في نفسي، هنا نور تقلّبت، وهنا تنفست بعجل وعلى مهل، مع رجل بينها وبينه شعيرات خفيفة، ومع ذلك لا يبدو الأمر حالة مرضية كما أردت أن أتصور الآن.

مر أسبوع وأنا كالحاضرة، الغائبة. أنظر من النافذة إلى الصحراء المغبرة، إلى النفايا الميكانيكية. يرن التلفون، ولا أرد عليه. ما أردت أن أسمع صوت نور. لكن نور أتتني ذات صباح باكر. وجلست على الكنبة، ثم نهضت كأنها تتأمل بيتي لأول مرة، تكمش المرجان الأبيض والأصداف، وعرائس الدمى المتدلية من السقف. والعقود الفضية القديمة، والأساور والخلاخل. تبتسم، تعود تجلس بارتخاء قبالتي. وأنا لا أزال، الحاضرة، الغائبة، أحاول أن يكون حديثي طبيعياً ولا أستطيع. كل سؤال أو جملة أردت أن أنطق بها وجدت لها علاقة بنا، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. فقط لما ذهبت نور، تنفست.

يوم ويوم آخر بدأت أشعر بالحنين، اشتقت إلى جو الخصوصية، الذي كوّن نفسه معتمداً على الوحدة والفراغ والانتظار، إذ في المدة الأخيرة ما عدنا نجلس نتحدث كزائرتين. ننقل إلى بعضنا ما تفعله كل منا على حدة. إننا نعيش الأخبار معاً. ننزل إلى المخزن. نزور سوزان. ندخل الفندق ونحن نرتجف، نطلب الشاي والكعك لننهض بعد جرعنا للشاي مرة واحدة، إذ النظرات تكاد تقترب منا وتصبح مؤنبة. نذهب إلى الصحراء. لنتوغل عميقاً، نرى سراباً ملوناً. كلما اقتربت السيارة اقترب السراب وكان حقيقة.

وقتها ما استطعت إلا أن أقول «يا الله». سجاد من الأقحوان الأصفر والأبيض، زهور أخرى لا أعرف اسمها، رعى الحمام، وزهور أخرى

ثخينة، واقفة كالوتد. قلت: «هيدا سم الحية». ولم تكن الألوان هي التي زادت من دقات قلبي، والتي أشتاق لرؤيتها في الطبيعة كل يوم، إنما الرائحة. رائحة أريج عطر، قوي، وجديد وغريب على حاسة الشم. اقتربت أقطف أقحوانة. وجدت نفسي أدني ورقاتها من فمي وأعلكها، ارتبطت حاسة الشم بحاسة الذوق. كلما سرنا بين الزهور كلما ازدادت الرائحة واختلفت، من رائحة ياسمين إلى زنبق أبيض إلى نرجس. تجلسنا على الرمل والعشب، في يد نور أقحوانة تنزع وريقاتها، ورقة، ورقة: «يحبني، لا يحبني». أتمدد، وأبتسم لانتباهي فجأة إلى الواقع. علاقتي بباسم منذ أن قدمنا إلى الصحراء أصبحت داخل جدران البيت فقط. لا تتعدى حتى إلى الحديقة أو إلى السيارة والشارع. فأنا نادراً ما أجلس قربه في المقعد الأمامي للسيارة. لا أسير معه في الشارع، ولا أدخل معه المخزن. ولا نتمدد معاً على حافة البيسين. ولا أجلس معه حتى في المقعد الخلفي في طريقنا إلى المطار، يجلس هو في المقعد الأمامي قرب سعيد. حتى إنه ما تعرف بنور بعد، ولا بتمر، أحاديثنا قصيرة، لا تتخطى نطاق حياتنا اليومية، وهي دائماً عن الإجازات وعن أخبار لبنان والأهل والأصدقاء.

ويمر في حجرات عقلي وقلبي باسم، كيف اعتدت أن أخلد إلى فراشي في ساعة مبكرة أحاول القراءة، رغم سماعي لضجة التلفزيون، أو لضحكات أصدقاء باسم وعلو أصواتهم. فأنا اختصرت كل الدعوات المختلطة لاقتناعي بعدم جدواها. فالمدعوات يتأملن ملابس بعضهن البعض، يستنتجن أحوال أزواج الأخريات المادية حتى يشعرن إما بالفخر أو بالغيرة. بينما الرجال يتحدثون عن أحوالهم المادية بصراحة. أفكر كم أنا مرتاحة لأني لست مجبرة على الجلوس بينهم وبالتالي كم أنا وحيدة.

أحياناً كنت أرفض باسم عندما يدخل غرفة النوم باكراً على غير عادته، حسب مدى ضجري في النهار، ودرجة نقمتي لأني لا أزال في الصحراء، أحياناً كنت أقنع نفسي أن لا حيلة له إلا البقاء هنا، وأنه سعيد في عمله، عندها أترك قبلاته وجسمه يعانقانني وأضمه إليَّ متذكرة الماضي والأيام الطبيعية. مهما حاولت الاسترخاء، وجدت نفسي أعي كل صوت في

الخارج، ثم كل حركة في السرير، ويضيع مني هدف الوصول كورقة يطيرها الهواء على قربها مني، وكلما لحقت بها، طارت من جديد، وقتها كنت أشعر بالضيق لأني أبديت رغبة في المشاركة وما وصلت. وأتقلّب في الليل غير قادرة على النوم، كأني اقترفت ذنباً، كأني عرفت لأول مرة، أني لا أملك جسمي، بل شعوري هو الوحيد الذي يحرك كل شيء فيه حتى مسامه. وهو لا يقتنع، لا ينسى بل يتمرد.

قالت نور وهي لا تزال تقطع ورقات الأقحوان: «لما رجعوني هنا، وشفت الصحراء، من شباك الطيارة صرخت، لما طلعت السيارة راجعت معدتي يمكن ثلاث مرات. لما وصلت البيت دقيت رأسي بالحيطان. صابني الأرق، وفقدت قابليتي للأكل، وما رضيت سلّم على قرايبي إلا بالغصب. وأقعد ساعات وأيام، وإذا كانت الطاولة تتكلم، أنا أتكلم. أصك باب غرفتي وجيب مرايه شوف وجهي، وعدّ شعر حواجبي ورموشي، وأفتل شعري مثل مجانين المصحات. كل عمري ما حب شوف الصحراء. أمي تقول: إني قبل ما أفهم، كنت أبكي وما يعرفوا السبب، لما وعيت وأنا أقفل عيوني في السيارة، عكس أخواتي يحبوا يشوفوا من الشبابيك. ما حب الصحراء أبداً. للحين ينقبض قلبي».

علاقتنا اليومية حاكت نفسها، أنا كصياد، يرمي بشباك رغم معرفته بأن هذه المياه، لا تعيش فيها الأسماك ولا حتى الحشائش. لكنه يشعر براحة كلما طرحها وبتسلية يفضلها على اللاشيء. ولهذا حين يعود في اليوم التالي ويطرحها في الماء، يتململ قليلاً.

في الأيام التالية، تجرأت على تقبيل نور، بعد أن أغمضت عيني وفتحتها خمسين مرة. وما وصلت معها إلى مكان لا يوجد اسمه على الكرة الأرضية إلا بعد أن نمّلت أعضائي. وما فتحت عيني بسهولة. كأني أمام جبل كبريت خائفة من أن ينفجر، وكأني في حضرة ملكة قفير النحل. وما عادت هذه تجربة كما تجرب فاكهة جديدة كان يظنها الإنسان لا تؤكل. لما ذاقها أغمي عليه من حلاوة طعمها وما استطاع رمي البذرة وإكمال سيره.

علاقتنا السرية أخذت تكمل علاقتنا خارج البيت. أشعر بتبدّل. كأني ذقت ورقات نبتة جعلتني في حالة تخدر وغياب الذاكرة. لم أعد أنتبه إلى الوقت البطيء الذي يزحف في الصحراء، ولا إلى رائحة المواد الكيماوية المنتشرة التي كانت تضايقني، ولا إلى ألوان الأبنية الجديدة والتي أطلقت عليها اسم الخرائب الفورية. وما عدت أنتبه إلى الأسلاك المتدلية من الحيطان الخارجية. وإلى عدم وجود الأشجار بكثرة. وما عاد القلق والغيظ يزحفان إلي كما حدث من قبل لما رأيت الشباك الصغير الذي يطل منه رأس خياط النساء ليتسلم من المرأة القماش والموديل. وضحكت لما سمعت إحدى زائرات أم نور تمنع ابنتها من الذهاب وحيدة في سيارة نور، معللة بأن «ما خلا رجل بامرأة وإلا كان الشيطان ثالثهما». رغم تدخل نور مؤكدة بأن السائق كريم الأخلاق وبأنه قديم العهد في خدمتها. ولكني شعرت بالضيق حين أتت نور إلى بيتي ذات يوم، وقتها فقط بدت علاقتنا حقيقية. رائحة البخور والأثاث والطعام التي كانت تنساب إلى حواسي وأنا في غرفة نومها وعلى سريرها الشبيه بقمرة طائرة. فعلى جانبيه أزرار عديدة وظهره من جلد الشامواه الذي يغطي أيضاً خزانتها ومرآتها ومقعدها. بدلاً من تلك الأجواء صرت أرى الآن رسوم عمر المعلقة على الحائط والتي تتحرك من تيار المكيف، وحقيبة سفري الصفراء فوق الخزانة. ولم أشعر أني زائرة أو متفرجة في هذه المرة، بينما كنت في السابق أعود إلى بيتي وكأني ما فارقته. أرى ثياب باسم المكوية معلقة على أكرة باب غرفته، قمصانه النظيفة لا تزال مفرودة على السرير ريثما تجف رطوبتها، وأرى نفسي أحضر أشياء عمر وأجيب على التلفون، حتى إنني كنت أسأل نفسي إذا كنت فعلاً قد عدت من عند نور قبل دقائق فقط وما إذا كان تمددي على سريرها وقبلاتنا وتشبثنا ببعضنا والزوغان، حقيقة.

غرفتي ما تزال على ما هي، إلا من آثار وجود نور وعطرها. غرفة النوم في كل بيوت العالم دائماً خاصة، كنت أحب دخول غرفة والدي، لأرى زجاجاً مقصوصاً على شكل قمر يتوسط خشب السرير، ولم أره مضاءً مرة واحدة في حياتي. ولا أزال أذكر غرفة نوم معلمتي الأجنبية. التي أجريت لها

عملية الزائدة. عندما زرتها مع بقية الصف، رأيت ولدهشتي لعباً من كل الأشكال والأنواع منتشرة في أنحاء الغرفة. وكانت معلمتي قد بلغت ربما الخمسين من العمر، ولم تكن تبتسم بسهولة.

قبل الزواج كنت أحب أن يرى أصدقائي غرفة نومي، فأترك مضرب التنس على الطاولة عن قصد. والأسطوانات الكلاسيكية ظاهرة، والكتب الفنية والأدبية للسميكة والقواميس، وصورتي وأنا أستلم شهادة البريفيه. بعد زواجي اهتممت بألوان غرفة النوم، وتعمدت أن تنسجم مع قمصان نومي حتى ألوان علبة الكلينكس. الآن في الصحراء، فقد اعتبرت غرفة النوم، للنوم فقط.

- ٦ -

دهشت عندما رأيت القاعة تغص بالنساء الصحراويات: أين يعشن، أين يختبئن، والبلدة تكاد تكون مهجورة؟ نساء كأنهن نوع فريد من الديكة - بألوانهن ومناقيرهن، أو ساحرات اجتمعن هذا الليل لمعرفة لون الهواء. الفساتين رائعة الألوان والموضة: فستان الملكة ماري أنطوانيت، وكليوباطرا، أو مدام بومبادور وسكارليت أوهارا وراقية ابراهيم.

الشعر أيضاً كان لغير هذه القاعة التي بنيت خصيصاً لإقامة الأعراس، بعدما تهدم أحد البيوت من كثرة ما حوى من مدعوات. حتى سقف هذه القاعة انهار ذات ليلة على بعض النساء. لذلك جلست في آخر القاعة قرب الباب على الرغم من استياء نور. إذ بدت النساء بلا قلوب هذه الليلة. ترى هل هي ملابسهن؟ أم البراقع التي تصل حدّ الأنوف، أم شعورهن التي تبلغ الخصور؟ ولكن نور جمعت شعرها تحت قبعة بيضاء، تنتهي بخيوط تتدلى منها حبيبات اللؤلؤ. وارتدت فستاناً طويلاً للمصمم فالنتينو الذي كان قد صمم هذا الفستان ذاته للأوروبيات بطول قصير.

حفلة المساء ستقيمها مغنية اسمها غصون. ذاع صيتها بعدما تعرفت على عبدالحليم حافظ الذي اكتشف صوتها البدوي، وطلب منها الغناء في القاهرة، وما أن قبلت غصون عرض عبدالحليم حافظ حتى اصطحبت أخواتها وقريباتها اللواتي أصبحن ضمن فرقتها الخاصة لينقرن الدفوف والطبول.

الأضواء والحضور أرعبا أعضاء فرقة غصون، فرفضن الجلوس على المسرح رغم براقعهن. وتركن غصون وحيدة مع عودها تغني أمام الميكروفون.

حين أطلت غصون بدت كبطلة من القبائل الأفريقية، كأنها وجدت باروكة الشعر المستعار بين ما خلفته إرساليات الغرب، فخبأت شعرها الزنجي تحتها. كانت غامقة اللون، زنجية الملامح، ارتدت فستاناً نصفه أسود ونصفه الآخر أحمر، مكموشاً عند الكتفين بكشاكش كبيرة، تنزل حتى الأكمام، سلاسل ذهبية وعقود ملونة تتدلى من الرقبة، وخواتم كثيرة تبرق في الأصابع. تريد إبهار الجميع، كانت تعرف أن مكانتها في مجتمعها ليست سليمة. فهي لُقّبت بالدقاقة لأنها أخذت الغناء رزقاً لها منذ الصغر، وراحت تغني وتنقر العود في الأعراس.

التصفيق يدوي، إنما تصفيق خشن وسريع. الضجة ترتفع. ولد في الرابعة من عمره يلحق بحفيف فستان أمه، وهي تمرّ بين صفوف الحاضرات. أتأمل فساتين النساء ووجوههن وهن يتشدقن بمضغ العلكة، البراقع لا تزال منسدلة على معظم الوجوه. والعباءات تكومت على أحضان النساء، فبدت فساتينهن وكأنها ملطخة ببقع سوداء عند الوسط. فتاة ممتلئة الجسم، تركت الغطاء يلف شعرها وصعدت الخشبة وأخذت ترقص حيث غصون تغني. لحقت بها أخرى، ربما شقيقتها، سلسال ذهبي ثخين يقفز فوق الحزام الذهبي ويحدث رنيناً.

فكرت أنهما من فرقة المطربة، ولكني كنت مخطئة، إذ صعدت الخشبة كثيرات، كان إيقاع رقصهن لا يشبه الرقص العربي، ولا الافرنجي السريع بل الأفريقي. معظمه في القدمين، ويد واحدة مرفوعة كمن تستنجد. كأنهن نسين أنفسهن على الخشبة. حتى البنت النحيلة التي لفتت نظري لنحولها وجمال وجهها، والتي سلمت على نور بحرارة وصوت خفيض وشفتاها ترتجفان خجلاً، هي الآن على خشبة المسرح ترقص مع الإيقاع بجرأة. تمضغ نور العلكة وتنسجم مع الموسيقى، بل تكاد تقفز فوق الكرسي، لما قلت لها مازحة: «الظاهر عبالك ترقصي؟» نهضت نور على الفور، تصعد

الخشبة، وحبيبات اللؤلؤ تتطاير حول رأسها، فستانها يلصق بها، فبدت كنجمة من هوليود تؤدي نمرة جاز بين باقي الراقصات.

شعرت بالخجل فجأة، واستغربت هذه الموسيقى والكلمات الساذجة، «الحب عندي، والشعر هندي» التي حفزت نور وجعلتها ترقص بهذا الاندفاع، على إيقاع واحد.

توقفت غصون عن الغناء، لتقول مازحة: «الحامل لا ترقص» ربما سألتها واحدة والمتزوجة؟ لأنها أردفت ضاحكة: «العكس، المتزوجة لازم عشان تحمل بسرعة». حركت يديها وهزت صدرها تأكيداً. عادت نور إلى مكانها تمسك بيدي وتجرّني قائلة: « أعرّفُك على غصونْ، دمها خفيف، وعالمرتبة نشوف أكثر». شعرت بالخجل من ملابسي التي بدت غريبة من شدة بساطتها، كذلك صندالي اللاصق بالأرض. تضايقت فجأة من يد نور، رغم أن النساء هنا قلما سرن دون الامساك بأيدي بعضهن البعض. لما صعدت نور الخشبة، ترددت أيضا، رغم أن عشرات النساء جلسن على كلا الجانبين. اقتربت نور تقبل غصون، التي ما وقفت، بل مدت وجهها ويدها إليّ، ثم قالت غامزة: اللي من بيروت؟، أنا أغنيلك «قالت بترحلك مشوار». ثم التفتت إلى نور وكأنها تكمل قصة: «وبعدين المسكينة، أمها هزتها عشان تروح المدرسة، وكانت ميتة». تدخلتُ سائلة وأنا أتأمل وجه غصون: «مين». ردّت، «زميلة نور، شرقت وهي نايمة وماتت».

جلست قرب نور. وسط نظرات جميع الجالسات. بعضهن بلا براقع، حدّقن بي وهن يمضغن العلوك ويحتسين الشاي، لاحظت نظرات معينة كأنها تستجدي. استبعدت الفكرة، إذا كانت على علم بعلاقتي مع نور. كانت الشيشة أيضاً تدور تمسكها إحداهن، تأخذ نفساً طويلاً، كأنه إكسير الحياة، ولا تتركها إلا وقد قوست صدرها. إحداهن وكانت تكبر الجالسات سناً، تأخذ نفساً طويلاً كأنه إكسير الشباب، تغمض عينيها، لا كلام لا حركة. نظرات حرجة لا تزال تستجدي في الوجوه، وعلى الأجسام التي ترقص لتثير.

«بترحلك مشوار، قلتلها يا ريت، قالت لكن أوعى تغار، حوالي العشاق كتار، قلتلها بطّلت خليني بالبيت».

تغنيها غصون وهي تبتسم. النساء يرددنها والعلوك على ألسنتهن، بين أسنانهن. كيف تغني الحنجرة واللسان ـ وتفرح الأذن بكلمات بعيدة عن الواقع؟ بدون كعجائز يحاولن رتق ثقب كبير في الجورب. لو فكرن بالكلمات وبواقعهن، لربما تمنين أن يتحول الشاي والعلوك إلى سموم قاتلة. «أنا أتوهم» قلت لنفسي وأنا أراهن سعيدات يصفقن بحرارة. وواحدة ترفع البرقع بيدها قليلاً حتى تزغرد. الحنة سوداء، حول الأصابع التي تصفق. نهضت غصون جميلة الجسم. فستان التّفتا يشد على الصدر. يظهر نحول الخصر. تسير؟ ترقص؟ بطريقة كمن لا يريد أن يتعب ويعرق. تهز أو تجعل صدرها يرتجف، تبتسم، تقترب من طرف الخشبة، كريشة ترف في مجرى تيار هواء.

فجأة تعالت الصيحات والضحكات. انتبهت بعد أن لفتت نظري نور إلى امرأة وقفت بين الحضور في الصف الأول، تلف شعرها بمنديل أسود، تحرك رقبتها بقوة، كأنها تفصل رقبتها ورأسها عن باقي جسمها. دفعتها النسوة إلى الخشبة. وما فهمت ما يجري. وقفت المرأة قبالة غصون. إنهما ترتجفان. لا تستطيع غصون فصل الرقبة عن الجسم كما تفعل المرأة. ثم راحت المرأة تهز بطنها وفخذيها كمن يتلقى شيئاً بهما ثم يدفعه. تحاول غصون أن تنثني وتنحني ولكنها لم تستطع. المرأة قبالتها تنثني حتى التصقت بالخشبة، وأخذت تنفض بطنها وفخذيها. وما فعلت المطربة هذا، بل وقفت تضحك. سألت نور بخجل: «شو عم يعملو؟». «يرقصون» أجابت نور. نهضت المرأة، كتفها الآن على كتف المطربة، هزتا بطنيهما، فخذيهما، ووقفتا. اندفعت احدى الحاضرات وهمست في أذن غصون ثم عادت إلى مكانها، تبدلت ملامح غصون، لكنها لم تتوقف عن الرقص. انحنت المرأة فوق كتف المطربة، ثم فوق رقبتها ثم لصقت بوجهها. المطربة تبتعد، الحاضرات يضحكن، ويصفقن، نقر الدف يزداد، الطبل يعلو، المرأة تقترب

وفي عينيها نار هادئة تشتعل رغم انعدام الهواء والأوكسجين. كانت طويلة نحيلة، سمراء، ناعمة الملامح، شعرها تكوّم تحت قماش أبيض، حلق أذنيها على شكل دائرتين واسعتين من الذهب، تضفيان على أذنيها الكبيرتين حدة. رقبتها طويلة، رفيعة. الأوردة بالمئات تتشابك زرقاء وبنفسجية وحمراء وبلون اللحم.

التفت أسأل نور عن هذه المرأة، ردت نور وهي تصفق بسعادة: «هذي جليلة، مربية بنات السيداسي، ربّت أمهم، ولما ماتت، وأبوهم تزوج، ظلت بالبيت مع البنات. يأخذونها معهن كل مكان، والناس اللي تعزم البنات، لازم تعزم جليلة الأول».

لا تزال جليلة تتحدى المطربة، بحركاتها الجريئة مستعينة بيديها، بمد لسانها، بتحريكه، بتحريك كل جزء من جسمها وتركه ليثب وحده، وكان إيقاعها رقصاً ذا ليونة. وما كانت تتمايل، وما كانت تهزّ جسمها. كانت تأمره، أو كانت تنتفض استجابة له. غير مهتمة بالصياح حولها. إنما أذنها للموسيقى، وحواسها لا ترى أحداً سوى المطربة، الممتلئة الشفتين، عينا جليلة في لوعة، فمها عنيد. تحاول لمس وجه المطربة، تحاول تقبيلها على شفتيها، وسط التصفيق والضحكات والدفوف وصرخات التشجيع. لكن المطربة ابتعدت، ضحكت، مدت يدها إلى فمها كأنها تخرج شيئاً من بين أسنانها تمسكه بين أصابعها، تشير إلى الحاضرات. سألت نور وكلي توتر، ماذا يجري، قالت نور ببساطة: «يرقصون رقصة أصلية، تكمش اللي ترقص خاتم أم ليرة ذهبية بين أسنانها والثانية اللي ترقص لازم تشيلها من بين أسنانها».

استفهمت كأني عمر: «وليش ما كملوا الرقصة؟». ردت: «غصون ما تريد، هذي جليلة مخيفة، لازم شاذة».

وما فكرت بهذه الكلمة إلا بعد قليل. صوت غصون يصدح عن الزينة، وعيون الزينة، وقامة الزينة. النساء والفتيات يرقصن رغم أن غصون حذرت قائلة: «اثنين، اثنين من فضلكم». لكن الحماس والموسيقى والشعور

بالحرية بعيداً عن البيت والأولاد، والمساء الذي لا يزال يعدهن بمفاجأة، يجعلهن يتسابقن إلى الخشبة، يقفزن في رقصة بدائية، يكتفين بهذا الوقت القصير، إذا قورن بعدد الأعراس والسهرات.

ما طربت أبداً، للأغاني، ولا للجو الراقص السعيد. بل شعرت بضيق من هذا الفرح الذي عمَّ المكان، رغم أني حاولت أن أضع نفسي في موقفهن. شعور آخر يتسلل إلي، لدرجة أني لم أستطع أن أقترب بوجهي أو ألتفت ونور تحدثني. لما رقصت المطربة والمرأة وبينهما الخاتم الذي يجب أن ينتشل من بين الأسنان والشفتين. ولم أرد أن تلتقي عيناي بعيني نور. ولا يدي أن تحف كم فستانها، ولا أن أسمع صوتها. تضايقت من العلك ورائحة البخور ومن صراخهن وهن يتبادلن الحديث عن بعد. بدا تصفيقهن حتى رقصهن غير مقبول. الموسيقى والغناء عن العشق والطيف لا يمتان بصلة إلى هذه الفساتين ولا إلى هذه العطور. عواطفهن هذه الليلة لا تليق بالبراقع. ستمائة امرأة أعمارهن تتراوح بين العشرين والأربعين، يعرفن أنهن سجينات حتى في هذه القاعة، لأنهن لا يستطعن الخروج منها إلا حين يحضر السائقون والأزواج لأخذهن.

ماذا يحمل الليل معه سوى استرجاع اللحن، ورقص المرأتين، لذلك تسألني نور إذا كنت سأعود معها إلى البيت ولو لساعة واحدة؟ ازدادت ثورتي التي كانت تتغذى وتعود تطفىء اللهب من تلقاء نفسها، فلم أجبها. الشعور الذي ولد منذ أن دخلت نور غرفة نومي وتمددت على السرير يداهمني. كأن أشياء عمر وباسم بدأت تتحول إلى عيون وحزن. أخذت العلاقة تبدو يوماً بعد آخر سرية وغير سليمة، لأنها من المستحيل أن ترى النور أو أن تختفي. وأخذت أعارك نفسي، كأني مصابة بانفصام شخصية. كلما ضاجعني باسم، وتعلقت به أحاول طرد نور وأثور وأنا أشعر بالخزي، وباسم يحنو علي. كنت أدخل الحمام أقف وراء الدوش، أمسك رأسي بين يدي، وأقول بصوت يسمعه الماء بأن ما يجري لي ليس حقيقياً وبأني أنا لست حقيقية: أنفاسي ورأسي وابني وصوتي كلها أوهام.

ووجدتني أتضايق ونور تحدثني كالعاشقة. ثم تنتقل إلى تفاصيل يومها، وتخبرني ماذا ترتدي الآن وماذا تفعل، من عندها، وماذا تأكل. تطلق علي ألقاباً وأسماء ما تعودت سماعها حتى بين رجل وامرأة. فقط لهجة نور الصحراوية المحببة إلى أذني كانت تصرفني عن الضحك والسخرية.

وكنت أعرف أن حاجتي للقاء، ما عادت لتبادل الأحاديث والشكوى والتسلية. كان التفكير بجهة واحدة معينة، وانقباض عضلات كل منا يزداد كلما واجهتنا ظروف حرجة: زائرة أو أم نور، أو ابنة نور. وكلما وقفت أعدل من فستاني، أثور وأعد نفسي أن لا أرى نور مرة أخرى، أجبر دماغي لاسترجاع صورة بار الشاذات في برلين، الذي ذهبت إليه من باب الفضول مع باسم وشلة من الأصدقاء. بقيت جالسة، كقطة تراقب فأرة، تنتظر لحظة الانكباب عليها. فكرت بجو بيتي، فيه تناسق وماضٍ وثبات. من كلام باسم إلى الأثاث، إلى صراخ وضحك عمر، لا بد أنه ينام الآن على شراشفه الخاصة فوق رسوم سوبرمان.

تعود نور تسألني بقلق: «تجين عندي ساعة؟».

أتراجع، أمسك نفسي، أكتفي بهز رأسي نفياً. أفكر أن أنهض وأذهب إلى البيت اللحظة وأن لا أعود أرى نور بعد الآن. وقفت. وأنا أدرك أن رقص المرأتين والإثارة التي رافقت كل حركة من حركاتهما هما من وراء دعوة نور لي. لكني سرت حتى باب القاعة، مخترقة بعض صفوف النساء. ألتفت ورائي، أراهن تحت أضواء النيون يرقصن شبه مخدرات.

في الخارج عاصفة من الغبار، بينما وقف الرجال عند مدخل القاعة بالعشرات، ينتظرون وكأنهم يحرسون النساء في الداخل.

رأيت باسم ينتظرني مع سعيد في السيارة. بادرني: «تأخرت، وخفت عليك قال لي سعيد يمكن صعب للنسوان ترجع مع الشوفرية بالليل، خبريني كيف تسليتي؟» ابتسمت: «كثير».

طافت بخيالي غصون، والمرأة المتصابية، التي كانت تحث البنات على الرقص وتشدهن إلى الحلبة وهي تعانقهن وتضمهن إليها. تجلس وفي عينيها رغبة تهبط حتى لسانها، الذي كان يرشق كلمات الإطراء وكلمات غيرها مبهمة.

- ٧ -

ما عاد الكنار يغرد، منذ أن دخلت حياته أنثى وأخذت عقله. يطلعها على أسرار البيت. كلما شمّ راحة الأرز، وجاء إلى المائدة كعادته وهمّ ينقر حبة، نادته إليها. كلما طار وحط على كتفي نادته مرة ثانية. إنها استولت على حنجرته، ما عاد يغني، ما عاد يحدث صوتاً، إلا عندما تضيع الأنثى في إحدى الغرف وتطلب النجدة. يرد عليها بأنه آت، وهو يلتفت برأسه الصغير، ثم يطير بين الغرف باحثاً عنها. عندما يضمهما القفص في الليل، يغازلها بزقزقة خفيفة لا تنبعث إلا من قلبه، ومنقاره يلامس منقارها. أيقنت أنه بحاجة إلى أنثى لما تلوث إطار المرآة من كثرة ما وقف الكنار ونظر إلى نفسه، واقترب يلامس صورته وهو يميل رأسه، ينقر صورته ويغني. لما دخلت حياته بريشها ودمها ما عاد يغني ويشكو وحدته وشوقه.

أمدّ يدي داخل القفص، محاولة جعل الكنار يحط على إصبعي، ثم كتفي كالعادة. خوف الأنثى يزداد كذلك، وزقزقتها المزعجة والتي تحولت إلى صياح. وحين لم يجيء الكنار إلى أصبعي كعادته، أغلقت باب القفص بشدة ثم ابتسمت وأنا أغني له:

«كان عندي عصفور، ظريف وغندور، عبكره بكير، قبل ما فيق، كان يزقزق، كان يغرّد، كان ينط ويتحمم، بس تزوج، راح نفّس، مثل البوالين، آه يا عصفور، آه يا كنار».

دق جرس باب الحديقة. استغربت، من لا يعرف كيف يفتح الباب الخشبي؟ كانت كوكب، أم نور. دق قلبي سريعاً، حاولت أن تكون لهجتي عادية، سألتها عن نور، ولماذا لم تأت معها. كأن الأم تعرف ما بيننا. سحبت عباءتها المغبرة تكومها وتضعها في حجرها، تدور ثقب عينيها، تتفرسان عبر البرقع وتقول: «قعدتكم حلوة، اشتريت القماش من لبنان؟» أومأت بوجهها إلى الستائر ثم بيدها إلى الكنبة.

وما كانت تريد جواباً. سألتني أيضاً عن فرو الدب على الأرض: «ويش هذا؟». ثم أضافت وهي تهوي بيدها «حرّ، ويش قلت اسمه، دب، وما رميت رأسه؟ شوفي لسانه وفمه، مستعد يأكل، أعوذ بالله». ما أحببت هذا الدب الذي أتى به باسم، لكن تعلّق عمر به جعلني أستأنس له. كرهتها، كرهت وجهها، رغم التعب وقساوة الحياة التي امتصته. دخلت الأم كوكب في الموضوع الذي أتت من أجله، فجأة تصنعت العاطفة وهي تقول: «نور تعبانة». ازداد كرهي لعينيها: «نور صارت عود بخور، تسعل من رواييها، البارحة وكلتها كيلو موز، ولساها صدرها ضايق، وسعلتها ضايقة. أنت ونور أخوات وحبيبات، وأنت ما عدت زرتيها»، تتبدل لهجتها، إنها تعاتب الآن بقسوة: «قالتلي، أنت بلا قلب. تتركين سماعة التلفون مفتوحة عشان ما تسمعي صوتها، ولما تجيك، ما تفتحي لها الباب، وسواقك يكذّب ويقول أنك مش موجودة. يا عيب، يا عيب».

أنظر إلى أصابعي. أحاول السيطرة على ارتجافي، ما عرفت أني في مثل هذا الضعف. أستأذن لأدخل المطبخ. أسند رأسي إلى الثلاجة للحظات. أمسك رقبتي بين يدي، وأشد عليها حين أشعر بقليل من الألم، أتوقف، أفتح الثلاجة، أخرج الابريق. آتي بكوبين، أضعهما على صينية. لا أدري كيف لم يقعا، يداي ترتعشان، أسير بهدوء، نظري على الصينية، أتصنع المحافظة على التوازن. توازن الكوبين الفارغين؟ والإبريق الزجاجي لا يزال في المطبخ. أبتسم لأم نور. وأنا ألوم نفسي بصوت عال لنسيان الليموناده. آتي بالابريق، أسكب بيد عصبية في كوب أم نور، التي رفعت برقعها وكرعت الليموناده مرة واحدة ووضعت الكوب فارغاً، وقالت

كأنها تكمل حديثاً أو تجيب على سؤال: «لا يا بنية لا يجوز. روح الولد عزيزة، على قلب كل أم، أنت أم وعارفة، أنت تجي عند نور، وتسلموا على بعض وتتصالحوا». أجبتها وكأني لا أودّ أن تسمعني: «إن شاء الله بعد الظهر».

وقفت أمّ نور، تضع يدها على يدي، تظهر أسنانها الصفراء محاولة المزاح: «يللا، تجي معايا دقائق أشوفكم تصافيتو، وتعاتبتو». ثم شدتني من يدي وهي تطبق بإحكام على أصابعي. رغم محاولة تودها لي، ما شعرت إلا بالكره وبالاشمئزاز. لكنني وجدت نفسي أسير معها إلى الباب أفتحه، وأخرج معها. بلا جزدان، فقط أشد بأصابعي على يدي الأخرى. تحوّل الغيظ إلى حزن. أردت البكاء. لما دخلت معها الصالون، انتبهت أني وصلت بيت نور بسرعة مذهلة. يبدو أن الأم ما حدثتني في الطريق. كأن «كلمة بنيتي وبنتي» ليست بحاجة إليها الآن.

عشرة أيام أو أكثر، منذ أن دخلت هذا البيت. بعد يومين من سهرة غصون، نهضت بعد الظهر من النوم ضجرة، اتصلت بسوزان وبتمر وبأنغريد فلم أجد واحدة في بيتها. كان عيد ميلاد بنت نور وكنت قد قررت عدم إرسال عمر، وأنا أعد نفسي بأن أقرأ كتاباً، أو أكوي بلوزتي، وأغسل فستاني، أو أرتب غرفتي، أصنع عروسة، أنظف قفص الكنار، أكتب رسائل، أشك عقد الصدف الذي انفرط، أحضر جللي. وما فعلت شيئاً من هذا، ارتديت ملابسي، وقررت الذهاب إلى الست وفا معلمة العربية، لما خرجت لم أجد سعيد.

تضايقت، لكني عدت وتذكرت أني سمحت له أخيراً بالذهاب إلى الجامع لأداء صلاة العصر، كنت منعته لطول غيبته هناك، وإعطائي جواباً واحداً: «الجماعة يا عمتي، كل يوم يوصل واحد من البلاد، الأخبار تازة، تازة». وما أعجبه الصلاة في غرفته. بقي أسبوعاً لا يحادثني، وأسبوعاً آخر يصرخ صراخاً حاداً في الحديقة، لما هرعت إليه في المرة الأولى، كان يبكي ويقول: «حنش يا عمتي طويل، عريض، شافني أتوضأ يا عمتي، ومد لسانه

عشان يعضّني، لكنه عرف عم أتوضأ وخاف». عرف أن حيلته هذه ما انطلت علي، جاء بعدها يبكي وقال إن شيخ الجامع رآه في السوق هدده وفرك له أذنه، وقال له: «كافر، ما تجي الجامع، انقطعت عن الصلاة؟».

عدت إلى داخل البيت، أفكّر أن أمسح طلاء أظافري بالأسيتون وأضع بدلاً منه لما رنّ التلفون، وكانت نور تشدد عليّ أن لا أنسى عيد غادة وأن «الكل ناطر عمر». حاولت أن تكون لهجتي طبيعية، وأنا أقول بأن عمر عند المعلمة وفا وسعيد غير موجود. لكن نور كالعادة أصرت أن ترسل سيارتها. والهدية؟ التفت حولي، رأيت الكنار الأنثى عند باب القفص خائفة من الخروج منه والطيران. أغلقته عليها وأخذته. وأنا ألوم نفسي لماذا لم أفكر بالتخلص منها قبل الآن.

لما انتهت الحفلة وكانت للأمهات أيضاً، حيث جلسن يتحادثن ويأكلن، بينما يلعب الأولاد بين الحديقة والصالون، يعدون خلف الغزلان والكلاب. نهضت مطمئنة، فرحة، لأن نور أيضاً حوّلت العلاقة إلى صداقة عادية، حتى ارتباكي لحظة دخولي بيتها اختفى بعد لحظات. لكن نور أمسكت بيدي وشهقت قائلة: «بعد بكير»، أجيبها كاذبة: «لا والله، باسم بيجي بكير اليوم». لكن عمر احتجّ وهو يدق بقدميه الأرض. مما أعطى الفرصة لنور التي قالت بتودد: «بتحب تنام عندنا يا عمر وتلعب مع الغزلان؟». سكت يستجمع نفسه وقال: «أنا والماما». أجبته وتنفسي يضيق: «لا حبيبي، يللا، هلق البابا يكون قاعد لحالو».

ركض عمر، وراء الغزال. بينما قالت نور بتوسل: «قلبي وقلب عمر على بعض، أرجوك سهى تنامي عندي. خايفة، متضايقة». لكني مشيت نحو الباب أقول بنفاد صبر: «بلاش قصص يا نور، مش معقول نام عندك، كبري عقلك يا نور، عندك أولاد، وأنا عندي أولاد، وبحب زوجي، وأنت تحبي زوجك». وما ندمت على إدخال زوجينا في حديثي. لكن نور ركضت، تقف على الباب تمنعني من الخروج. وقفت لحظات. ثم لفترة، وهي ما زالت تسد الباب، وعلى وجهها نظرة عناد وتصميم. فاتجهت إلى

الستارة، أزيحها، وإلى الباب الآخر وكان موصداً. فكرت إذا أراد عمر الدخول وما استطاع؛ وإذا رآني عبر الباب الزجاجي وناداني وبقيت واقفة بلا حراك، لا أستطيع إجابته ولا أن أفتح له الباب؟

تلفت حولي أنظر في الأشياء، ركزت نظري على التلفون، أتوسل إليه حتى يرنّ. إلى أن قلت فجأة: «أنا فاهمة ليش تركك صالح. أنت دلوعة ونزقة». لم تجبني نور، بل بقيت تستند إلى الباب بكل ما عندها من قوة وقد اختفى بيتها الواسع كأن حياتها معلّقة في هذا الباب، وقالت: «ماني فاهمة، في قلبي أنت ومع ذلك تتصرفي بهذا الجفاف، أنا مستعدة أعيش معك وأترك صالح وأهلي وأنت بتخافي حتى إذا الكلاب والغزلان دخلت علينا!! والله ماني فاهمة طبعك، الواحد لما يحبّك أنت تهربي وتعذبي...».

لم تسر الأمور حسب ترتيبي، نور تحتج وتعارك. كفراشة تعلم أنها سوف تحترق إذا هي لمست سخونة المصباح. لما وصلتُ إلى البيت بعد رفضي المبيت عندها، لا أعرف كيف دخلت، وماذا تكلمت مع باسم وكيف جلست. كنت أعرف أنها ستلحق بي. رنّ الهاتف وكانت نور تبكي تعتذر وتطلب مني السماح. قلت لها بعجلة خوفاً من أن ينتبه باسم: «بكره»، ثوان، وعادت نور تتصل. قلت «بكره» وأقفلت التلفون ثم سحبت الشريط من الحائط أمام دهشة باسم ثم قلت أتصنّع اللامبالاة: «نور ضجرانة، ومتطلبة» ردّ باسم مداعباً: «ضجرانة أكثر منك ما بعتقد، على كل حال أنت دايماً بتصاحبي الضجرانين». نظرت إلى وجهي في المرآة وفكرت هل يحدث لي هذا مع امرأة؟. سألت نفسي قبل الآن مئات المرات، واكتشفت أن هذه التجربة صادمة، قشّرتها كموزة، وتركت لبها ظاهراً يكاد يهوي بين دقيقة وأخرى.

لم أر نور. أمسكتني الأم من يدي. تفتح باب غرفة نور، وتقول: «يللا يا بنيّة، الهجر ما هو للبني آدمين». التفتّ نحو الباب قبل أن أنظر إلى نور المتمددة في السرير. أردت كما وعدت نفسي أن أتكلم بهدوء وأنهي المسألة

لكني صحت: «ولو نور؟ بتبعتي أمك؟». عرفت ما إن سمعت رنة جملتي أني أخطأت. كنت قد فكرت أن أسلك مع نور طريقة أخرى. كما تتبادل صديقتان الأسرار وأقول لها إن باسم عرف بعلاقتنا وهدّدني بالطلاق وبأخذ عمر مني. لكني لم أستطع إلا أن أقول بتشف وغيظ: «ولو يا نور؟ بتبعتي أمك؟».

صياح نور، هزّ الغرفة. هز الغبار عن الستائر، كيف ظهرت الأم كوكب فجأة. وكيف تحولت العينان إلى حجرين أسودين يقدحان الشرر. الغضب يجب أن ينبع من العينين إذ الوجه مبرقع. وقالت «إصبري يا بنية» وهي ترفع شعر نور عن رقبتها ووجهها لتكمل بهدوء: «إصبري يا بنية، خلّيني أشوف الآخرة مع اللي بلا وجدان.. مع..». ماذا تتحدث هذه المرأة؟ اقتربت مني، عيناها صارتا ناراً، صاحت: «مين اللي يقدر يعذب بنتي غير سبحانه وتعالى». صاحت نور بأمها التي لا تزال ناراً خلف نار. لكن الأم غير مبالية. وجهها يكاد يلصق بوجهي. «اللي يمس ظفر نور أكويه وما خلّي بعيونه نور». ثم شدّتني بذراعي خارج الغرفة. رغم صراخ نور ونهوضها من الفراش وإمساكها بيد أمها. إلا أنني لم أستطع إلا أن أفكر، بأن نور وأمها مصاصتا دماء، حظيتا بفريسة، ويجب الهرب فوراً. دفشت الأم نور داخل الغرفة، ردت الباب بشدة وأكملت: «فاهمة معزة نور؟ أنا عارفة، كلمة مني لصالح وتكوني أنت وزوجك وعيالك بره».

هل معقول. باسم؟ وبدلاً من البكاء والصراخ، فكرت أن الأم لا تعرف ما بيني وبين ابنتها. أتتني الشجاعة، وأتتني الكلمات وكأن صوتي لا يملك سوى هذه الجملة قلت بهدوء، وأنا أحاول أن لا يرتعش صوتي: «اللي بيني وبين نور، حرام ما يجوز».

لما تنحنحت المرأة وأزاحت نار عينيها عني للحظة، فكرت وبسرعة أني أستطيع الآن السير عبر هذا الباب ونسيان هذا البيت واقتلاعه من الذاكرة مهما كانت الطريقة. فعلاً سرت خطوات، قبل أن أسمع جلبة خفيفة، يحدثها ثوب المرأة، لما أمسكت بيدي صحت، وكأن المفاجأة أرعبتني. قالت

وكأنها تهمس بأذني: «حرام يا بنية، حرام، لكن الزنا مع الرجل حرام أكثر وأنت عارفة نور وأبو عيالها». وما قلت لها لا أعرف ولم أقل لها من ذا الذي يستطيع أن يعيش مع ابنتك؟ كل ما أردته هو أن أخطو عبر هذا الباب الآن، ومن هذا البلد الآن. مدّت المرأة تتناول من عبها لفافة قماش صغيرة، أفكر بهلع أن المرأة سترش عليّ المخدر، ستدلق السم. لكنه ذهب، ليرة انكليزية ذهبية تضعها الأم في يدي.

الليرة الذهبية بين عروق يدي أعادت قلبي للخفقان حتى الألم كأن ملمسها يعدني بقرار قاطع: الحل عند نور، وفي الغرفة، الاسترسال مع الأم لا يجدي سوى دق الرأس في الجدران. إنها مخلوق من قارة أخرى.

دخلت إلى نور، وضعت الليرة الذهبية على الطاولة، تعمدت أن أحدث بها رنيناً. وجه نور يواجه الحائط، قلت لها: «ليرة الذهب من أمك». وأنا أنظر في وجهها، كرهت وجهها وأجلت عيني في الغرفة محاولة ألا أرى نور أو أن أشعر بوجودها. حاولت أن أفكر بعيداً عن هنا للحظات. علي أن أسافر، علي أن أتخيل نفسي في الطائرة. رغم شهقات نور، ورائحة الأكل والسرير واللمبات والأزرار من على الجانبين والستائر المسدلة تنفي ما وراءها. تذكرت المرة الأولى لدخولي هذا البيت، والمرة التي ارتمت نور فيها تعانقني. رأيت نفسي أبادلها المستحيل. كأن الذي يحدث إنما يحدث لأخرى لا يُدمغ مروره. لكني بكيت، لأن هذا يحصل رغم أنفي ورغم وعدي لنفسي. ولأن نور تبكي، ولأننا يجب أن نندفع معاً كرحلاتنا السابقة وإلا تعذّر علي الخروج من هذا البيت. إنما هذه المرة كمغن جميل الصوت أُجبر على الغناء. وكنحلة غطست رأسها في عسل شهي غصباً عنها. نهضت وكأن كل قوة العالم امتدت إلى شراييني ووصلت إلى الدماغ. لم أستطع السيطرة على هذه القوة المتدفقة. عرفت كم أنا محظوظة لأني بالتالي لا أعيش في هذا البيت ولأني لست وحيدة ولأني لا أعاني من الفقر العاطفي ولأني أعرف ما أريد ولأني سأغادر هذه اللحظة هذا الباب وهذه الحديقة، ولن أراها بعد الآن، ولو سُحبت مني كل شعرة من شعري. ولو سُحِلت. رأيت الأم تجلس

على أرض الصالون، تستند إلى كنبة، رسم عليها حامض وفريز. تشير إليّ بالاقتراب. وكالمنوّمة أسير. ابتسامة كبيرة فوق الشفتين. متخطية الأم والباب والحديقة والهواء.

دخلت بيتي كالزوبعة. لم أترك عمر ريثما يكمل مشاهدة التلفزيون. صحت به «عالحمام هالدقيقة». أسرعت قبله أغسل وجهي، أجففه. آتي بقلنسوة الحمام البلاستيك، أكوم شعري تحتها. أخلع ملابسي، أنظر في التعاليق خلف الباب، ثم أنحني حتى سلة الغسيل أتناول قميصاً لزوجي. أشمه أعود أطرحه في السلة. أنظر حولي، ثم أعود ألبسه. أفتح الدوش. تنزل مياه عكرة، أقول: «أوف، قال، صارت مية البحر حلوة قال.. صارت حمراء..» لما أصبحت المياه دافئة ناديت بأعلى صوتي: «عمر» أصرخ من جديد. يأتي عمر، يخلع ملابسه مستعيناً بمسكة الباب، يدخل البانيو. يقترب من رذاذ الماء ثم يبتعد. أسأله بعصبية: «شو، باردة أو سخنة؟». قال: «من بعيد باردة، لما أتعود عليها منيحة». بقي بعيداً. أجبته بعصبية: «وأيمتى بدك تتعود عليها؟ سنة الجاية؟». عاد يحاول الوقوف بعيداً تحت الدوش إلى أن أمسكته من يده إلى تحت الماء. أخذت أفرك له شعره وهو يتململ قائلاً: «الشامبو عم يحرق عيوني».

«هيدا شامبو جونسون، ما بيحرق العيون» وحين لم يتوقف عن التململ والابتعاد عن يدي، هويت بكفي على يده. فهم أنني جادة، حتى لما ازدادت سخونة الماء قال بهدوء: «ماما، المي صارت سخنة كتير». وهو يحرك جسمه. أقفلت الحنفية، أتيت بالمنشفة أجففه بسرعة وبجدية، لاحظت أني أشد عليه. أعطيته ملابسه الداخلية والبيجامة، وقلت: «إلبس بأوضتك حبيبي، بدي إتحمم». انحنيت ألم ملابسه الوسخة أضعها في سلة القش، أمسكت الدوش أنظف البانيو، من الرغوة القليلة الباقية. عدت أثبت الدوش، أدير الماء في البانيو وأسد فتحته. أخلع قميص باسم، أرميه في السلة. أدنو من المرآة. أتأمل وجهي. أصاب بالحيرة. ما تبدّل. لا يبدو الغليان عليه ولا الحيرة ولا التصميم. أرتاح للفكرة، أن عمر ما رأى وجهاً

آخر. يغطيني الماء شيئاً فشيئاً. المياه كانت حارة جداً. تحملتها. أعرق. كأن العرق زاد من تصميمي وقلت لنفسي: «خلص، تاركه هالبلد، لو شو ما صار. أنا مش أحسن من الناس اللي عايشة بلبنان». سأفاتح باسم بالقرار الذي لا رجعة فيه، أتصور مجيئه من المكتب تعباً جائعاً. السبب؟ احترت كيف يكون ردّي، مع أن الأسباب طائرة في الجو. في الداخل والخارج، ملموسة ومحسوسة. كسجين يفشل أن يعطي أسباباً مقنعة للإفراج عنه، بعد أن وفرت له أسباب الراحة، جيء له بعائلته لتسكن معه، لما قال «بدي شم الهواء، بدي شوف وجه ربي»، نظر القضاة والمسؤولون إلى بعضهم البعض.

«.. ما فيني حس أنا عم عيش تجربة. أنا عربية، المفروض عندي علاقة مع هالحضارة، بس مش حاسة عندي علاقة. أنا بدنيا والعالم هون بدنيا ثانية. عم إكبر، عم ضيّع وقتي».

كلامي غير مقنع، إنه كلام حفظته البطلة من المسرحية والكتب. أحاول من جديد «خلصني، بدي عيش حياة طبيعية، بدي إمشي، ما بدي إركب بالسيارة، وبدي إلبس مثل ما بدي، أي عقلي صغير، ما بدي حدا يحاسبني. ما بدي حدا يحقق معي. ما بدي خاف لما أبعث فيلم للتظهير، ما عندي أسباب. ما فيني كذّب أكثر من هيك، ما بدي خاف. ما بدي كذّب».

أشعر بالغليان. كأني أرتعش أنتشل كفي من الماء. أعود أغطسها، لا أريده أن يقول: «فورة وبتمرق مثل كل مدة ومدة، وبعدين بتروقي». يجب أن يتأكد أن قراري الآن جدي ولا مجال لمناقشته.

ما عاد قراري بتلك القوة أمام باسم وأوراق عمله التي أتى بها إلى البيت، والغليون بين أصابعه. كأنه قرار لا معنى له، إذ بدت الحياة عادية، طبيعية أمام آثار العرق على قميصه، لكني جعلته قراراً قوياً. بنبرة صوتي، وببرودتي معاً.

قلت وأنا أعرف الجواب مسبقاً: «يعني أنت ما بتفكر تترك وتنزل معي».

قاطعني وهو يعبىء تبغاً في غليونه «أنا؟ هلق؟ مجنونة. ولا قبل سنتين».

جلست أمامه. سددت مجرى أذني حتى لا تنزل كلماته إلى الشعور. كأني أمسح جسمي بماء البنج. حتى لا تلمس أصابعه الشعور. وما احتجت للبنج. منذ أشهر وتوتري في تزايد. قال: «بس أنت بطلت مشغولة، هيدا السبب، إرجعي فتشي على شي شغلة واشتغليها بالبيت».

قلت: «بعمري هون ما انشغلت، كنت عم عبّي وقتي، عم أقتل الفراغ بس». ثم شعرت بالغضب، يصحبه قهر وصحت: «يعني شغلي بالسوبرماركت بتحسبه شغل؟ وتعليمي بالجمعية؟ أي واحدة معها سرتفيكا بتعلم؟».

بقيت جالسة أمامه. سددت كل المسام والطرق إلى عقلي وقلبي. جلس هو واضعاً رأسه بين يديه. سألته إذا هو جوعان، رفع رأسه وقال: «يعني مهتمة فيّ؟» ولم أجبه. بل فكرت أني لن أتحاور معه. وبأني سأترك هنا. لما نهضت، قال: «ومدرسة عمر، وإلا مش فارقة معك كمان؟». أجبت: «بنطر ليخلص هالفصل أكيد». لما شعر بعنادي لعب ورقته الأخيرة وقال: أنا متأكد، بدك تغيّري رأيك بعد أسبوع واحد. العيشة مع أمك مش سهلة ويمكن تتخانقوا ثاني يوم، وأنا هلق مش مستعد إرجع صلّح بيتنا أو اشتري شقة.. الايجارات خيالية». هززت كتفي وقلت: «معلهش مجبورة اتحملها بالوقت الحاضر».

حوارنا هذا مدّني بشيء من الراحة. وبدت الأمور سهلة. وجدتني أتأمله وهو يعبث بغليونه. شعرت بضيقه. وبدلاً من أن أسأل نفسي إذا كنت أستطيع تحمل العيش مع أمي، أخذت أتذكر يوم قررنا الزواج.

كنا على شرفة فندق في بيروت. طاولاته دائما وحيدة، بلا ناس. رغم

أن البحر على أمتار. ما فكرنا يوماً الجلوس في هذا المقهى الشرفة. إلا ذاك النهار، عندما التقيت به في الصباح الباكر، لنقدم طلب تأشيرة للسفر إلى انكلترا لحضور مباريات ويمبلدون. كان علينا العودة إلى القنصلية بعد ساعتين لأخذ جوازينا.

البوظة تسوح رغم نعومة الحرارة. أتأمل الصدأ على حديد الخيمة، أصابص الزهور على شرشف الطاولة. قلت: «يمكن هيدي أول مرة حدا بيقعد هون».

رد باسم وأفكاره بعيدة قال: «لاحظت الأسئلة بالسفارة: شو بتقربو بعض؟ خاطبين؟ أكيد هالأسئلة مشان الفدائيين، أو يمكن لأنو شاب وبنت بيسافرو مع بعض، طبعاً الموظف بدو يستغرب، هو مش أجنبي».

لكني رددت بخجل: «أي، لو ماتاهاري وفيلبي، ما عملو معهم هالتحقيق الطويل العريض، بس منيح اللي اقتنع، وراح يعطينا فيزا».

سألني باسم بسرعة: «تعي نتزوج بلندن».

فوجئت، رغم معرفتي مسبقاً أني حائرة بموضوع الزواج الآن. لكني قلت، وكل ما بي أخذ يدق بالقلب: «شو هالقرار السريع».

أمسك يدي وقال: «لأني بحبك».

أردت بيتاً خاصاً بي. أعود إليه، أفتح الثلاجة. أتناول قنينة بيرة، أسمع الموسيقى على الارتفاع الذي أريده، أجلس وحيدة أو مع الأصدقاء، أتكلم في جو آخر غير جو البيت والعائلة، رغم أن البيت كان مريحاً. الجو الذي أوجدته أمي لا يدعو إلا للاسترخاء. الجميع يحب زيارة بيتنا. والسهر والأكل فيه. الطعام دائماً شهي، المشروب سخي، وأمي محدثة، وتريد أن تكون محور الجلسة، دون أن تتعمد ذلك. تنتظر سماع الاستحسان بتواصل، سواء على الأكل، أثاث البيت، الفستق الحلبي، ثم لتصفيفة شعرها، حمرة شفاهها، تايورها، أحذيتها الغالية. الاحتفاظ بشبابها، وقلة

التجاعيد، رغم سنيها الخمسين، ولمرحها وأفكارها الحديثة، ومتابعتها للقضايا السياسية، وما يحدث في العالم.

في الوقت نفسه، لأنها كانت تشعر أنها تسرق المشهد مني دون قصد. كانت تبالغ في إطرائي أمام الجميع وفي انتقادي وأنا معها. عن اللون الذي لا يناسبني، عن ضرورة وضع الكريم على كوعي ذراعي، وركبتي، وقدميّ.

- ٨ -

على روزنامة الحائط، وفوق تاريخ ١٦ حزيران، شنفاه حمراء مطبوعة. موعد سفري. منذ توتري ما استطعت التركيز في إعداد الحقائب. لن أندم على خطوتي هذه. إزاء الحالة الأمنية في لبنان؟ العيش مؤقتاً مع أمي؟ بعدي وعمر عن باسم؟ وتأثير هذا البعد على عمر؟ وكان يختفي هذا التوتر ما إن أركب السيارة ويأخذني سعيد في الطرقات المحفَرة، وفي الشوارع العريضة الفارغة إلا من الاسفلت والأسوار العالية. أسأل نفسي وضجر الصحراء، هل دخلت هذه البيوت قبلاً؟ هل أعرف هذه المرأة؟ طبعاً، يمر في الخيال البيت، الأباريق النحاسية، والتي أصبحت كماركة مسجلة في كل البيوت، المنافض النحاسية الحمراء. كيف استطعت تحمل سماع هذاالحديث من فم هذه المرأة، كيف فكرت بدعوة تلك، وتذكرت ذاك الموعد بأهمية؟

بعد هذا الظهر اضطررت للذهاب إلى بيت أنغريد، بعد أن جاءت هذه بنفسها تدعوني. لما خرجت، عصافير مهاجرة بالمئات، زرقاء البطون، برتقالية الأجنحة، تمر في جو الصحراء وتبتعد كمن تلسعها النار. العشب يموت في حديقة أنغريد. الدفعة الجديدة من ميال الشمس تعلو. القديم هرّت بزوره، وجفت أوراقه الصفراء.

أنغريد تبكي لم تستطع شراء هدية لأمها في عيد الأمهات. مواعيد

الصلاة تتبدل بموقع الشمس، والدكاكين والمخازن تقفل. ميرا تجلس حزينة، تنتظر إحداهن أن تسألها ما بها، حتى تصف لهن الرجل الذي حاول الاعتداء عليها وهي تنشر الغسيل على الجبل في الحديقة: «على رأسه قلنسوة مزخرفة بخيوط الذهب والفضة والأحجار، على كتفه شال مزخرف. ويرتدي البنطلون والسترة الواسعة من القطن الليلكي. في قدميه نعال ذهبية يرتفع بوزها عن الأرض، كالصنادل التي ترسم في أرجل جن مصباح علاء الدين». قاومته وردَّته عنها. دخلت توصد خلفها الباب وهو يحاول دفشه. جرَّت الكنبات، ألصقتها بالباب. جلست على واحدة، ترفض فتح الباب لساعات، رغم سماعها لصوت زوجها وطفلتها. تقاطعها أنغريد قائلة بأنها وهي تنكش حديقتها مرة، رأت قدمي رجل. من نعاله عرفت أنه جاء يعتدي عليها. مدت يدها إلى المقص قبل أن تنهض وتواجهه، وكان الرجل سعيد، يحمل لها صحن تبولة.. من عندي.

تسأل مريم: هل الرجل الذي رمى الفتاة السورية الشقراء الجميلة بماء الأسيد ليحترق القماش ويرى فخذيها، أم لأنه متدين؟

كنت بعيدة عنهن. يدق قلبي خوفاً من البقاء، وأنا أتذكر جواز سفري وعمر الذي كلما أرسله باسم لأخذ تأشيرة خروج أعيدا إليه، لفقدان طوابع السفر الجديدة التي لا تزال قيد الانجاز. الطائرات التي تأتي بالركاب تعود فارغة.

عند الباب الحقائب مقفلة. الصناديق أيضاً. أصعد إلى السطح لأتأكد من أن عمر لم يترك شيئاً. بيوت الحمام فارغة، الحب على الأرض، أطباق الماء بدلت لونها الرياح، وكساها الغبار بطبقة ثخينة. أقف عند سور السطح، كما كنت أقف دائماً، وعمر يقود دراجته، أتمطّى وأنظر إلى الطريق، وعمر يذكرني بأني دائماً أتمطى كلما وقفت على السطح ويسألني ماذا أرى؟

كأني اللحظة، وأنا أنظر إلى أسفل ولا أرى شيئاً أشعر بالندم يزداد، لأني عشت هذه المدة كلها هنا، كانت أياماً طويلة، أياماً طويلة، لم تترك

أثرها بين كثافة شعري سوى شعيرات قليلة، رمادية وبيضاء، وتجاعيد خفيفة عند العينين والجبهة. شبهت نفسي بدفتر أوراق سينما، تنازع أوراقه المزدحمون على شباك التذاكر وبقي بجلدته فارغاً. الوقت الذي هدر في حفلات الشاي والكلام والركوب في السيارة والقفز في مقعدها الخلفي، ومكيف الهواء والبرودة، حين أسأل سعيد أن يقفله، يزداد النفس، تعبق السيارة به، وكأنها عربة قطار لازمها المسافرون أعواماً طويلة. الدوران في حلقة أشخاص أراهم كل يوم كما كانوا البارحة. كأنهم أدخلوا في قدر محكم الإغلاق. استمدوا الحياة من البخار المتصاعد في جدران القدر الحامية. لا يتنفسون سوى حرارتهم. بينما النار الخفيفة تشتعل تحت قعر القدر.

قال عمر: «جيبتك عم تخشخش ماما، معك علكة أو شوكولاته».

«يا ريت حبيبي»، وأنا أسحب أوراقاً صغيرة عليها عناوين. أمزقها قطعاً صغيرة صغيرة، أرميها على الأرض. «ليش خزقتيها ماما؟».

ما لح شوف حدا من كل ها العالم.

«ما فهمت».

«عناوين..».

يسأل بإلحاح، وبانزعاج:

«يعني ما لح نشوف الست وفا بعد، ولا ديكها؟».

«أكيد لا» فكرت. لكني قلت وأنا أمسح شعره بيدي:

«أهلها عايشين بلبنان، ولما نزور أهلها منشوفها».

في آخر مدة أخذت الست وفا تصحب المقشة كلما دخلت الحديقة تضرب بها الديك حتى يغيب عن رشده دقائق ريثما تضع الحب والماء وتأتي بالبيض. في آخر الشهر، ذهبت لأحاسبها، وسمعت الست وفا تحكي عن الديك: «شرّاني كتير». صديقتها قالت: «يللا اذبحيه، واحشيه رز وصنوبر، اسم الله عليه، كبير، يمكن ما يفوت بالفرن». صاح عمر: «لا ست وفا لا، حرام».

لكن الست وفا قالت تطمئنه: «بس إنت بتحب تربي أرانب وعصافير يا

عمر، ليش زعلان؟» ردت صديقتها وهي تحدث صوتاً بلسانها: «بي الأرانب شو طيبين، بيقرقشوا، خصوصاً الصغار، بتحمريهم وبتطفيهم بالثوم والحامض، أكلة ما بتنتسى».

نهضت في الصباح تعبة، لم أنم في الليل جيداً، وما استطعت أن أنسجم مع قبلات باسم. السعادة مع التوتر مع اللهفة للسفر. نظرت إلى السرير. تتراءى لي نور خيالية. تتخطى سور بيتي. في السيارة أحملق كثيراً في البلدة التي لن أراها بعد اليوم، رغم أني اتفقت وباسم بأن أزوره مع عمر مرة، بين زيارته إلى لبنان. كأني قادمة لتوي ألاحظ الأسوار. كل بيت له سور مختلف. من الرخام، من الاسمنت، من الأحجار الطبيعية، كأحجار الجبل. من البلاط، من حجارة المعامل، المزخرفة، البسيطة. سور على شكل قناطر، من علو السور لا يرى إلا خزان البيت. على السور حجر ربط بأغصان خضراء. تتدلى من سور آخر أشرطة كهربائية، أشرطة تلفون، لا شيء، لا بناء ينتهي تماماً. أسوار عالية، الجديد منها أكثر ارتفاعاً. بعضها ملون، بألوان جميلة. كأنها لبيوت هادئة، ساكنة. وجدت نفسي أقول لباسم:

«بتعرف هي أكثر شيء ضايقتني هون..».

سألني باسم: «مين نور؟ سوزان؟ أنغريد؟».

«لا، السور، يضايق الخلق».

حين لم يجبني، عرفت أني من جديد أتحدث كأبطال القصص والمسارح.

أرى بعض المارة من الرجال. امرأة في الأسود. أفكر بنوع من الخنافس السوداء، التي تدق بجسمها كل النهار، والليل، عندما تشعر بحاجتها للجماع.

أجلس على مقعد في المطار، عمر يحمل قفص الكنار، فرحاً يشرح له كل شيء، أتنهد ارتياحاً. كأني تركت الأفكار والتوتر خارج هذا البناء. أشعر أني إنسانة طبيعية، لم أعد سهى الصحراء، وسهى المدينة. أجلس قدماً على قدم. ألاحظ الناس، وأنا أنتظر موعد الإقلاع. ارتديت لأول مرة كما أحب، ألواناً متنافرة، تنسجم مع قامتي، ووجهي وشخصيتي. حلقة واحدة طويلة تتدلى من الأذن. شعري يتدلى على الكتف. بلوزة من غير حمالة.

سعيد هو الذي سأشتاق إليه. رغم توتري هذا الصباح وعدم ابتسامتي، كان عادياً، يؤكد لعمر أنه سيراه قريباً. يسأله عمر ببراءة: «بدك تجي عبيروت، بتعرف بيت تيتا؟». ردّ سعيد وهو يضحك، يصلح من فوطة رأسه: «ما تخاف يا عمر، أنزل من الطيارة في مطار بيروت، واشمشم مثل الكلب، وأسأل على بيت عمر ومدام سهى وألاقيكم» ثم يخبرنا عن سفره إلى القاهرة مرة، واستفساره عن مهندس كان يأتي إلى المطعم ويشتري منه اللحم. «باش مهندس قد الدنيا، طيب الأخلاق، في القاهرة، الحكاية طويلة. سأل بائع الجرائد، الذي دله على صاحب مغسلة ابنه يعمل مدرساً في الصحراء. قطع سعيد الطريق وسأل صاحب المغسلة والتقى بالباش مهندس الذي فرح بسعيد، غير مصدق، أنه وصل إليه مخترقاً الملايين». أنهى حديثه فخوراً: «أخذني الأهرامات، وجنينة الحيوانات، وبيت ست، إخواتها دقاقات وراقصات».

لا أعرف لماذا فكرت فجأة بفاطمة، زوجة معاذ، وبابتسامتها وهي تحمل ابريق القهوة، تنتظر بالفناجين سوزان ومعاذ.

مددت رأسي، أنظر إلى الأسفل، أرى سوراً شاهقاً يحيط البلد.

تحفظها من الرمال المخيفة . تراءت لي الصحراء، كما رأيتها أول مرة، رمالاً ونخيلاً، حياة، محورها الإنسان الذي بلا أشياء ولا جوانب . فقط على عقله أن يخترع ما يجعل دقات قلبه تسرع، أو تظل تدق بنظام . أن يبحث بنفسه عن البريق المدفون، وأن يعرف كيف يتعامل مع فصلين بدل الفصول الأربعة .

نور

كل شيء نائم. المياه في المسبح. بيت الغزلان. لولا ثوب صالح على الأرض، كذلك غترة رأسه البيضاء. لما صدّقت أني فعلاً ارتديتها. أنا محظوظة، لأني في السرير ولست في الطريق ألهث. رغم أني لا أزال أرى نفسي أسرع الخطى. ولم أحسب حساباً للقمر، الذي كان كبيراً والذي سلط نوره عليّ وأنار الطريق، حتى بدا بيت سهى كأنه مضاء.

وأنا أقف أمام باب بيتها، لاحظت أن اضطرابي الذي ما عهدته من صفاتي يزداد، وأن السبب الذي فكرت في التذرع به أمامها وأمام زوجها، تبخّر فجأة. وما استطعت تخيل نفسي عائدة وأنا أنظر خلفي إلى الشارع، بل استجمعت شجاعتي فجأة، بعدما مرت ببالي فكرة وجود سهى ضمن هذه الجدران. ووجدت نفسي أفتح باب الحديقة الخشبي بسهولة. أقف على الطاولة، بعد أن أزحت ألعاب ابنها، أفتح بيدي نافذة الحمام الصغيرة، أنوي التسلل كما يفعل ابنها، رغم أن ثوب صالح والغترة تعوقان من خفة التسلل، وجدت نفسي داخل النافذة شيئاً فشيئاً، ثم لتلامس قدمي حافة البانيو. لما أصبحت كلي داخل الحمام، وقفت أتنصت، كان البيت ساكناً، ومكيفات الهواء تهدر محدثة ضجيجاً. واجهت نفسي بالمرآة في ثياب رجل. خرجت من الحمام على رؤوس أصابعي، رأيت قفص الكنار مغطّى بالقماش، فكرت أن أصرخ وأوقظ كل من في البيت واستنجد من الخادم

الذي حاول دخول غرفتي؟. من السائق الذي خطفني في السيارة، لأفتح بابها وأتدحرج على الأرض وأعدو إلى بيتهم؟ أم أن قلبي يضرب وأنفاسي تضيق ولا بد من أن يكشف عليّ صديقهم الطبيب اللبناني؟

أبعدت كل هذه الأفكار وأنا أتصور نظرات سهى، ووجدتني أنسل من الباب بهدوء، وقد تركته ورائي مفتوحاً. أسير في الشارع الخالي، ألعنها وأنا أخطو الخطوة الأولى، ثم ألوم نفسي لأني لم أوقظ السائق حتى يأتي بي، فهو لا بد لاحظ علاقتي مع سهى، ومع الايطالية التي أتت إلى الصحراء بطلب من أمي حتى تنسق لها أزهاراً وأشجاراً اصطناعية. وجدتني أسرِّع الخطى في الشارع الذي ما وطئته قدماي حتى في النهار. أشد الغترة حول رأسي. استعد لتخشين صوتي إذا ما صادفت أحداً. مع كل خطوة مسرعة أخطوها، تزداد كراهيتي لسهى، لو كشف أمري، فُضحت وظُن أني ألاقي رجلاً.

ولأول مرة، أحببت رؤية سور بيتي من بعيد، واللجوء إلى غرفتي، لكني سرعان ما نسيت الخوف الذي تسلط عليّ في الشارع، إذ عادت سهى تهيمن على فكري. كثيرون هم الذين هيمنوا على فكري، وكثيرات، إنما لوقت قصير، وقبل أن أتعرف بهم. إلا سهى فأنا دائمة الهذيان بها، ربما لأن اهتمامها بي اختفى بعد لحظات من تعارفنا في المسبح. كانت شاردة، وإذا توقفت عن شرودها فلتتأفف ولتزفر ضيقاً. حتى لما أخذت تتردد على بيتي كان ذلك من جراء إلحاحي، فاتصالي بها كان دائماً ولجوجاً. وما شعرت مرة أنها تحسدني على مجوهراتي أو ملابسي، إلا مرة واحدة وعلى البيسين فقط، لما قالت إنها تتمنى لو أنه في حديقتها، ثم عادت لتتراجع وتقول، إنها تفضل نقطة ماء خارج الصحراء على هذا البيسين.

ظننت في البداية أنها تتصنع هذه اللامبالاة، فأنا ما صادفت أحداً إلا جذبته شخصيتي، وطريقة حياتي أو حتى شعري، أو بيتي وما فيه من مسليات. بل أخذت تنتقد كثرة الخدم، وصوت الفيديو، والفوضى، حتى الغزلان قالت عنها أن لا حياة ولا جمال في عيونها، ولا سحر كما هو معروف عنها. وكانت تضحك ساخرة مني، حين تسألني أين أنا ذاهبة، وهي تتأمل

ملابسي وأجيبها: في البيت. وما عرفت مدى كبريائها، إلا لما رفضت هديتي لها، حتى عندما عدت أرسلتها لها مع السائق. وكانت تغادر كلما تأخرت في الحديث في التلفون في حضورها. عندها كنت أصمم على أن أتركها وشأنها، مذكرة نفسي بالأشخاص الذين يلاحقونني، ويحيطونني، لاكتشف أني أفضل أن ألهث طوال الوقت في الوصول إليها، إذ سحر رفضها كان عظيماً يشبه الشعور وأنا ألحق بقطتي الهاربة من قبضتي وحبي، حين أكمشها كان يفيض بي الشعور لألقنها درساً لا تنساه.

أتمنى لو تأتيني هذه اللحظة، أو إذا كنت صريحة، أتمنى أن ينبت إنسان هذه اللحظة، يأخذني بين ذراعيه حتى أول خيط تفرده الشمس. لكن السكون كان يزداد..

أدير رقم تلفونها، أتركه يرن، وما أقفلت السماعة، حتى وأنا أسمع زوجها يردد: ألو. ألو. أردت أن أسمع صوت أنس، فالصباح ما أطل بعد، وأنا خائفة من أن أبقى وحيدة، كأن الصوت الذي يردد: ألو. ألو. أعطاني الحياة من جديد رغم نبرته الجافة. ووجدتني أنهض، آتي بحبة من الحبوب البيضاء التي وضعتها في علبة في الدرج، بين أقلام الحمرة والكحل، انتبهت إلى أن لونها ما عاد ناصعاً. أخذت أبحث عن واحدة نظيفة، وما وجدت. أبلع الحبة، لا أنتظر الوقت الكافي لذوبانها في جسمي. أفتح المرآة، قرب سريري، وأخرج منها الهاتف الأبيض، الذي لا يعرف بوجوده سواي وموظف التلفونات الذي تقاضى مبلغاً كبيراً من أجل الاتيان بالخط السريّ وتركيبه. أدرت رقماً، ليأتيني الصوت الذي حفظته، وكان نعساً هذه المرة، لكنه ما أن سمع صوتي حتى أجاب بلهفة: «مش معقول». وكنت قد توقفت عن الاتصال به منذ أيام، لأن هذا الخط كان معطلاً، وما شئت المجازفة والتحدث في الخطين الآخرين. لهفته كانت واضحة، إذ لا شعورياً وعد نفسه بمكافأة، كنت كلما سمعته طلبت المزيد. وكما توقعت، أتتني حماوة الصوت عبر السماعة، فاستأنست لأخباره، وكنت قد حفظت عاداته، وماذا يفضل من أفلام الفيديو، ومن معرفتي عن تفاصيل حياته، بنيت له شكلاً في مخيلتي.

«فين هذه المدة؟ ذاب أصبعي وأنا أحاول اخترع رقمك، لازم تعطيني رقمك للطوارىء».

فكرت قبل أن أجيبه: «كنت مسافرة» بأن المسكين حقاً لا يعرف من أنا. كل ما يعرفه أني أحب وردة الجزائرية، إذ غناؤها تسرب إليه ذات مرة، وبأني لا أحب الوحدة. كنت استحلفه ألا يقول لي تصبحي على خير بعد ساعة من حديثنا. بل أن يتحدث ويتحدث، رغم إغماض عيني وعدم إجابته. وصل حديثنا كالعادة إلى الاشتياق، إلى الحب، وأخذت أفتعل بأن صوته يخرق الحواس فأزيد من دلعي وأسمعه تأوهاتي. ولا أكف إلا لما اسمعه يتهدج وكأنه يعصر صوته. عندها أتمنى له ليلة سعيدة، أعيد التلفون إلى مكانه كالمسحورة. فرغم تسليتي وتوقي إلى هذه العلاقة، فهي تدهشني. كلما فكرت إلى أين يؤدي صوتي. وكيف يشدني صوته إلى محادثته دون ملل بل ويتركني أترقب اليوم التالي.

تدخل غرفتي ابنتي بعد الظهر، ترمي كتبها على الأرض، كذلك عباءتها السوداء. تسرع إليّ وأنا ما زلت ممددة في سريري منذ ليلة البارحة. تنفجر باكية: المعلمة قاصصتني؛ أجبتها: «معلهش» وكأنها حزرت لهجة اللامبالاة، إذ أخذت تهزّني وتكمل، وأنا أهز رأسي متصنعة الاهتمام. إلى أن صرخت بها متأففة: «سمعتك، سمعتك».

ركضت غادة خارجة. فكرت في اللحاق بها. لكني بقيت مُمَددة. فكرت في أن أتصل بمن يأتي لي بزجاجة مشروب. لكن وجدتني أتصل بسهى. ولما أجابني صوتها وهمست: «سهى؟» خبطت السماعة في وجهي ثم اتصلت بسوزان صديقتها الأميركية، وسألتها إذا كان عندها بطيخ أو حلوى. ولمّا أخيراً فهمت ما أقصده اعتذرت. نهضت من سريري، الضجة في الصالونات وأينما كان تفوق صوت الفيديو الذي اختلط بموسيقى فليبينية. كأن الخدم نهضوا من قيلولة بعد الظهر، ما رفعت يدي عن الجرس إلا لما أتتني القهوة. وأنا أشربها فكرت: ماذا عليّ أن أفعل بقية هذا النهار وهذا الليل؟ اقتربت من غادة التي كانت عيناها وأنفاسها امتداداً لفحيح أصوات

مايكل جاكسون. أصبحت مدمنة هذا الفيلم تراه عشرات المرات. وكل مرة تراه بشغف أكبر. ذكرتني بنفسي وأنا صغيرة عندما كنت أجلس وحيدة مع مربيتي الصومالية، نرى الأفلام العربية والأجنبية بتواصل. ما كان هناك فيديو بل شاشة بيضاء على الحائط وبروجكتور. يديره لنا الخياط الذي استقدمته أمي أيضاً من الفليبين. لا بد من أن هذه الأفلام كانت تحرك شيئاً ما في الخياط والمربية، إذ لما نهضت أفتل في البيت ذات ليلة دون أن يأتيني النعس، رأيتهما على أرض المطبخ. أذكر أني وقفت أنظر إليهما دون أن أصاب بالخجل أو بأي شعور آخر. اعتدت رؤية القبلات، ورؤية الرجل والمرأة معاً، في الأفلام وفي بيتنا. فقلما مضى يوم وما سمعت وشوشات، ورأيت جسمين متلاصقين في الظلمة، في النهار، وراء الباب، عند منعطفات بيتنا الكبير، الخدم بين بعضهم، أخوتي والخادمات وبنات خالاتي. صديقة أمي والتي عرفتها من حذائها الأحمر الذي بدا طرفه من العباءة. إذ كانت ملثمة الوجه أيضاً، وكانت مع رجل. وكنت أحزر من هي الحامل في بيتنا من كثرة ما حضرت وحفظت العوارض. فالحامل تنام معظم الوقت، تهرع إلى الحمام وتتقيأ، وهي تقول إنها مريضة في أمعائها ثم تغلي أعشاباً وتوابل لها رائحة جميلة، وتغلي الكمون أيضاً وعشباً من السودان والهند وتشربها باستمرار. ثم لا تغادر غرفتها ليومين حتى تعرق بعد أن تطفىء المراوح في السقف، وتغطي نفسها بالسجاد وبفرو الخاروف. وقتها، كانت تبدو أكثر تعباً ومرضاً. ثم تسف الأسبرو، وأدوية أخرى. وبعد أيام، كنت أسمع صراخاً يفوق الصراخ الذي أسمعه في الأفلام. وأركض حتى أرى المولود. لكن الباب دائماً مقفل، فقط لما تخرج أمي كوكب، كنت أدخل الغرفة وأرى الخادمة تتلوى على الفراش بلا مولود.

أمي كوكب هي قريبة أمي أو والدي لا أعرف، وعيت عليها تزورنا في المناسبات عند حمل خادمة أو مرض أحد، في الأعراس، يوم الحنة، تزغرد يوم تنظيف الجسم كله من الشعر وتصرخ بالمرأة المتألمة المتأوهة تسكتها قائلة: «بأن الغوى عايز قوى». هي موجودة عند تحضير الطعام الخاص المدفون تحت الرمل وعند ذبح الخرفان. حتى أمي كانت تناديها بأمي

كوكب، وهي الوحيدة التي كانت تتجرأ وتدخل غرفة أمي. ثم انتقلت أمي كوكب لتعيش معي لما أصبح لي بيت خاصتي وأنا في الثالثة عشرة. رغم وعود والدي وأمي بالبيت حين أتم السابعة عشرة. لكني ما استطعت الانتظار، وهما ضجرا من إلحاحي. وكان والدي كلما حضنني قال: «والله باني لك بيت ولا كل البيوت». وكنت أشعر بالزهو وأسأله: «مثل بيت أخوي جلال وأخوي حميد؟».

كان يجيب: «طبعاً أنا ما عندي بنت وولد، كل أولادي خير ومثل بعض». كان حول بيتنا أرض شاسعة، بنى فيها والدي بيتاً للخدم الرجال، وبيتاً لأمه، وبيتين آخرين لكل من شقيقيّ، وبيتاً لأختي المتزوجة في منطقة أخرى، حتى إذا ما زارتنا نزلت به.

ثم يضيف: «عارفة النخلة الكبيرة؟ تماماً لصقها». ولا أعرف لماذا وددت أن أجيبه بأنها قريبة للبيت، يا ريت أبعد حتى كون لوحدي تمام. وأمي كانت تقول لي: «فارشتلك بيت يا نور، متمم وشرعي». وكانت دائماً تدلعني وتفيض عاطفتها، وهي تجعلني أقيس أمامها الملابس التي تأتيني بها من سفراتها أو تشتريها من هنا. وكانت كلما لاحظت طول شعري الذي وصل حتى فخذي تهمس في أذني وهي تدلني على بطنها: «شوفي هذا شو طلع منه، أحلى البنات». وكانت أمي من أوائل النساء اللواتي سافرن واكتشفن الحياة خلف الصحراء. وعدن محملات بكل ما تنتجه البلاد الأخرى. وأنا اعتدت على عدم وجودها في البيت أو بالأحرى عدم رؤيتها. فهي إذا لم تكن مسافرة أو في زيارة لصديقاتها تكون نائمة، أو تتحدث على التلفون مع صديقاتها. منذ الصغر، وعيت عليها تنتقد والدي وسهره مع أصدقائه، وأحياناً تتحدث عنه بقهر، وتبكي أمام أمي كوكب. ولا تغادر غرفتها النهار كله. لكني، لما كنت أراهما معاً كنت أنتظر ابتسامتها ومودتها له، ومناداتها له: «روحي، حبيبي».

أذكر أن ومضة فرحتي بالبيت خاصتي سرعان ما اختفت بعد أيام. ضجت من القلوب الحمراء التي لاءمت غطاء السرير والمخدة التي كانت قلباً

كبيراً أحمر، حتى الكراسي نقشت عليها القلوب الحمراء، ولا يجب أن أنسى الستائر. استقدم والدي رسامة من أوروبا لترسم هذه القلوب. دامت فرحتي بها أكثر من فرحتي بالقلوب. وظننت أنها ستعيش معي إلى الأبد. أذكر كيف دخلت الرسامة ذات مرة البيت بعد أن رافقت أخي إلى الصحراء كمن مسها الجنون. وأخذت تعد شنطتها بعصبية وهي تبكي. حزرت أمي كوكب ما جرى وسمعتها تقول ضاحكة لأخي وكان ما بلغ الثالثة عشرة لما رأته: «ولك عجوزة؟ وأنت اسم الله عليك شاب مثل الهاون» أجابها ضاحكاً: «هي اللي بغت تروح تشوف الصحراء في الليل».

وقتها أسرعت إليها، أرجوها وهي تمسك بالهاتف تطلب رقم بيت أهلي، وما أعادت السماعة، إلا لما رأت دموعي. ما كنت أفكر في القلوب التي ما اكتمل رسمها بعد على الحائط، بل في التسلية لمجرد وجودها في البيت، فأنا ما عدت أجد التسلية مع الصومالية أو مع أمي كوكب وما عدت استمعت إلى قصصهما، فقد بدأت أماشي الحياة خارج الصحراء، في القاهرة أو في باريس، من خلال سفراتي مع العائلة، أو مع ما تأتي به أمي من سفراتها. أخذت أعرف كل الموض وتقاليع الشباب والأفلام. والمغنين والمغنيات وأغانيهم، المشهورين والمشهورات في المجتمعات العالمية، وما كان يكفي إلمامي بها، بل أخذت أستحضرها بطريقة ما. كنّا ننتظر مناسبة الأعراس في العائلة لنحرض الكبار على طلب مطرب، أو مطربة مشهورة من القاهرة. فما أن يلبي أو تلبي الطلب، حتى نتزاحم جميعنا إلى إقامة الحفلات، وتقديم الهدايا، ثم الملاحقة المتواصلة، نستجدي كلمة حب ثم لمسة، أو قبلة، لنكتشف أن الهالة التي تحيط بهما، تضعف حتى تختفي. إذ هما يبتدئان بملاحقتنا، أو بملاحقة هدايانا. أذكر الممثلة التي استعارت حلقاً من الألماس وما أعادته، ولما طالبتها به أمي كوكب أخذت تتصنع البحث والخوف والارتعاش وإعطاء أمي كوكب كل ما عندها من مجوهرات. وما كانت هذه التفاصيل تقف في طريق دعوتنا للمشاهير. بل كنا دائماً نود التعرف بالذين ما تعرفنا بهم بعد. حتى الكتاب والشعراء زادوا من فضولنا. وأذكر كاتباً كان يبادر كل منا بتلك الجملة: «إزّيك وحشتيني». ليعد كل واحدة بأن

يكتب عنها قصة، وما كنت قد قرأت له أياً من قصصه المشهورة، بل رأيتها أفلاماً. ما كنت أحسن القراءة جيداً، مع أني ذهبت إلى المدرسة، إلا أني ما استطعت المداومة. كان نومي ثقيلاً، كذلك نوم مربيتي الصومالية، ربما لأننا كنا نسهر حتى الساعات الأولى من الصباح ولا يوقظنا المنبه. حتى لو نهضت في الساعة المعينة، كنت أتأخر وأنا أختار ماذا أرتدي، وماذا آكل، ثم وأنا أبحث عن كتبي. كأن الوقت يجب أن يكون طوع إرادتي. وإذا كنت حاضره في الوقت، لم أجد السائق في السيارة. وإذا نادته المربية، جاء بعد وقت مهرولاً حافياً، يعرك عينيه من النعس ليقود السيارة بطريقة جنونية. ثم اتفقت صديقة لأمي مع احدى معلمات المدرسة وكانت من لبنان، على أن تدرسني بعد دوام المدرسة حتى ألحق صفي. فرحت بالمعلمة، تسليتي بها أصبحت عظيمة، إذ أحياناً بدلاً أن تعلمني رضيت أن نركب الدراجة معاً، وأخذت تضفر شعري، كما في المجلات. وما توقفت عن المجيء إلا لما حاولت رؤية أمي لمدة أشهر من غير أن تنجح، ولما انتظرت طويلاً ولعدة مرات قبل أن يفتح لها البوابة الخارجية.

وفرحت. إذ هي ما توقفت في الفترة الأخيرة عن التدخل بشؤوني وإعطائي المحاضرات عن خطأ تربيتي وعرفتني بكلمة «نزقة». وأخذت تنتقد فوضى بيتنا وتهز رأسها متأسفة لكل شيء، حتى لأوائل المطبخ التي أعجبت بها، وقالت عن مطبخنا إنه كمطابخ الفنادق الفخمة، وإننا نلحق به الأذى، وحتى إنها حاولت الشرح للطباخ ولبقية الخدم كيفية استعمالها. وأخذت تنصحني بأن أعود وأسكن في بيت أهلي، وبأني لست بحاجة إلى سيارة، وسائق خاص، ولا إلى الطباخ، ولا إلى أمي كوكب، بل إلى أمي ووالدي وإخوتي. ولما كنا نتأخر عن الدفع لها، كانت تأبى الذهاب، قائلة إن الموضوع ما هو المال بل المبدأ، وكانت تجعلني انتظر معها نهوض أمي كوكب من نومها أو ريثما يذهب السائق إلى مكتب والدي ويعود بالمال حتى إنها أصرت مرة على الاتصال بأمي رغم قولي لها أكثر من مرة إن أمي لا تحب إيقاظها من قيلولة بعد الظهر. حنق المعلمة ازداد، لأن أمي كانت تسحب فيش التلفون وكانت تقفل غرفتها من الداخل. أخذت

تلومها قائلة بأن أمي لن تعرف إذا حصل لي أو لإخوتي أي مكروه. تاه عن بال المعلمة أننا نستطيع دق الباب. رغم أننا ما تجرأنا على دقه مرة واحدة. وأخذت تنعت أمي بأنها أنانية وجاهلة.

وبناء على طلبي أرسلني والدي للدخول في كلية خاصة للبنات في القاهرة أسوة بالكثيرات من الصحراء. لأكتشف أن الحرية التي ظننت أني نلتها بالصحراء لا تقارن بحريتي في القاهرة. مجرد سيري في الشارع على الأقدام كان حرية، فكيف سيري بلا عباءة؟ وما عادت الحرية في إدارة أي رقم تلفون والقهقهة وبث كلمات الحب وحثّ السائق على اللحاق بالسيارات الأخرى أو التحرش بالبائعين العرب. حتى القبلات وأحياناً الأشياء الأخرى في السيارات والتي تعد على الأصابع ليست هي الحرية، بل الحرية هي القاهرة والتي كانت لها ذراعان مفتوحتان حتى بعد الأفق.

- ٢ -

أخذت أفكر في الزواج منذ عودتي من القاهرة. رغم ترديدي مسبقاً بأني لن أتزوج قبل أن أبلغ العشرين. أمي كوكب تزوجت وهي في الثانية عشرة، وأمي وهي في الرابعة عشرة. أردت أن يكون لي زوج، وأن يقام لي عرس وأصبح سيدة نفسي. رغم أني سيدة نفسي الآن آمر وأنهي، إلا أني ما زلت أطلب أن يؤذن لي بالسفر. وكانت أمي تنسى أنها وعدتني به فتسافر وأنا أغط في النوم في بيتي، أو أسافر معها بصحبة صديقاتها، وأضجر من الفترة الطويلة التي نقضيها في الخارج إذ سفرنا عبارة عن المطاعم والملابس والقهقهات. عدا أني كنت أود التعرف بالكثيرين أثناء الحفلات التي تقام في الليل، والتي لا أجرؤ على حضورها من غير أمي ووالدي. وأصبحت وكلي آذان وعيون. لا أرى إلا الرجل أتأمله وأسأل نفسي إذا كان يناسبني. ولما رأيت سامر عرفت أنه يجب أن أتزوج به. كان يكبرني بثلاث سنوات. كنت في السابعة عشرة. وهو سمع عن الموتوسيكل الذي استقدمته وكنت أقوده بين بيتي وبيت أهلي وبيوت أخوتي. إذ كانت هذه البيوت والجنائن محاطة بسور عال لا يرى منه سوى رأس النخلة. جاء سامر مع أخي ليرى الموتوسيكل بعد أن قررت بيعه. كنت أرتدي جاكيت جلدية، وبنطلوناً جلدياً وأضع على عيني نظارات سوداء. عرفت من طريقة امتطائه للموتوسيكل، ومن ساعة يده والسوار التي تحيطها بأنه مودرن، وأنه يليق بي. وأخذت ضرورة إعجابه بي واقعاً، فأنا جميلة، من الشرق، أخذت سواد شعري وطوله وسحنتي الفاتحة

الاسمرار. ومن الغرب ملابسي وكل ما هو حولي. ووجدتني أنظر إليه بطريقة أحرجته، ووددت لو أسأله أن يتزوج بي، لكني استمهلت نفسي وأخذت أحادثه وألاحقه في التلفون، حتى قررنا الزواج. وكان هو نور، الرجل. يحب التعليقات، وكل ما تصوره الحضارة. من آخر موديل سيارة إلى أدوات التزلج، إلى سيف علي بن أبي طالب من الاستينلس ستيل الياباني الصنع، إلى كرسي أثري من الأوبيسون، إلى نوع من عسل يوجد في أعلى التيبت، إلى حقيبة يد مصنوعة من جلد النعامة. وكان يتفنن حتى في الثوب الأبيض، فيرتدي الثوب الأزرق، والرمادي والفستقي، وإذا سافرنا، ارتدى أجمل الأطقم وأغرب ربطات العنق. كانت التسلية في بيتنا عظيمة، إذ يجتمع كل ليلة أصدقاؤه وصديقاتهم من ممرضات إلى مربيات حتى زوجات، وكن عربيات وأجنبيات. نرقص ونغني ونأكل ونرى الأفلام حتى الفجر. وننام حتى بعد الظهر. وما كنا نبتدىء السهرة قبل الحادية عشرة ليلاً. فنسبح أو نذهب إلى الصحراء، فيقود الموتوسيكل ويقفز عند تلة صغيرة طبيعية أو يقيمها له صديقه وليد الذي اعتدت عليه حتى أصبح يتممنا. ذاع صيت سهراتنا، لدرجة أن أخذ كل من يشعر بأنه ينتمي إلى عقليتنا وعنده ما يقدمه لتسليتنا أو ليتسلى كان يأتي بواسطة صديق. لنكتشف أن الصحراء تكتظ بمن يطلبون التسلية. من الذي يقلّد الممثلين، إلى الذي يعزف على القيثارة ويقلد ألفيس برسلي، إلى الذي يقلد المرأة وهي تلد، إذا أنجبت صبياً تدلعت، وإذا أنجبت بنتاً، أوهمت الموجودات بأنها تعاني من الألم الشديد ويغمى عليها. ولما كنا نعتاد على هؤلاء، كان الأصدقاء يأتونا بأصحاب العاهات الخفيفة، كالذي يتأتىء وبخفيف العقل الذي حدته كانت تضحك. أحدهم أتى بالقرد الذي يحب المشروب، وكنا نلتف حوله ندلق في جوفه الويسكي لنراه يقفز في القفص ويصرخ..

وما عرفت أن سامر يحب جنسه أيضاً إلا أثناء إحدى سفراتنا، لما فضل البقاء في الفندق على الطواف معي، ولما لقيته مرة لتناول الغداء ولم يكن وليد معه، شعرت بتوتره. ولما سألته إذا ما اتصل به أحد من بلادنا، إذ كنا دائماً نخاف أن تصل أخبار سهراتنا وجنوننا إلى الصحراء. حتى في سفراتنا

كنا نتعرف بمجتمع النوادي الليلية والفنانين ما أجابني. سألته عن وليد، وعندها رأيت عظمتي فكيه تتحركان من كثرة ما كزّ على أسنانه. ولما أطلّ وليد وجلس وهو يعتذر، كانت نظرة زوجي إليه نظرة خاصة. لكني فهمت معناها. فهمت بعدها الاستفسارات والألغاز والغيرة. حاول اخفاء شعوره لكن وجهه وأعصابه فضحتاه. ووجدتني اكتشف زيف رغبته عند مضاجعتي إذ كانت رغبة خيالية ومتواصلة تفتر معظم الأحيان في منتصفها.

كان وليد جذاباً لدرجة أني أحياناً كنت أود لو يشد على صدري ونحن نرقص معاً. وكان إلى جانب وسامته خفيف الظل، سريع الخاطر، حكاياته وأخباره ونكاته عن بلده المغرب لا تنتهي. عندما اكتشفت ما بينه وبين سامر ضحكت وأنا أفكر في الكثيرات اللواتي كن يغازلنه ويتصلن به مباشرة أو من خلالي. وفكرت إذا كان هو كزوجي يحب الجنسين، وأخذت أخطط لمعرفة ذلك.

وما كنت قد فكرت في الطلاق لو لم يرسل سامر من يبلغني به، وكان قد التحق بدورة تدريبية في السلاح البحري في بلجيكا واصطحب معه وليد، وما عرف بأمر طلاقي سوى سائقه الذي أعطاني الورقة، لذلك استفدت من جهل الآخرين، وتصرفت كما لو أني متزوجة وسيدة نفسي لمدة.

كنت لا أزال أفكر في الذين تقدموا لطلب يدي عندما التقيت أخت صالح في أحد الأعراس. لمت نفسي لحظة رؤيتي لها. كيف تاه صالح عن فكري، فهو إلى جانب السحر الذي كان يحيط بنمط حياته وسفره الدائم بحكم عمله، كان جذاباً وذا شخصية مرموقة وبدأت أعرف بأني لن ألتقي من هو مثله. فالشباب المتحضر ما عادوا يثمنون الزواج باكراً وما عادوا بذلك الكبت. يسافرون ويتعرفون ويصاحبون أجمل جميلات العالم. صغيرات في السن، أقرب إلى القاصرات. والذين اعتادوا على جنسهم رغبوا في الزواج والانجاب من أجل المجتمع كسامر. ووجدتني أتحدث مع أخت صالح معظم الوقت، وكانت السعادة بادية على وجهها من كثرة الاهتمام الذي أُحيطها به. فهي كغيرها من البنات. كان عندها الفضول لتعرفني عن كثب،

فجرأتي كانت على كل لسان. فأنا أرتدي العباءة الخضراء والحمراء. وأغطي وجهي أحيانا بغطاء سميك أسود، وأضع عند الفم حلية من الألماس. ووجدتني بعد العرس أتوقف عند بيت أهلي أدخل غرفة أمي مباشرة وأقول لها إني إذا لم أتزوج بصالح، لن أتزوج أبداً. وكنت أعرف كم أن والدي وأمي يريدانني أن أتزوج، لأنهما ما عادا يتحملان نزقي، وتحايلي على العباءة، وسهري، والشائعات بأن أصدقاء إخوتي يأتون إلى هذه السهرات. سألتني أمي إذا أمه أو أخته فاتحتني بالأمر. ولم أجبها. أخذت أتصل بأخته في كل الأوقات كما أفعل مع غيرها عندما أود أن أتعرف بإخوتهن، لربما ردّ الأخ مصادفة. وما أجاب صالح، إذ اكتشفت أنه يعيش مستقلاً عن عائلته. ووجدتني أطلبه في عمله في الوزارة متحججة بأني أخته. ولما لفظت له اسمي، أعطاني نمرته الخاصة. لأكلمه من بعدها يومياً قبل أن نتفق على اللقاء، في بيت أخته الكبيرة المتزوجة، والتي كانت في العرس والتي نظراتها ما شجعت حديثي مع أختها التي تصغرها.

عرفت أن صالح يتمنى الزواج مني. فأنا كما قال لي، يومئذ العروس التي ينشدها. الجميلة والمثقفة في آن. لكني كنت أعرف زيادة عن ذلك والذي لم يصرّح به. وهو أني ابنة الرجل الذي كلما تنفس زادت ملايينه. رغم أن مثل أبي كثيرون، إلا أن حسبي ونسبي كان يفوق بصلابتهما حسب ونسب الكثيرات. وجلست أمامه، أستمد من ثوبه الأبيض وغترة رأسه والمسبحة بين أصابعه هواء الحرية الذي كان يلفحني بنسيم لا يشبه هواء المكيفات. ووجدتني أنتعش، ولا أعود أفكر خارج الجدران. وشعرت وأنا أراقب الأصابع السمراء أن الحياة تجري بينها، وأنه ينبغي لي التشبث بها. بدت كأنها أصابع مارد، والأرض من حوله في قمقم. حتى إني شعرت بقوة تنفر من مفاتيح سيارته التي كانت بين أصابعه وكأنها قادرة على هدم الأسوار كلها وفتحها. وفي الوقت نفسه، أخذت أفكر برغبة شديدة في الاقتراب منه والإمساك بيده وإلقاء وجهي على صدره. وأنا أتعجب من نفسي كيف إني قد فكرت قبل لحظات أن الزواج هو من أجل الحرية حتى أستطيع من خلالها الوصول إلى حب وعشق الآخرين.

وبدلاً من أن يأخذ يدي، أخذ يتحدث قائلاً إن عليّ مساعدته. وما فهمت ما يقصده، فهو ليس في غنى والدي لكنه كان من الأغنياء. وبدلاً من أن أسمع الرقم سمعت حديثاً: إنه هو أيضاً مثلي ومثل الأخريات، يعيش في الكبت، وأن ضغط التقاليد والمجتمع عظيم لكن هذه بلادنا ويجب تحملها، رغم الثروات الطائلة التي تخولنا لأن نهيم في الدنيا، في بلاد تضم الأشجار والبحيرات، حيث أستطيع أن أرتدي فستان الديكولتيه، وأسير في الشوارع، لكن هل يجوز أن تجمع الثروات من بلد، بينما العين والقلب على بلاد أخرى؟

هززت رأسي كمن يقول له اسكت. وتمنيت لو يقرّبني منه، أو لو اقترب منه. ووضعت إصبعي أمر بها على شفتي وقد انفرجتا تنتظران شفتيه، لكنه تابع التحدث، بينما الرغبة في أن يضمني إليه ويقبلني جعلتني أهدس بها ولا أسمع كلامه إلا عندما سألني إذا كنت أسمعه. فهززت رأسي وأجبرت نفسي على سماعه رغم ضيق صدري. أشار إلى رقبتي وعندها استبشرت، ولكنه قال: «هذا العقد، لو ما أجدادك ووالدك عاندوا الحر وجوع الصحراء، لما كان حول عنقك». ووجدتني أجيبه كمن يريد أن يطمئن نفسه: «لكن أنت تسافر كثير؟» ضحك وقال: «أعرف، لكني أفسر لك شخصيتي، حتى تفهميني وتساعديني لما تفهمي بلدك وتقدّري العيش به».

- ٣ -

الاختلاف الذي جذبني إلى صالح بدأ يضايقني. يجعلني عصبية. ويجعل رأسي عنيداً كالصخر. منذ لقاءاتنا عند اخته قبل زواجنا شعرت بهذا الاختلاف، فكان كل منا يلتقي الآخر لغاية. أنا: حتى يأخذ وجهي وشفتي ويهمس في أذني كلمات الحب والإعجاب. وهو: حتى نفهم طباع كل منا، حتى لا نكرر غلطة الآباء والأجداد.

مع هذه اللقاءات التي كانت ترضى بها أخت صالح على مضض إذ كانت خائفة من فضيحة هذه اللقاءات، إذا تزوجنا أو لا. كنت ألاحقه في التلفونات التي ما اعتادها، ولن يعتادها. ولما كنت أسأله لماذا هو بهذا الاقتضاب على التلفون. كان يجيبني مازحاً بأنه ليس وحيداً في الغرفة، ثم يسألني بدوره لماذا أحب الحديث على التلفون. لم أعرف ما أجيبه سوى أني أحب وألتذ في الحديث عبر الهاتف. وأخذت كلما اقتربت مكالمتنا إلى النهاية أحييها حتى بالأخبار الكاذبة التي تبعث الفضول به من جديد. وأستدرج غيرته بطريقة كلامي. خاصة لما جاء المصمم الإيطالي المعروف خصيصاً ليصمم فستان عرسي. والذي ضاق ذرعاً بي وبمواعيدي التي ما استطعت ضبطها رغم محاولاتي. ولم أخبر صالح أن المصمم قال لي مرة متصنعاً المزاح، بأن ربما ثقل الألماس في الساعة هو وراء توقف عقربها. بل قلت له إن المصمم اقترح أن لا أرتدي عقدي الألماس وإلا طغى بريقه

على جمال صدري. وبدلاً من أن أجعل صالح يغار، وجدته يصرخ بي قائلاً: كيف أسمح للمصمم أن يأخذ حريته في الكلام معي لهذه الدرجة. لما أجبته أن ردّة فعله هي غيرة، نفى، ولبث ساكناً كمن يريد أن يقفل الموضوع، ثم قال إنه لا يحب التفكير بأن رأي المصمم مهم لهذه الدرجة.

ما مر شهر واحد بعد زواجنا حتى بدأت أتململ، كأن السعادة والهرج والمرج اختفت منذ أن عدنا إلى الصحراء. وبدأ صالح ينهض في الساعة التاسعة صباحاً، وأرادني أن أنهض معه، حتى نتناول طعام الفطور معاً. في اليوم التالي تحججت بأني تعبة وبقيت نائمة. لما جاء الليل، لم يشأ أن نسهر بعد منتصفه. ولمّا تمنعت عن النوم، ذكّرني بتعبي هذا الصباح، وأعقب مازحاً أنه سيجعلني أنسى أني من عائلة دراكولا. ولما حاولت وما استطعت إلا النهوض عند الظهر أو بعده بقليل، وقت عودته من عمله لتناول طعام الغداء. عاد يلحّ بأن نهوضي في الصباح ضروري، ولما سألته عن هذه الضرورة أجاب: «البيت؟» وضحكت وقلت بتهكم: «والخدم؟» ردّ: «لا فائدة من البحارة إذا ما كان في باخرتهم قبطان».

في تلك الليلة، انصرف الساهرون باكراً، لأن صالح تململ وقال لهم: «تصبحوا على خير» رغم توسلي لهم بأن يبقوا.

دخلت إلى الغرفة وأنا أغلي صائحة به كيف يطردهم؟ فأجاب وهو لا يزال يقرأ في كتابه بأن هؤلاء طفيليون، غنم ينتقلون من بيت إلى آخر للعلف ويستسلمون للفيديو وللنكات. وسألته بتحد: «فكرت أنك تتسلى معهم؟». أغلق الكتاب بعد أن وضع علامة. ووجدتني أفكر عندها في أن الفرق بيننا حقاً شاسع، لا لأني لا أقرأ الكتب، بل لأنه لن يخطر ببالي قط وضع علامة. ثم قال بلهجة حنونة: «نور تعالي أكلمك». وأحاطني بذراعه وقال لي إنه يحب السهر معهم مرة أو مرتين في الأسبوع، وإننا يجب أن لا نستعملهم لملء الفراغ. سألته: «أين وكيف نقضي الليل إذاً؟» أجاب: «مع بعض أو ضجرت مني؟» ثم أعقب: «مع بعض أو مع ناس طبيعيين». مع بعض؟ فكرت ليقرأ أو يرى الأفلام التي لا أحبها، أو يتمرن على لعب التنس أو على الآلات

الرياضية، مع ناس طبيعيين، أي رجال الأعمال والسفراء وزوجاتهم اللواتي مهما فكرت فلن أجد كلمة أتبادلها معهن.

ثم أخذ صالح كأستاذ مدرسة يسألني إذا قرأت الجرائد، وإذا ما أحببت الكتاب الذي أتاني به. وأخذ يحثني لتكملة علمي ودخولي الجامعة ولو بالمراسلة، بدلاً من إضاعة وقتي في النوم وعلى الصديقات اللواتي وصفهن بقليلات الحظ من قلة ذكائهن.

وما أبديت ولو طرف رغبة في الاستماع إليه بل تركته يخلد إلى فراشه عند منتصف الليل، بينما أخذت استنجد بالخادمة أو بضيفة أو قريبة حتى تسهر معي حتى الساعات الأولى من الصباح.

وكان هذا الاختلاف يتلاشى في الإجازات، فلا يعود ينتقد بأن لغتي الإنكليزية التقطها من المربيات والمرافقات الأجنبيات، وأن اطّلاعاتي هي باتجاه واحد: ما تخرجه فبارك العصر للأغنياء: من اليخت، إلى أشعة الشمس الاصطناعية في البيوت لاكتساب اللون البرونزي، بل كان يشعر بالفخر وأنا معه، منتقلين إما في اليخت أو في الطائرة الخاصة. بين الشاليه في النمسا، إلى شقة في باريس أو إلى البيت في ضواحي لندن. نقضيها في ركوب اليخت والاستلقاء على الشاطىء الذي يكاد أن يكون خاصتنا، وارتداء ملابس التزلج. رغم عدم مواظبتي على أخذ الدروس، إذ كانت الشمس تكاد تغيب قبل أن أعد نفسي. إلا أن الجو والناس وأخبارهم وقهقهاتهم كانت تبعث فيَّ جواً من السعادة والتسلية، سرعان ما أنسى مضايقتي منه وهو يحثني لأن أتعلم في البوصلة وجهة السير واليخت الأبيض يشق البحر المتوسط. ولأن أتزلج وأخرج وأسير في البياض. وما أن تنتهي الإجازة ونعود إلى الصحراء حتى تعود المشاحنات. وحين أسأله لماذا في الإجازات فقط نتقارب، يجيبني بأنه يحب الحياة بلا مسؤولية أو عمل لفترة، لكن مشكلتي أني أريدها طوال الوقت. وطبعاً كان يعود بالأسباب إلى تربيتي في كل تصرف أقوم به، وكان انتقاده الدائم لي حتى في الأشياء السخيفة

تزيدني استغراباً. أذكر كيف بدا القهر عليه لأني لا أجيب على المكالمات حالما أعرف بها، ولما لمت الخدم، أجابني بأن اللوم يقع علي لأني لا أحثهم لإخباري. وكان محقاً، رغم أني ما أقررت بهذا، ذلك اليوم.

ذلك اليوم، لما جاءت سالي الأميركية، إبنة صديق لوالدي إلى الصحراء لتحضر عرس أخي، اتصلت بي ما يفوق العشرين مرة، وكالعادة عرفت ببعض مخابراتها وكأن الأمر عندي سيان. ولما أجاب صالح على التلفون مرة ووجدها تعتذر لأنها ستسافر في الغد ولم ترنا، أجابها وهو ينظر إليَّ بغضب: «سآتي بك حالاً»، ثم رمقني بنظرة كلها غل، وانصرف. وما استغربت تصرفه، رغم غيرتي شعرت بالراحة، إذاً هو أسوة بالجميع يود التعرف بالأجنبيات. عادت سالي تعتذر وكأنها متأكدة أنه لا بد أني ما عرفت بمكالماتها. ووجدتني أجيبها ببرود أن أمي كوكب لا تعرف الإنكليزية، أجابتني بحيرة، بأنها طلبت من الخدم عند أهلي حيث نزلت حتى يطلبوني. ثم أخذت تخبر صالح عن الوقت الذي قضيناه معاً في الولايات المتحدة. لما تركنا والدي لها ولعائلتها حتى يطوفوا بنا معظم كاليفورنيا من ديزنيلاند إلى استديوهات يونيفرسال. كانت تتحدث بحماس وكأنها استحوذت إعجاب صالح، وكأن فستاني وموديل شعري ما عادا مهمين، ثم تخطى حديثهما الطاولة، وكل ما أعرفه والذي أهتم به. وأصبح حديثها عن عملها، وكانت من بين الذين يكتبون محاضرات الرئيس الأميركي، ثم لتنتقل إلى الحديث عن نادي والدها. لما فتحت أذني وفكرت أن الفرصة أتتني، ليعود سمعهما وأنظارهما علي، إذ اني أعرف معظم النوادي العالمية. عاد الضجر يخيم على الحديث، فالنادي هو خاص بالرجال، وأقصى ما يفعلونه كان إلقاء المحاضرات. ثم سألها من أي جامعة تخرجت، ولما قالت له عن جامعة ما، ضحك وسألها عن كانديس ف. ولما أجابته أنها لا تعرفها وإنما تسمع بها إذ كانديس هي رئيسة إحدى نوادي الخريجات، تردد قليلاً قبل أن يعود يخبرنا، بعد أن وضع يده على يدي قائلاً: «بالإذن من نور» بأنه وغد كانديس بالزواج وهو يودعها لما تخرّج. لكن فور وصوله إلى الصحراء، اكتشف أنه ما استطاع أن يتخيلها تسير في البيت أو تجلس إلى جانبه في السيارة أو تتحدث

حتى بالإيماء إلى النساء. وما كان شعرها الفاتح، بل منطقها وصوتها الطليق الذي لا يتأثر بمكان وزمان.

علقت سالي ضاحكة بأنها لا تستطيع تصور كانديس دقيقة واحدة هنا! أنصت صالح وشد بيدي لما حاولت زحزحتها من تحت يده، إذ فكرت أن حديثه عن كاندبس هو لإفهام سالي بأن زواجه مني ليس معناه أنه مثلي أو كأنه يبرر غلطته. ثم عاد يتحدث بذلك الحماس الذي ربما ما وجد له معنى وهو يتحدث معي أو مع من يجدهم في البيت، فقال مخالفاً: «كانديس ذكية، تستطيع حتى أن تعيش هنا. ستكون ربما مظلومة لأنها يجب أن تعيش في شخصيتين مزدوجتين. خذيني أنا أو نور المثل. لما عدت، اكتشفت أن أفكاري التي اقتنعت بها وأنا في أميركا بدت غير معقولة في الصحراء كمحتويات حقيبة السفر، لكن صممت بكل قوة حتى أكون صالح الذي يلبس الثوب الأبيض والصندال، والذي أصابعه تفسخ اللحم، هو صالح رجل القرن العشرين، يناقش سياسة مارغريت تاتشر، والذي يقف ويصفق احتراماً للراقصات». ثم التفت إليّ، وقال: «نور هي ببلدها تلبس العباءة، وبالخارج تمشي بفستان كوكتيل، طبعاً هي بتشعر أنها مظلومة. لكن هذا بلدها».

لما وصلنا إلى بيت أهلي كانت المرة الأولى التي أوصل فيها أحداً. فأنا دائماً أتلقى ولا أتصل بأحد إلا عند حاجتي. نزل صالح يصافحها، ثم وقفا للحظة ينظران إليّ، لمّا اكتفيت بالإشارة، عاد صالح إلى السيارة وهو يزفر زفرة طويلة، وما تكلم إلا لما سألته ما به، ليصيح بي قائلاً: «حتى الأمبراطورة تتنازل وتودع البشر» ثم كلم نفسه: «أعتذر، أنت أهم من الأمبراطورة!!» ووجدتني أقول إني ما شئت أن يراني أحد من البيت. أوقف السيارة واستدار يواجهني قائلاً: «وماذا يحدث لو رآك أحد، أليس من الطبيعي أن ندخل إلى بيتكم ونزور أهلك؟ أم إنهم حول الطاولة المستديرة يحلّون مشاكل الأمم؟»، ثم كلم نفسه: لا أعرف كيف هي عائلتك، ومن أي طينة! الكل مش طبيعي...! وهنا صرخت به: «كل هذا المشكل لأني ما نزلت وصافحت الأميركية؟».

صرخ بي وهو يخبط مقود السيارة: «كيف أفهمك، بأن المسألة ما هي حدث، أو حادثة بل هي تدل على مفهومك للحياة وللعالم. هل معقول أن تكون سالي عند أهلك لأسبوع ولا تتصلي بها؟ بل تقضين وقتك مع التافهات والمربيات. وهي كما سعت، ما تركت زاوية أو مكاناً إلّا وأخذتك إليه، والبرقية التي وصلتنا منها عند زواجنا، وهديتها التي بقيت ملفوفة لو لم أفتحها أنا، استهتارك ما هو بالناس فقط بل بالأشياء. الأوركيدة التي تموت وهي لا تزال بالعلبة مطروحة في المطبخ أو على الطاولة. والزهور التي تموت وتبقى في الآنية، هل تعرفين تكلفة الأوركيدة قبل أن تصل إلى الصحراء! عقدتك أنك لست من عائلة حاكمة».

- ٤ -

لما عرفت أني حامل وأجابني الطبيب بأن شعوري بالغثيان وبالتعب طبيعي أجبته بأني لا أستطيع التحمل، كأنه هو المسؤول عن حالتي هذه. عدا الشعور بالكسل والغثيان، أصبح جسمي منتفخاً كاسفنجة، وأيقنت أنه لن يعود كما كان. وربما حالتي هذه أخذت تضجر من يزورني. فما عادت الزائرات حولي في كل ساعة أو دقيقة، كأني أصبحت وحيدة لا أقوى على تحمل هذا، ووجدتني ما أن فتحت عيني يوماً حتى صحت، وأخذت أمزق الملابس وأعض الأيدي أصرخ وأركض حتى أغادر البيت، لتلحق بي أمي كوكب وتتصل بأمي. وجدتني أطلب صالح وأخبره بأني لا أستطيع التحمل وأني أود إنهاء حملي، خاصة أن ملابسي التي أعددتها لهذا الموسم لن تتكرر في غرابتها وجمالها. رغم حنانه وتفهمه لما أعانيه واقناعي بأني أكتمل كامرأة إذا أنجبت، وبأن هناك الأزياء الخاصة للحمل تضاهي بغرابتها الملابس الأخرى. لما اقتنعت، بدأ يلاحقني لأن أكف عن التدخين. أجبته بأن الطبيب قال لي إن توقفي عن التدخين سيجعلني عصبية، فمن الأفضل أن لا أنقطع عنه.

ولما وضعت ابنتي، انهالت علي المجوهرات، بريقها لا تصدقه العين، وملمسها تكاد لا تتحمله الأصابع. وأزهار قيل لي إنها ما رأت الصحراء مثلها من قبل. في اليوم الأول ما حملت ابنتي، طلبت الراحة،

كذلك في الليلة الأولى في اليوم التالي أصرت الممرضة الإنكليزية عليَّ أن أحمل ابنتي حتى أتعرف بها وتتعرف بي. كبست الجرس وأرجعتها إليها لما أخذت تبكي بعد دقائق. أخذت أتعمد النوم كلما شعرت بهما في الغرفة، إلى أن تيأس الممرضة وتخرج بها. لتدخل عليَّ ذات مرة وأنا أتحدث على التلفون، وتقول لي إنها تكاد تنهار، فهي لا تنام في الليل ولا في النهار، وإن عدم اهتمامنا بالطفلة يضايقها. أجبتها أن ما ضايقني هو دخولها عليَّ بلا استئذان. ووجدتني أصيح بها بأن تتركني وشأني، خاصة أني كنت أسمع وكلي غيرة، حديث صديقة تخبرني عن وجود المطرب المصري الوسيم، وعن السهرات، وعمن تلاحقه، ومن اختلت به. وكانت وهي تحادثني أتخيلها ما زالت في قميص نومها بلا ألم، ولا صدر ينتفخ كصدري رغم محاولاتي لإفراغه. أو لا بد أن وصيفتها تضع لها مكياجها، أو تنظف لها وجهها. وما عدت أتوق لرؤيتهن إذ لما كن يزرنني، إنما ليعرضن فساتينهن ويتحدثن مع بعضهن لا معي، غير آبهات لتأوهاتي وألمي.

وما ساعدني صالح في هذه الفترة، بل أخذ يعطيني النصائح بأنه يجب حمل ابنتي، وأن أرضعها بدلاً من القنينة، وأن أكف عن التدخين وهي في غرفتي. غيظي منه كان عظيماً وهو يوقظني كل صباح كلما سمع صوتها، وأتى بها إلى سريرنا لا أعرف لماذا أخذت ألومه على كل شيء، حتى على ذهابه إلى مكتبه، وأخذت أتحاشى الحديث معه، وأظهر عدم الاهتمام بوجوده. وبدلاً من أن يحفزه برودي لمصالحتي، ما عاد يهتم بي هو الآخر. أخذ يعيش حياته بحرية. يدعو أصدقاءه، رغم اصطحاب بعضهم لزوجاتهم، بينما أصررت على عدم مغادرة غرفتي والجلوس أمام الفيديو الساعة تلو أخرى. وأخذ الغلّ منه والقهر يفور، يشبه الشعور حين تفلت مني قطتي وتختبىء في مكان لا أستطيع الوصول إليه. كنت أتحرقص لدرجة البكاء وأرفس بقدمي لأني أكاد أختنق كلما تذكرت الارتياح الذي أحس به وهي تحت قبضة يدي.

ولما قال لي إنه سيسافر ذات صباح ما أجبته بل أدرت الفيديو. نزع السيكارة من فمي وقال: «أنا مسافر». عدت أشعل سيكارة أخرى وأجيبه: «مع السلامة». وفعلاً أراحني سفره. إذ ما عادت المعاندة أو المجابهة يومية،

بل ووجدتني أرحب بكل من تتصل بي، وإذا لم أُزَر قمت بالزيارات. ولما كنت أسأل إذا رأيت صالح على شاشة التلفزيون في الأخبار، كنت أهزّ كتفي غير مبالية. وما زرت أمه كما وعدتها. ولما زارتني تركت معها المربية وطفلتي. ما أن عاد صالح حتى طلبت منه إذناً لي بالسفر مع أمي. لكني سافرت مع أمي كوكب.

كالعادة، امَّحت الصحراء ما أن صارت الطائرة في الجو. دخلت إلى الحمام. أتناول من شنطة يدي فستاناً يظهر الذراعين والقدمين. كومت عباءتي، فككت ضفيرة شعري وتركته يهبط. سرت إلى مقعدي بارتباك. لما شهقت أمي كوكب، قلت أسكتها إذا كان صالح يسمح لي بهذا. وشعرت أكثر وأكثر، كم إن الزواج هو كلّ الحرية. حتى الحريّة المادية. فرغم معاشي الشهري الذي كنت ولا أزال أتسلمه كل شهر من والدي، كنت مديونة للكثيرين. لناهد المصرية التي تبيع الملبوسات الجاهزة لأشهر مصممي الأزياء والتي هددت بالشكوى إلى والدي بعد أن أصبح ديني يقارب المائة ألف. وإلى بائع المجوهرات السوري، رغم إرسال أمي كوكب إليه مع حلي ما عدت أحبها. وكنت أعرف أني أستغل كثيراً. مدام ساندرا اللبنانية طلبت مني مبلغاً باهظاً لتصميمها شجرة أوراقها من الحرير، عند كل ورقة مكان لأضع فيه قنينة عطر. وجميل الذي صمم لي غرفتي. وفرناندو واللوحات. حتى ابتسام والتي هي من الصحراء باعتني تحفاً مزيفة على أنها أثرية ومطلية بالذهب.

كنت ممدّدة، أتساءل إذا لذتي وصلت الأرض تحتي، فالسخونة تكاد تحرقني. في غرفة الفندق الواسعة، مغني الروك يشرب الماء من القنينة. بدا وجهه صغيراً كذلك تقاطيعه، وما كان جذّاباً. جسمه الأبيض بدا نحيلاً وهو يمد برأسه إلى الخلف. ولم يكن مطهراً، ضحكت وأنا أفكر لو تدخل أمي كوكب. أتخيلها تبصق وهي تصف قباحة جسمه النحيل الأبيض قائلة إنه مسلة من الكورباء. مع ذلك فقلبي ما توقف عن الهيجان والحماس منذ أن التقيت به في الديسكو وراقصني طويلاً بعد أن أهمل المرأة التي كانت معه.

ولما مدّ يده تحت الطاولة إلى جسمي، عرفت أنه لن يفارقني هذه الليلة. من زمان ما شعرت بهذه السعادة التي يخالطها الترقب حتى التوتر، خاصة وهو يلحق بي بعد دقائق ويدخل غرفتي بعد أن أقفلت الباب الذي يفصل غرفة أمي كوكب. فأنا منذ أن طالت إقامتي هنا، أو بالأحرى منذ أن تشجعت واعترفت بيني وبين نفسي أن جسمي هو مصب الشعور، انتقلت إلى الفندق، زاعمة لصالح أثناء مكالمته لي أني أدوخ في السيارة كلما انتقلت من بيتنا في الضاحية، إلى لندن.

سألني مغني الروك وهو يمسك بفستاني الملقى على الأرض عن مصممه وهو يرتديه ويتأمل نفسه في المرآة، ويقول إنه معجب بالكتفين. وكانا على شكل جناح طائرة. أجبته بهمس وأنا أفكر أنه لا بد أن أراه هذه

الليلة . حتى شفتاه الرقيقتان غير الجذابتين ارتجفت للمسهما، وصدره الذي من نحالته رأيت قفصه، شعرت برحابته وقوته .

ولم أستطع إلا أن أسأله : «هل أراك الليلة في الديسكو؟» هزّ كتفيه بلا مبالاة وهو يعبث بأغراضي ويمسك بحلق أذني الماسي ويعود فيضعه على الطاولة ويقول : «لا أعرف» .

ووجدتني أقرب شعري منه، وكان أول ما تعرف علي أمسك به وسألني عما إذا كان حقيقياً وحين لم يصدق جوابي، شده وقال : «تن، تن»، كما يقرع جرس الكنائس. وسألته كاذبة : «هل أقص شعري؟» .

سألني بدوره : «هل هذا شبس بلدك» وكان يمسك بيده المخطوطة القديمة التي طلب مني صالح عرضها على «كريستي» حتى يطلعوه ما إذا كانت حقيقة تعود إلى تاريخ بلدنا أم أنها مزورة . سألته مرة أخرى عن شعري وأنا أشعر بالضياع وبالتفكير في حيلة حتى أراه هذه الليلة .

التفت إليَّ قائلاً : «شعرك أجمل شعر رأيته في حياتي . وأنا أراك ترقصين قلت أريد هذا الشعر» .

سألته وقد اطمأننت نوعاً ما : «الليلة نذهب إلى ديسكو آخر . .» وما أجابني بل سألني وهو ما زال ممسكاً بالمخطوطة وكانت من الجلد المتشقق واليابس . «ماذا تقول؟» وقد عاد إلى السرير وجلس جانبي، غير مبالٍ بجسمي الذي ما خبأته تحت الشراشف، بل كنت مزهوة بجماله لأن تفكيري كان يصب في اتجاه واحد : رؤيته هذه الليلة . أردت أن أرضيه بأي ثمن . وأخذت أحاول التذكر ما سمعت صالح يتلو علي من الكتابة غير الواضحة . قبل أن أبتدىء بإخباره، مد يده يجلسني ثم وضع يده فوق كتفي، كأننا أصدقاء وأحباء من زمان . لما رأيت دهشته تزداد مع كل كلمة قلتها، شعرت بالفرح وأيقنت أنه يقربني إلى تفكيره، رغم اندهاشي لجهله ببلدي وبجغرافيته وأين يقع على الخرائط. نهض ليبحث عن قلم، وما وجد سوى قلم عيني الأسود، وقال وهو يتأمله بخيبة ويستهزىء بنفسه : «أنا الذي ظننت أنك

تستعملين كحل كليوباطرا!!». وابتدأ يكتب كلمات بدت أكثر صعوبة من أحرف المخطوطة. ويشطب ثم يكتب ويطلب مني أن أقرأها مرة أخرى ثم يستفسر وأنا أشرح له المعنى ثم يكتب ويفكر ويدندن.

ومن شدة فرحه بموضوع اغنيته النادر والذي ما تطرّق إليه أي مغن من قبل، أمسك وجهي بين يديه. وقبل عيني وأنفي وشفتي وذقني وشامة خدي السوداء، والشعيرات الخفيفة فوق شفتي ثم شعري وجبهتي. حماسه هذا أهاجه ومال فوقي هامساً «سأعطيك ثمن هذه الأغنية». لكني وددت أن أطمئن عن الليلة.. ولما نهض، قال إنه سيلصق نجمة حمراء على بلدي. إذ عنده خارطة العالم، والبلاد عنده هي من خلال النساء، انكمش قلبي لوهلة ثم عاد ففرد نفسه وأنا أراه مستعجلاً متلهفاً. يضع الأوراق في جيب جاكتته الجلدية. لا بد أنه نسي اسمي، وحتماً بعد ساعات سينسى شكلي.

لما تعالت رائحة حب الهال وحاولت أمي كوكب فتح الباب، وما أجبتها أيقنت أني ما زلت نائمة. نهض يرتدي ملابسه على عجل ويغادر وهو يطيّر لي قبلة في الهواء. أسرعت إلى الباب أسأله عن المساء فأجابني: «تعالي إلى بيتي، حتى أسمعك الأغنية». وأعطاني عنوانه. ابتسمت له فرحة، وقد غاص قلبي. فتحت الباب الذي يفصلني عن أمي كوكب التي سألت بلهفة: «ماذا أكلت عند الأميرة؟» وما فهمت ما تقصد. عدت تذكرت أني أخبرتها بأني مدعوة عند الأميرة الانكليزية بنت الملكة. جلست تسألني بلهفة: «ويش تحدثتو؟ ويش تونستو؟ رقصتو؟ ويش أكلتو؟ ويش لبسوا؟ لازم كان فستانك أحلى من فساتينهم! ويش قالوا عن حلقاتك؟».

وكانت تود معرفة التفاصيل، حتى إذا ما عادت إلى الصحراء، أخبرت الخادمات والنساء. ثم صبت لي فنجان قهوة وهي تقول: «قلت نور فتحت الراديو.. وأنا لسه نايمة..».

ولما ذهبت إلى بيته، كنت قد أعددت نفسي للقبلات، ولكن ولخيبة

أملي أجلسني في غرفة الاستديو، وجلس خلف البيانو يدق ويغني:

حبيبتي من قبيلة من صميم الصحراء.
تحمل أجدادها الحر والعطش.
وأدت النساء وسبتهن عند الحروب.
لتحافظ على المرأة لأنها تلد الرجال.
ولا يجب أن تمزج دماءها بدماء غريبة.
ومع ذلك حبيبتي، تحبني.

- ٥ -

عدت وسافرت مرة أخرى وهذه المرة كطباخة لا تعرف إلا استعمال ملعقة واسعة كأنها لعملاق. أغرف من العاطفة والسهر والكلام والضحك. كان سفر صالح المتواصل وعدم اهتمامه بي هو الآخر دفعني أكثر إلى هذا. وكان من الممكن أن يبقى ما أفعله سراً، لكن يبدو أني أخذت أتردد على الأماكن التي يكثر فيها الساهرون من بلدي. فأنا انجرفت في حلقة راقصات وممثلين ومطربين ورجال مجتمع من البلاد العربية، ذاع صيتهم لجمالهم وظرفهم. استغلّ أحدهم خفة دمه ليحترف الترفيه، فتارة يرتدي بدلة رقص ويقلد الراقصات ويقول: «والنبي تنقّطوني» فتنهال عليه عشرات البوندات، وتارة يرتدي فستاناً ويقمط شعره بإيشارب يقلد ربات البيوت وهن يعملن في البيت ويتكلمن بعصبية مع الطناجر والصحون. بعد أن أدى نمرته ذات ليلة، قال بعد التصفيق «إنه يعود الفضل للسيدة نور. التي اكتشفت أني فنان لا مهرج وشجعتني على الاحتراف».

كنت فعلاً قد أدمنت على خفة دمه، ووجدته شخصية من شخصيات الكوميديا. وعرضت المال على صاحب الكاباريه ليدعه على المسرح. وما كانت هذه المرة الأولى، فقد أشهرنا مرة راقصة من الدرجة الثالثة وأخذنا نصفق لها ونفتح لها الشمبانيا حتى ارتفع مرتبها وأصبحت الراقصة الأولى في نوادي لندن الشرقية. غصت في الكرسي عند سماعي اسمي، شعرت بالخوف

لكنه فارقني في اليوم التالي إذ أخذت تفاصيل الأيام تشغلني لدرجة أنـي ما كنت أفكر بالصحراء إلا عندما أشم رائحة حب الهال وحين تسألني أمي كوكب عن العودة، عندها كنت أفكر أن الوقت لا بد أن يحين، ويجب عليَّ تعبئة الوقود من كل شيء. كنت أتحجج بمواعيد الدكتور تارة، وبالشوبنغ تارة أخرى. كانت أمي كوكب تعلق أنها متسلية جداً. غير طوافها في الأسواق مع السائق. كانت تفرح حتى لو ركبت السيارة، هذا إذا ما زارت بعض العائلات من بلدنا. وكانت تقول لي: «الكل يسأل إذا كان صالح معك، وأنا ما قول لا، ولا أيوه، بل أهزّ رأسي».

- ٦ -

رنّ جرس الشقة (وكنت قد انتقلت إلى شقة والدي) في الصباح الباكر وقبل أن أعود إلى إغماض عيني، دخلت أمي كوكب توقظني قائلة إن رجلاً من بلدنا يسأل عني، وأصرّ عليها أن توقظني رغم قولها له إني ما زلت نائمة وإني أتأخر في النوم. أفكار كثيرة راودتني، وما حزرت السبب إلا لما أطلعني على ورقة من مكتب صالح، موقعة باسمه، ومكتوبة بلهجة جافة ورسمية بأنه يجب المغادرة إلى بلدي هذا الصباح. فكرت الاتصال بصالح، لكني عدلت. بأهلي؟ لا بد أن أخباري وصلت الجميع. أنظر إلى الرجل وأقول: «لكن ما خلصت أشغالي، ولسه عندي موعد دكتور». ردّ الرجل بكل أدب: «والله مانا عارف» ما قلت شيئاً، بل دخلت غرفتي أعد حقيبتي وكلي شعور بأني قد أتيت للتو من الصحراء وها أنا أفرغ حقيبتي. فجأة، اختفت الليالي والضحكات، وأخذ قلبي يدق. ووجدتني أهزُّ كتفي أتصنع اللامبالاة وأفكر بأني أوفر حظاً من كثيرين. ابن خالي فتح عينيه ذات صباح ليجد نفسه في بيته في الصحراء. مع أن آخر ما يذكره، أنه نام في سريره في الفندق في هونغ كونغ. الجرائد كتبت عن المبالغ الخيالية التي يخسرها في كازينو هونغ كونغ وعن تقديمه شيكات بلا رصيد، وصديق أخي كُبِّلت يداه ووضع على أول طائرة عائدة إلى الصحراء بعد أن اكتشف أهله أنه مدمن مخدرات.

رغم أن الرجل ما زال في الردهة، إلا أني شعرت كأنه كبّل يدي وقدمي

وعصّب عيني. فتح لي باب السيارة التي كانت تنتظرني عند مدخل البناية وظل واقفاً عند الباب، ريثما صعد السائق ورجل آخر ليأتيا بالحقائب والأكياس. وما رفع ثقله عني إلا حين دخلت طائرة صالح الخاصة. التفتت إليَّ أمي كوكب قائلة: «لازم صالح إشتاق لك، البارحة اتصل ثلاث مرات وعرف أنك تتعشين مع بنت الملكة. سألني ومع الملكة ما تعشت؟ قلت له: نور صغيرة ولازم ما عندها حديث مع العجايز..» ثم أعقبت: «عز وجاه صالح وصل لندن».

في ظروف كهذه تقريباً عدت من المدرسة الداخلية في القاهرة، كل من في الطائرة سمع وشوشات وبكاء طوال الرحلة. ورأى عيوناً حمراء كالدم وعباءة تطير في سماء الطائرة ثم صراخاً. الذي أتى بي كان مرافق والدي. ورغم صغر سني وعدت نفسي أن أتزوج وبسرعة. وأذكر أنه ما أن دخل المرافق إلى الحمام، حتى لكزت جاري الراكب الأجنبي وسألته ليطلب الويسكي ثم لكزته ليصب منها فوق كوب الكوكا كولا أمامي.

رددت طوال الرحلة: صالح وراء هذا كله، لا بد أنه يريد الطلاق لكنه لماذا لا يصارحني؟ لما وصلت المطار، بدا لي كل شيء عادياً. صالح كان في الانتظار. وما واجهني وقتها، ولا بعدها، المواجهة مستحيلة. لا لأن الرجل هو صاحب الحق، منذ زمن الآباء والأجداد، بل لأن المواجهة فيها خوف. إذا ما تجاوز صوتانا حدود جدران الغرف والأسوار، فلسوف أفلت من نطاق العائلة وحمايتها. وما طلّقني صالح رغم أنه لمح لي بأن أطلبه إذا أردت، فهو خائف على كرامته وعزة نفسه تجاه أهلي والمجتمع، ثم لأعرف بعد وقت قصير أني فقدت جواز سفري. كان هو الشيء الوحيد الذي حافظت عليه. كنت أمسك به كأوكسجين الحياة، حفظت شكله ولونه ورقمه. هو الوحيد الذي كنت أضعه في كيس من نايلون قبل أن أخبئه في الخزنة الحديدية، بينما أترك وأنسى مجوهراتي بين أقلام الحمرة وطلاء الأظافر والكريمات. لم يكن في درج صالح، ولا في بيت أهله، ولا حتى في درج مكتبه. فأنا أوعزت إلى أحد الذين يعملون لدى والدي أن يساعدني في البحث عنه، لا بد أنه في

حقيبة يد صالح، يتنقل به من مكان إلى آخر، لكن أحدهم فتح حقيبته ولم يجده.

وكانت الطريقة الوحيدة هي مصالحة وإعادة صالح، لكن يبدو أنه حذفني من حياته. ما عاد حتى يزور البيت بعد محاولتي التحرش به، بل أخذ يرسل في طلب غادة حتى تزوره وتقضي الأيام معه متى عاد من سفره. كلما طلبت منه جواز سفري، كلما تنصّل وقال إني ما زلت زوجته ولا يسمح لي بالسفر وأنا أعانده ولا أطلب الطلاق. لا يستطيع الزواج علي. إذ اشترطت عدم الزواج عليّ. ردّد الشيخ في أثناء عقد زواجنا الذي حضره والدي وبقية الرجال، بينما انتظرت أنا وأمي والنساء في الصالون الآخر: «اشترطت نور.. على صالح.. عدم الزواج عليها، إذ هي خائفة من الظلم وليس فيها علة أو عيب يصعب العيش معها. كما اشترط عليه الصلاة والسلام على علي عدم الزواج على فاطمة خوفاً عليها من الظلم».

ما أردت الطلاق قبل أن أجد الزوج أولاً، إذ كنت لا أزال أتمتع بالحرية إنما بحدود امتداد الصحراء لا في سمائها، كذلك بالبيت الكبير والخدم والمصروف. فالأغنياء بحاجة إلى المال أكثر من الفقراء، لا للمحافظة على مستوى معيشتهم فقط، بل لتخطي هذا المستوى والوصول إلى أرفع مرتبة، إذ الأغنياء كانوا كثيرين، والمنافسة كبيرة بين الرجال والنساء وحتى الصغار. سألت أمي كوكب وصديقاتها أن يبحثن عن عريس لصديقة ما. حزرت أمي كوكب إلى أين يرمي دهائي وما علقت. سرعان ما جاءت بأسماء العرسان والأوصاف. من الصيرفي العجوز الذي له سنان أماميان من الماس والذي أقسم إن رضيت به أن يكون مهري من صفائح الذهب بثقل وزني لكنه متعصب ويغار حتى من النسيم. والذي يريد زوجة ثانية، لأن زوجته الأولى كبرت، وأنعم عليه بالمال وهو يريد أن يتمتع بمن هي أصغر سناً وأكثر جمالاً، «قلبه دليله»، علقت أمي كوكب، «القلب أوجده الله». علقت أخرى، «ونحن نعمل بمشيئة القلب» لكنه يعيش ومن حوله كل عائلته التي تفرقت في بيوت!. وما كانت أمي كوكب تعرف ما جرى بيني وبين صالح، ولا حتى عائلتي. بل أيقن الجميع أنه كباقي الرجال هنا يهملني ويمتع

نفسه في أثناء سفره. أمي كوكب ظنت أني أريد من هو أكثر مالاً أو كرماً، فكانت تقارن بيتنا بالقصور، والبيوت التي جدرانها رخامية، وتلوي شفتيها غير راضية. ولما سألتها مرة وماذا عن الطائرة الخاصة، واليخت و. . . ؟ كانت تجيب: «أعرف لكن الملك الحقيقي هو على الأرض لا في السماوات ولا في البحور». عدا أنها كانت تظن أن صالح بخيل لأنها سمعته مراراً يؤنب الخدم لأنهم لا يقفلون علبة الشاي جيداً. ويؤنبهم أيضاً كلما نزل الحديقة لمعاينة الشجر المزروع واكتشف أن المياه قد طفحت التراب وجرفت الحصى. ووجدتني أسألها عن ابن الفضل الذي طلقُ منذ مدة، قالت: «والله ما يستاهلك يقولو صوت الأغاني في بيته وسيارته ليل، نهار. وأنت عارفة: الطبول وضجتها تلعب بالمخ والشيطان تلاقيه وراء الدف أو الطبلة».

كلما أطل النهار أكتشف أن سهى تغيب عن ذهني وأجدني أفكر في هذا النهار الذي سوف يمر كالبارحة. وما شئت أن أبقى وحيدة في الليل، اتصلت بزوجة أخي التي قالت بأن السهرة هذا المساء لا تعوض. فأخي قد اكتشف في المطعم التركي شاباً...

ذهبت إلى السهرة بعد أن ارتديت فستاناً يبرق ورفعت شعري بدبابيس تبرق حتى بدوت كأني أتيت لتوي من ريودي جنيرو. ربما رائحة عطري كانت قوية لأن أمي كوكب نادت من غرفتها قائلة: «الطيب يا نور العيون نوع من الزنا، يشمه الراجل وتتحرك نفسه» فكرت أن أقول لها: «يا ريت!» تمنيت لو كالعادة أكون الأكثر جاذبية وقد طافت في خيالي النساء وملابسهن ومجوهراتهن وشعورهن خاصة أنهن ما زلن يسافرن. بينما أنا أعتمد على ذوق أمي والمجلات وما يرسله لي مصمم الأزياء الإيطالي.

وفي السهرة كان الشاب التركي يرد على الأسئلة التي انهالت عليه من كل جهة. وكلما أجاب عليها ببساطة غص الجميع بالضحك ومن بينهن أنا. خاصة لما أخبرنا قصة سجن والده لأنه أحب بقرته حباً حقيقياً، ولما قدم للمحاكمة قال الأب للقاضي: «والقمر طالع، والنسيم طري، الذنب ما هو ذنبي، قلبي رفّ، وبقرتي حلوة، . . .» سرعان ما تلملمت. وأخذت أنظر في الوجوه، وجوه قديمة لا أرى فيها ما يثير الفضول، حتى لما قيل إن المهرج

اللبناني أعطي أخيراً فيزا لدخول الصحراء، ما تحمست. لا بد من أجواء أخرى وأشخاص آخرين. ووجدتني أطلب من السائق أن يأخذني إلى بيت أهلي. كانت أمي ووالدي يسهران خارج البيت. وجدتني أتكىء على الكنبة وأنام إلى أن هزتني أمي تسألني: لماذا لم آت بعد الظهر، ثم نادت خادمتها لتأتي بشنطة كبيرة. أفرغت الملابس، كانت كلها موضة البانك تماماً كما طلبتها مع الأحذية والأكسسوارات. وسبراي الشعر الملون. أخذت أقيسها وأتأمل وجهي بالمرآة. ولا أرى نقطة واحدة أو خطاً واحداً في صفاء وجهي، حتى حين اتصل ليلي بنهاري وداهمني الأرق والبرودة والحر، وتضاربت في حلقي الحبوب المنومة وحبوب اليقظة، وتركت جسمي معروضاً للجنسين كقميص على حبل غسيل، يثور ويهدأ كيفما هب الهواء.

سوزان

- ١ -

أبعد العلب والمرطبانات وآتي بالقنينة الرفيعة. مع أني أسمع صوت معاذ يمازح رينغو ويضحك ضحكته العالية وكأنها صهصنة قرود. إلا أني اقترب من باب المطبخ للتأكد. أعود بسرعة أدلق الويسكي ثم الماء في الكوب، ثم أفتح غطاء القنينة الرفيعة وبحرص أدنيها من الكأس. كيف يمكن إضافة نقطتين فقط؟ حرت، خفت أن يدخلا عليّ وأنا ممسكة بالقنينة. مع ذلك أدنيت القنينة على مهل وكأني أعصرها وأحبس أنفاسها. نقطة، نقطتان، أم عشرون؟ أخفي القنينة في قدر هذه المرة، وأمسك بالكأس ولا أفارق المطبخ. هي ثلاث نقاط أم عشرون؟ اشتد خوفي عندئذٍ، ربما يتسمم أو يموت. اقتربت من المجلى لأدلق الكأس، لكني أتراجع. هذه فرصتي الأخيرة، يجب المجازفة. وأخذت أشجع نفسي بالتفكير بأنه لو يحدث له أي مكروه لن يدرك أحد السبب. سيضعون اللوم على الويسكي ويلفلفون القضية كما يلفونه حين يموت. وجدتني أهزّ رأسي مستنكرة أفكاري. هل أنا أحاول تهدئة نفسي لأني خائفة، أم انه فعلاً بلغت بي القساوة حتى هذه الدرجة؟.

لما رآني رينغو أقترب والكأس في يدي، نهض قائلاً إنه سيبتدىء بتنظيف غرف الطابق العلوي. أعطيت معاذ الكأس، متمنية ألا يلاحظ ارتجاف يدي. نظرت إلى رينغو وأشرت إلى فمي ووجنتي. هزّ برأسه،

وصعد الدرجات، لينزل بعد لحظات، وبيده كيس المكياج. جلست مقابل معاذ، أحاول تصنع اللامبالاة مع أن قلبي أخذ يدق بعنف، بينما التوى فمي إلى جهة واحدة من شدة عصبيتي.

كلما قرّب فمه ورشف من الكأس، شعرت بالنبض عند رقبتي حتى أعطاني الكأس فارغة وسألني: «كمان شاي بارد يا سوسو، وأنت ما تشربي معاي؟».

نهضت أمسك الكأس. أحاول السيطرة على فمي المرتجف وأنا أقول له بغنج مصطنع: «أنت لا تقدر تعيش من غير الويسكي! وأنا ما أقدر أعيش من غيرك».

ضحك معاذ ضحكته العالية وقال وهو يمد يده ويدنيها من قلبه: «القلوب شواهد يا سوسو».

دخلت المطبخ أضع أحمر الشفاه والبودرة مستعينة بزجاج الفرن. أعد نفسي بأني سأسمع ارتطام جسمه على الأرض في أي لحظة. أدلق الويسكي والماء في كأسه وكلّي وسوسة. «صيتهْ قالت إنه عليّ خلط النقاط مع الشاي أو القهوة، وها أنا أضفتها إلى الويسكي». ثم أبعدت الفكرة بأنه سيحدث له شيء، معللة الأمر بأن صيته لم تسمع ولا تعرف ما هو الويسكي.

ما زلت أرتعش وألوم سهى لأنها أخذتني إلى صيته. وأفكر بضيق: بأن سهى رغم ملابسها ولغتها الإنكليزية الممتازة هي مثل صيته والباقيات اللواتي أراهن يمشين في الشارع كأكياس فحم. ووجدتني أتمنى لو استجبت لحيلة رينغو ونفذتها حتى النهاية بدلاً من تلك النقاط.

نهضت هذا الصباح، وبالأحرى غادرت سريري. إذ ما سهت عيناي لحظة واحدة. شهر بكامله منذ عودتنا من السفر معاً، وأنا لا أرى معاذ. أسمع غزله وتهدجه على التلفون بين أسبوع وآخر. يأتي بغزال اصطاده ولا ينتظرني ريثما أخرج من الحمام. شوقي إليه لا يطاق. ومع ذلك لا أستطيع

كمشه بين أصابعي، رغم تلفوناتي وذهابي إلى بيته، وإرسال رينغو إلى مكتبه.

لكن هذا الصباح، صحت في زوجي. دققت رأسي في الحائط. وجلست أبكي بصوت مرتفع. الاشتياق مؤلم، يحدث في الجسم هوّة لا يصل إليها الدم.

ولأول مرة فكرت أن أداعب نفسي. وضبطت يدي تحوم عند بطني ليلة أمس، وأعدتها إلى جنبي مقسمة أن أحاول إعادة معاذ والزواج به بأي ثمن. ربّت رينغو هذا الصباح على كتفي يهدّئني قائلاً بأنه سيأتي لي بمعاذ هذا الصباح. ولما هززت رأسي غير مصدقة، قال بأني سأراه جالساً على هذا الكرسي بالذات. وأشار إلى الكرسي وكان عليه بعض الصحف وملابس جيمس. لا بد أنه فكر كما فكرت: انه ابتدأ بإهمال البيت، لأني منصرفة عن إعطائه الأوامر ولفت نظره لما يجب عمله. لذلك انحنى يحمل بين يديه كل ما على الكرسي ويكمل: «على هذا الكرسي سيجلس معاذ هذا اليوم». وأخذ يشرح لي الحيلة وهو يفك الدبوس الذي يشبكه عادة بجيب قميصه. أشعل عود كبريت، وأدناه من رأس الدبوس حتى صار أحمر كالجمر، ثم أسود. فكّرت أن معاذ سوف يخرج من رأس هذا الدبوس. في الوقت نفسه لمعت قنينة صيته في رأسي وأخذت أضحك. أعطاني رينغو طرف الدبوس وقال إنه عليّ شكّ إصبعي عدة مرات حتى أفرغ نقاط الدم على يدي. انصعت له، ولما كانت نقاط الدم قليلة وبالكاد ظهرت، أتى بالبن وأضاف له صبغة اليود ثم رشّه على الضماد الذي لف به معصمي اليمين، ثم مددني على الكنبة، وجاء بحنجر فيه بقايا كريم أبيض ومرغه على وجهي. وأنا لا أستطيع أن أتمالك نفسي عن الضحك. ولما لم يقتنع بشحوب وجهي، جاء بالصعفران الذي يلون به الأرز وأذابه بالماء، وأخذ يمسح به وجهي، وأنا طوال هذا الوقت، أمسك بالمرآة، أحاول أن أرى وجهي وما يحدث له. ثم سألني عن كلمة انتحرت بالعربية. نهضت أطلب سهى وأنا أفكر بأنه لا مرادف لهذه الكلمة في العربية، لا أستطيع تخيل أحد يأخذ روحه في هذا البلد. لا داعي لذلك. وكعادتها نسيت سهى تقاربنا في المدة الأخيرة وزيارتنا إلى صيتة قبل أيام. إذ

أجابتني باقتضاب أنها مشغولة وأقفلت السماعة. عدت أطلبها وأنا أشتمها في داخلي، أخبرها بأني سأضع النقاط لمعاذ بعد قليل. ولما شعرت بحماسها من جديد، سألتها عن مرادف لكلمة انتحرت بالعربية، سألتني بسخرية إذا كنت سأنتحر؟ ثم طلبت مني إخبارها ماذا سوف يحدث لمعاذ.

رددت كلمة «انتحرت» بالعربية مراراً قبل أن يتعلمها رينغو ويحفظها وكانت هذه الجملة: «يا عمي معاذ مدام سوزان انتحرت»، ثم أوصاني «بأن لا أفتح عيني ولا أجيب معاذ إلا عندما يقسم لي أنه لن يفارقني بعد الآن».

وجدتني أضيف: «لا، يجب أن يتزوجني. كما كان يطلب مني أم تراك نسيت؟»

مشى رينغو صوب الباب وقال: «كيف أنسى، كان يلحقك كدبّور يفضحه أزيزه».

ارتحت لجملة رينغو هذه رغم أني لم أفهم التشبيه. ولم أتمدد طويلاً على الكنبة، أو ربما لم أشعر بالوقت، إذ عدت إلى الموضوع نفسه: أريد إعادته لي، وأريد الزواج به، ولو زوجة ثانية.

لو وقفت أمام المرآة، ورددت هذا قبل أشهر، لربما فكرت بأني امرأة تخطيت درجة الضياع والانهيار العصبي، ودخلت خانة الجنون، زوجة ثانية لمعاذ الصديق؟.

لمّا سمعتُ هدير السيارة يتوقف، أغمضت عيني، أسمع صوت معاذ قبل أن أسمع صوت الباب. «كافرة، لا تؤمني بالله، ستدخلي جهنم» ثم ولما قال بالإنكليزية: You Crasy, you Swicide? داهمتني رغبة للضحك. إنه يعرف الكلمة!! لما هزني، ما استطعت إلاّ أن أفتح عيني، وأخذت أبكي. وبدلاً من أن يحزّ بكائي به، أخذ ينهرني قائلاً: «إن كل من يحاول أن يأخذ روحه غير منتظر مشيئة الله يدخل جهنم». ولما بدأ يتحسر عليّ وعلى دخولي جهنم، اقترب رينغو يمسك يدي ويشير إلى معاذ هازّاً رأسه متأسفاً.

لما أمسك معاذ ذراعي، وجدتني أغتنم الفرصة وأحيطه بذراعي

الاثنتين وأبكي بحرقة. كلما بكيت، كلما ألصقت صدري به. ونفثت بأذنه كالحيّة، بأني لا أستطيع العيش من دونه ولماذا تركني، وأين اختفى حبه لي؟ وصدق تصميمي، استطعت إثارته كما تخيلت وبسرعة، لأنه التفت إلى رينغو ضاحكاً: «الله يخرب وجهك، أعطيني الشاي البارد». ولما اتجه رينغو حتى باب المطبخ، دقّ جرس الانذار في عقلي وتخيلت ما سوف يحدث بيننا ربما وقوفاً، ربما لحظات، كمن يفرغ حمولته ويغادرني. عندها، لمعت صورة المرأة الهندية الممسكة بشعرها الطويل على قنينة صيتهْ وأنا أسترجع جملتها: «إذا ما نفعت ما ضرت».

لا أسمع صوتاً، لا بد أنه حزر طعمها، ربما لجأت فاطمة إلى صيته وإلى هذه النقاط، لذلك لا يود فراقها رغم شعرها المزيّت وأسنانها الصفراء لكنه يدور في غرفة الجلوس، يقف أمام موديل الطائرة التي يركبها ديڤيد. ما أن رآني حتى مدّ يده ينتشل الكأس من يدي ويقول: «يا سوسو والله العظيم، مشتاق، قوليلي من فين اشتريتم هذه الطيّارة، لازم هي أكبر واحدة، لسّه ديڤيد يروح الصحراء ويطيّر؟». ووجدتني أجيبه بضيق كالعادة: «قلت لك مائة مرة ديڤيد لا يشتريها، يشتري فقط الموتور، وهو يروح الصحراء ويطيّرها كل جمعة».

ووجدتني أضحك عن قصد، ألوم نفسي لماذا أجبته بضيق، وأذكّرها أن أيام دلعي وثقتي بنفسي التي استمددتها من حبّه قد ولّت.

مدّ يده إلى صدري وقال: «من زمان ما أكلنا رمّان» ولما استفهمته ما هو الرمّان أخذ يشرح لي وأنا أهزّ رأسي دون أن أفهم تماماً ما هي الثمرة الشبيهة باللؤلؤ والتي إذا زلقت أحد حبوبها على الأرض ما أدخلنا الله الجنة. ولما عاد يضع كلتا يديه على صدري، تمنّعت، بحجة أن ديڤيد سيأتي بعد قليل. ظهر الحنق على وجه معاذ لدرجة جعلتني أتساءل لماذا هو لا يتصل بي إذا كان به هذا الشوق.

ولمعت قنينة صيته في خيالي، كذلك وصيّتها بأن يمر ساعات أو ليلة عن هذه النقاط (حتى جسم الرجل يشتعل، وكأن في أسفله قرون فلفل).

صاح بي: «لا تكذبي يا سوزان، الكذب حرام، ديفيد لا يجي الظهر»، وجدتني أقسم بالله تماماً كما يقسم وأخبره أنه حين أنقذني رينغو من قصّ شرياني، ذهب إلى ديفيد أيضاً ولما لم يجده ترك له خبراً.

وانتبهت وقتها فقط، أنه من المفروض الآن أن تكون قصة محاولة انتحاري هي موضوع هذا الصباح لا شيء آخر، أو لأني أعرف بزيفها نسيتها وما أعطيتها أية أهمية.

قال: «أبغي شاي بارد كمان يا سوسو، عشان ما في رمّان، أشرب شاي».

لماذا لا يحاول مرة أخرى، أم إنه ما عاد يحبني. اقتربت أعانقه وألصق به وأقول له كم أنا مشتاقة. لما قرّبني منه أكثر، فهمت أنه ما زال يشتهيني سواء أوصلت نقاط ضيته دماغه أم لا. وأن الذي حصل بيننا أثناء سفرنا ليس مهماً. ولأنه قادر على أن يعصرني ويشدني إليه لدقائق ويرتاح انسحبت كما تنسحب السمكة من شباك الصيادين وقلت أغريه: «آتي بالويسكي». وأنا أفكر أني لطالما حلمت بأن أكون بين ذراعيه، ولطالما فكرت بلذّتي معه. مع ذلك فأنا الآن لا أشعر بالاشتياق ولا بالرغبة، فهل الشوق ليس إلا نتيجة هجره.

جلس يشرب. وسألني: «فين هالغيبة الطويلة يا سوسو؟» وقبل أن أجيبه مدّ يده يريني ساعته الجديدة.

وما صدّقت أنه في هذا الدهاء. وما صدّقت أنه هو معاذ، يسألني عن غيبتي الطويلة، لكنه قفز بسرعة وأمسكني يجرّني عن الكنبة ويقول: «لا أقدر يا سوسو أستنّى، تعالي نطلع فوق، نخش الحمام، نوقف وراء الباب». ووجدتني أدفشه عني وأقول له: «كيف استنيت شهر؟».

ضرب كفّاً على كفّ ثم ضرب يده برأسه وقال: «يا معاذ يا بن الكلب، شهر وأنت لا تتبارك بعطر سوسان، وبشذى سوسان، يا سوسو، أنا رحت البوادي، زرت أمي وهي تعبانة، تعبانة، وبوي تعبان، ورحت رحلة صيد

غزلان مع القرايب». ربما يقول الحقيقة، ربما زار أمه لمدة عشرة أيام. لما ما علّقت بكلمة واحدة، ظن أني سأوافق بعد قليل، وسنصعد الطابق العلوي، أو ندخل الحمام أو نقف خلف الباب لأنه أضاف كمن يبرر: «لما رجعت، جونا ضيوف من البادية». وسألته وعيناي تختزقان عينيه تحاولان معرفة الحقيقة:

- وين الضيوف ببيتكم؟

سأل: «ويش تقولي؟ في بيتنا إلا في الشارع؟».

رفعت كفي في الهواء لأسكته.

كرع الكأس الثالثة، وقال: «ويش قلت يا سوسان، نطلع فوق؟».

أجبته وأنا أسمع صراخ الأطفال في الحديقة: «لا، نروح الحديقة ما رأيك؟».

أخذ يضحك ويقول: «الله زي قرود إمام اليمن، لما رحنا نزور بيته اللي صار متحف، شفت قرود في الجنينة فوق بعض، زي البني آدمين، سبحان الله ولا هو فارق معهم أحد».

قلت له بلؤم: «أنا شفت الضيوف، مرة زرت فاطمة وشفتهم».

ردّ بكل بساطة: «والله ما قالت لي فاطمة يا سوسان، لازم نسيت، أولاد ومشاكل والصغير يعذبها، لسّه ياكل تراب، ويموت بأكل التراب».

خاب أملي بنقاط صيته، إذ هي بذّلت به شيئاً جعلته أكثر اتزاناً. إلا أنه سألني وهو يضحك: «شفت عائشة وجمال عائشة؟ ثلاثة يبغو يتزوجوها وهي ترفض عايزة تتزوج في البلد، لا عند البدو».

هززت رأسي رغم تقلّص قلبي وهو يتابع: «تسوق تراكتور، والروفر، لما خفر البوادي قالولها ممنوع مرة، قالت: «امنعوني، وانتو جيبو صفائح الماء على الجمل ومؤون الشتاء». وهي تيجي البلد كل ثلاثة أشهر».

شعرت بأن كلامه عن عائشة ليس عادياً، أصبحت أفهم معاذ، سألته: «هل ترضى عائشة أن تتزوجك؟».

أخذ يضحك، يضرب كفاً على كف حتى اختفت عيناه من وجهه، وبانت أسنانه البيضاء التي تشبه اللؤلؤ، وقال بلهجة السؤال: «لازم فاطمة قالتلك؟» والله نمزح يا شيخة سوسان، والد عائشة معشراني وبدوي صميم، يضرب بعقاله، وضربة منه تهرّ الإصبع. وهو متّكل على الله قبلاً، ثم عليّ حتى يتزوج سعاد، قال لي الممرضة سعاد تحبه وواقعة بغرامه لما كان يتداوى في المستشفى الحكومي هنا. سألته عائشة كيف هو عرف أن سعاد تحبه، قال: «بأنها تغسل له وجهه وتبدل شراشفه وتأتيه بالأكل الساخن وتساعده حتى في الأكل ولا تقرف منه ودايماً مسرسبة تأخذ حرارته وتفرك الميزان بفوطة تعلقها في خصرها حتى يبقى أثره معها». وقبل أن يغادر المستشفى قال لعائشة إنه يريد الزواج بها. وعائشة الملعونة قالت له: ما يخالف، وخبرت عائشة الممرضة اللبنانية سعاد، صارت الاثنتين أصحاب وأحباب بيضحكوا على الشيبة. لما شفي والد عائشة وأخذوه البادية، علقت سعاد بضميره، وصار يقول لأولاده ما يجوز، البنت سعاد مستنية الوعد، ولازم أفي بوعدي، خذوني البلد، أو جيبوها الصحراء، ولمّا عائشة قالت له أن سعاد تحضر نفسها للعرس. صار الوالد يتلو الأشعار على بدوي يتعلم القراءة والكتابة، ويلف النقود في ورقة الأشعار ويعطيها لعائشة قائلاً: «النقود لكسوة الشتاء، لسعاد، لأني شايف سحابة تلحق السحابة، والهواء البارد سيهب بين لحظة ولحظة».

أدركت ما ينتظرني، وصرخت: «وأنت تحب عايشة وهي تحبك؟».

وما اهتم معاذ لاتهامي له بل أكمل قائلاً: «اسمعي، قلت لعائشة ما تلعب على والدها يمكن اليوم يموت فقع على سعاد، أو يمكن يمشي في الصحراء عايز يروح البلد ويتوه...، كل يوم يقول لعائشة خذيني، سعاد مستنيتني».

عدت أسأله: «أنت وعايشة تحبو بعض؟».

ضحك وقال: «نطلع فوق، وأنا أقولك».

أجبته: «أنا تعبانة». وما ظهرت الخيبة على وجهه، بات يعرفني جيداً. اقترب يشدني من يدي حتى وقفت. رغم أني في العادة أستسلم للمسة واحدة وأحياناً لنظرة. وجدتني أفكر بعيداً عنه، بأن الرغبة هي أيضاً فكرة في الرأس، شعرت كم أنا قوية الآن، وكيف هو يحتاج إليّ.

وهمس: «معلهش، نطلع فوق، أنت عارفة..».

سرت أمامه حتى الباب، فرحة بأني عدت أمسك مفتاح علاقتنا وقلت: «أنت تروح الحين، وبكره استناك». اتجه إلى زجاجة الويسكي يرشف منها. أبعدتها عن فمه، وأنا أسأله بلؤم عن حالة ابن عمه محمد (وكان الطبيب قد غرس في جسمه آلة صغيرة تساعده على رفض المشروب)، رد معاذ ضاحكاً بأن جسم محمد قد اعتاد على الآلة وحتى على الشعور بالغثيان الذي تحدثه وهو لا يزال يكرع الكأس كأنه يشرب الماء.

يستأذن ليدخل الحمام، أعرف أنه يريد الاختلاء بنفسه. كعادته كلما سكر أو رأى صور النساء في المجلات. وما دعوته، بل تحججت بأن جيمس سيصل بعد لحظة، وسرت معه حتى الباب، أبتعد عن قبلاته وأودّعه.

رغم شعوري بالانتصار إلا أنني فكرت بحزن بأنه لا بد من إيجاد طريقة حتى أتزوجه. ويبدو أن الفرصة فاتتني. ما عاد معاذ تلك الثمرة الناضجة، المتدلية من شجرة في وسط الطريق، لقد تبدّل حتى سكره بدا محتملاً، هل كان يرضى في الماضي مغادرة البيت وهو على هذه الحالة؟.

كانت الخمرة تطير عقله، وتجعلني في حالة استغراب وانذهال لما يجري له. مرة تكوم على رمل الصحراء وغفا. شعرت بالرهبة في ظلمة العراء ومن السكون، ولما حاولت إيقاظه فتح عينيه وما عرف أين هو. كأنه ما تبينني، أو نسيني، إذ رماني بالقنينة الفارغة، ثم جرى خلفي. وجدت نفسي أزحف وأختبىء خلف السيارة، وأنا أسمعه يناديني بالجاسوسة الإسرائيلية، ويسألني كيف تعلمت العربية بهذه السرعة، ثم يهوي على الرمل مرة أخرى

وأسمع شخيره. التفتُّ حولي، وأنا أشعر بالخوف حتى من القمر ومن النجوم. وأيقنت أن النور المتحرك الذي أراه من بعيد هو قافلة، وما كان إلا سيارة، إذ سمعت هديرها وأخذت أهتدي به وبأنوار أخرى حتى تسللت إلى الطريق العام. وقتها عرفت أن الدماء تنزل من جبيني وأني تركت حذائي هناك. أوقفت شاحنة، بعد أن رافق صراخي إشارة يدي. وكأن السائق ظنني من بعيد جملاً تائهاً، لأنه ما أن رآني وسمعني أقول: «من فضلك بيت، من فضلك»، حتى فغر فمه، وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» وتلفت حوله. وحين لم يفتح لي الباب، قلت له برجاء: «أنت تفتح الباب؟» ولما لم يتحرك، درت أفتح الباب وأدخل الشاحنة. ولبث ينظر إليّ وكأنني لست حقيقية. وربما تبين أني حافية وربما لا. ووجدتني أردد: «شكراً أخوي» جملتي هذه جعلته في حيرة تامة. إذ عيناي الزرقاوان وشعري الأشقر لا يتماشى مع عربيتي ولهجتي الصحراوية. لما وأخيراً قاد السيارة ارتحت لكن للحظة. إذ كانت يد واحدة على المقود، والأخرى على فخذه، بينما تنتقل نظراته من وجهي إلى جسمي. كنت قد شعرت بألم في جبيني منذ أن رماني معاذ بالقنينة وأهملته. تحسباً لما أخشاه وجدتني أرفع يدي إلى جبيني متحججة، لما رأيت عليها مسحة دماء. زفرت أتصنع الخوف، وانهمكت بمسح الرمال اللاصقة بوجهي وبشعري. سرعان ما تأكدت ظنوني. إنه يفكر في شيء واحد، من طريقة تحديقه إليّ، ثم تخفيف سرعته. رفع يده عن فخذه ليضعها إلى جنبي. ووجدتني أقول: «الله أكبر، الله أكبر»، وأنا أنظر إلى الدم الذي علق على يدي، وأضرب وجنتي، تماماً كما رأيت النساء العربيات يبكين الميت. ولم أتوقف عن القول: «الله أكبر، الله أكبر»، ثم «شكراً شكراً» وأنا أدله على الشارع الذي أسكن به مستعينة بيدي وبكلمة شمال، أو يمين، ثم لأصيح: «هنا أخوي». أفتح الباب وأنزل وهو في حالة ذهول. وعدت أراه كل يوم في شارع بيتنا وحيداً أو مع آخرين، يدور في شاحنته متمهلاً كأنه يبحث عني وأحياناً بجنون كأنه يلوم نفسه على ضياع الفرصة.

- ٢ -

عاد معاذ قبل أن أنتظر عودته، كنت قد قضيت طوال بعد الظهر في وسوسة وحذر، أفكر أنه لا بد قد اصطدم بشجرة، أو بعمود كهربائي، وهو الآن منزوٍ في السجن بسبب السكر. هو أمامي، وكل خلية وكل نقطة من دمه، وكل عظامه ومسامات بشرته وأنفاسه، هجرت مكانها وانصبت هناك. كأنه ما عرف كيف وصل إلى بيتي، ورأيته يزأر. ثم يقبل قدمي، يحاول أن يأكل لون أظافري، ولما بقي اللون أحمر عضه وقال إن طعمه أحمر، ثم شدّ شعري وحدث نفسه:

«ماني فاهم، طيبها، لا عطر ولا بخور ولا عود» وناداني سوزي، سوسو، سن سن، سعاد، وما وعيت بجسمه هذه المرّة، رغم شوقي إلى اللذة، كنت أنتظر اللحظة إياها، حتى أهمس له أني زوجته، وأنه يجب أن نتزوج. وفعلاً كأني لقنته بما أوّد سماعه، إذ أخذ يقسم صائحاً بأنه سيتزوجني وبأني امرأته، وبأني سوزان العمر، وأنه بدوني بعر الجمل ومسواك الأسنان، وأنه بدوني ليس رجلاً بل هو مخصيّ، وقال لي كيف أنه رآني عارية، أمر من باب مكتبه، وكيف وهو يوقف سيارته رأى صدري يتدحرج أمامه. وما سكت، وتركته يصيح، ويتحدث عن شعوره، بينما دخلت الحمام أسوّي شعري، أنظر في المرآة غير مصدقة ما يجري، أعيد صبغ شفتي، وأمر بالبودرة على وجنتي ورقبتي وأرش العطر أينما كان حتى على

فخذي وأفكر: فلتعش صيته أو طب الأعشاب أو السحر. ثم طافت في رأسي قنانٍ مصفوفة، في أهم المحلات في أميركا تحمل اسمي وصورتي. ورأيت نفسي أتحدث عبر التلفزيون، عن الوقت الذي قضيته متنقلة بين الصحراء والقرى، من قبيلة إلى أخرى، حتى أجمع الوصفات تحت كلمة الحب. ثم رأيتني في عيادة خاصة بي، أرتدي المريول الأبيض، وحولي كل ما عند صيته، إنما في زجاجات تشبه زجاجات الروائح الباريسية. وتهت أرى نفسي أيضاً تماماً كالنساء الأجنبيات اللواتي جمعن المجوهرات الفضية القديمة والملابس البدوية وأصدرن كتباً، تحمل صورهن على الأغلفة...

سمعت دقاً على الباب. خرجت. لم أجده في الغرفة. كان يختبىء خلف الباب، ونزع عني المنشفة وأخذ يلتفت في أنحاء الغرفة. كيف يبدأ وأين، على السرير، على الأرض، يفتح الستارة ثم يغلقها، في خزانة الملابس، وقوفاً، جلوساً. وكان ينتقل ببؤبؤ عينه الأسود كالصقر، عينه تلحق بأفكاره، والحركة تتوقف لاستحالة ما يفكر فيه. وأنا طائرة في الفضاء، فقط عيني على الساعة، مترقبة عودة جيمس من المدرسة، حتى أصبحت أداة في يديه وطوع خياله. وما تركني إلا لما غالبه النعاس. ثم لأجلس كحارس لا أدع أي ضجة تتسرب إلى الغرفة حيث نام، بينما جلس جيمس فرحاً بعودة معاذ لزيارتنا يحاول عدّ شخيره الذي ملأ البيت كله. وجدت نفسي كامرأة بدوية تجلس وابنها في حضنها، تبعد عنه الذباب وتعطيه ثديها طوال النهار والليل، حتى يبقى صغيراً ومكتفياً بحدود صدرها وحضنها.

عادت إليّ ثقتي بنفسي وما عدت بحاجة إلى الاستنجاد دائماً بالمرات الأولى لعلاقتي بمعاذ حتى تمدّني بالثقة، وتجعلني أتيقن أنه لا بد أن يعود إليّ، رغم أنها كانت ثقة مؤقتة، سرعان ما تتحول إلى قهر. وكنت أبدأ دائماً بتذكر الصقر الذي تركه في غرفة المكتب واقفاً على خشبته. كانت عينا الصقر حذرتين مخيفتين تتحركان كلما تحركت، أم ضربت حرفاً على الآلة الكاتبة. وكان المكتب فارغاً حتى من أحمد، الذي ذهب مع

صاحب الصقر. ما عدت أحتمل نظرات الصقر، وأخذت أشتمه وأنا أفكر في طريقة ما لأعود إلى بيتي. استجمعت كل شجاعتي ونهضت لأخطو خطوة واحدة. تحرك الصقر، رفرف بجناحيه كمن يريد الطيران، وكان صوت رفرفته عالياً. عدت ألتصق بالحائط رغم أن الصقر ما زال مربوطاً على خشبته. وما فارقته إلا عند دخول صاحبه، والذي ضحك لما استنجدت به. وما استطعت حفظ اسمه بسهولة، رغم حفظي لعينيه السوداوين الشبيهتين بعيني صقره اللتين كانتا تراقبانني طوال وقت زيارته لمكتبنا والتي أخذت تسلّيني بعد وقت. إذ ما عرفت من قبل، أن رجلاً كهذا ليس شخصية في فيلم سينمائي، إنما في الحقيقة. تتراءى لي الآن ابتسامته الدائمة وجلوسه أمامي ككلب أمين. ما أن أمد يدي إلى علبة السكائر، حتى يكون قد أشعل عود كبريت وأتى لي بالمنفضة. بعد أن يمسحها بأصابعه ويتأكد من نظافتها. يأتي بترموس القهوة وفيها حب الهال. يأخذ فنجاني بين يديه وكلما وضعته على الطاولة، يدنيه من قلبه وينظر إلى أعلى. لما كنت أضحك، كان يعيد لي الفنجان وهو يتمتم. لما سألته مرة ماذا يفعل؟ أجاب بالإنكليزية المكسرة، أنه يسحر لي القهوة حتى أبادله شعوره. كلما انتهيت من الطباعة وتنهدت، اقترب ينحني أمامي ويقول: «أجيب دكتور؟» إصراره على توصيلي هو ما كان يضايقني. كنت خائفة ألا يترك لأحمد المجال لأن يختلي بي. كنت أرده بعصبية. وكان يتصنع الغضب ويختفي لأعود أراه وقد سبقني إلى البيت. إذ أخذ يزورنا منذ اليوم الثالث لرؤيتي له في المكتب، دائماً محملاً بالهدايا. من قنينة كولونيا باهظة الثمن لجيمس الذي لا يتعدى الثامنة، إلى خروف صغير وغزال، ثم سلحفاة، وجلد ثعبان، سلة تمر، وشحاطات جلدية. كنا نلتف حوله، وحول هداياه، غير مصدقين ما نرى. الضّب الذي أتى به كان يعاركه، ثم يحادثه، كأنه يحادث إنساناً، وهو يحاول أن يبعد يده عن أسنانه وهو يسألنا إذا كنا نود أكله إذا هو ذبحه وطبخه، كان يدور في بيتنا سعيداً، حافياً، بعد أن يخلع شحاطته عند الباب، ليلمس كل شيء، ويسأل ماذا نفعل به، من ألعاب ابني، إلى خفاقة البيض الأوتوماتيكية، وأخذت أكتشف أنه يقف مسحوراً أمام هدير غسالة الصحون، يتساءل كيف تجلي الغسالة الصحون، وتفركها

ثم تجففها. وكيف يطبخ الفرن الدجاجة في أثناء غيابي، ويتوقف من تلقاء نفسه . بعد مدة، أخذنا نشعر أن علاقتنا معه ليست لقاء هداياه أو المجلات المصادرة لسياستها أو لعري النساء فيها، والتي كان يأتينا بها بحكم عمله. بل وجوده بيننا جعلنا نشعر كأنه هو البلد الصحراوي الغريب عنا. بينما اعتاد عليه جيمس وحسبه ضرورياً في حياتنا لأننا في الصحراء، كضرورة رينغو في البيت. بينما كان هو معجباً بحياتنا وبأغراضنا، بمعرفتي وباطلاعي، أقرأ له الورقة التي ترافق الأدوية. أرش من قنينة على لطخة ثوبه فتختفي، أجلس خلف الآلة الكاتبة، فأنهي السطور برمشة عين، دون أن أنظر إلى ملامس الحروف. أعرف الطرق وأسماء الشوارع بالعربية. أحب الأكل العربي، وأغمس لقمتي بالمرق، أُلِمُّ بضبط شاشة التلفزيون، أبدل نور السقف، وأدهن الحائط، أقرأ الكتب، وباستطاعتي قيادة شاحنة. اعتدنا على اللحم والأرز الذي يحضّره، وعلى أكله بيده، بعد أن يجمع الأرز، كأنه كرة صغيرة، ثم يقذفها إلى فمه، وعلى كرعه للماء من القنينة، وعلى شربه للويسكي عندنا وبالتالي سكره وغنائه، وعلى الدوران حولي وأسئلته الكثيرة التي تلحق فضوله. وكلامه بالإنكليزية غير المفهوم، ومناداته لاسمي، لدرجة أني أجبته مرة بحنق: «سوزان يورسلف»، ربما ما رأى وجهي، لأنه أسرع ينحني يقبل يدي مردداً: «سوزان يورسلف، أي أنت وأنا شخص واحد»، ثم قال إنه يحبني كثيراً، على امتداد الرمل والسماء وهو يقفز حولي. تخلصت منه ضاحكة، رغم شعوري بالارتباك، لحق بي إلى المطبخ وهو يصر على أن أزور زوجته فاطمة، ولما رفضت، قال إنه يوّد أخذ رأيي لاستحضار مطبخ أميركي، تماماً كمطبخي. وعرفت أنه يتحجج، ووجدتني أقول له، أعطيك اسم مطبخي، وأنت تطلبه من أميركا، وما أنهيت جملتي هذه حتى لمعت فكرة، لماذا لا أطلب له المطبخ من أميركا، وأستفيد مادياً، لماذا لا أكون صلة الوصل التجارية بين أميركا والصحراء؟ أخذت في خيالي أحسب ما سوف أكسبه. ووافقت، عدا أني كنت فضولية لأرى زوجته، بعد أن كان يتصل بها من بيتي، ويعطيني السماعة لأحادثها، بلهجة أقرب إلى الأمر قائلاً: «فاطمة Speak». ورفضت في البداية، إذ حرت ماذا أقول، ثم

استسلمت، وأنا أرى الخيبة على عيني معاذ، وعلى جيمس الذي تناوب على انتشال السماعة من يد معاذ والصراخ فيها: «ألو. ألو هيبي». وجدتني أقول: «هالو، فاطمة شلونش»، وأتاني صوتها على الخط الآخر كأنه تسجيل الساعة، أو الاستعلامات: «ألو. ألو ألو» ثم صمت ثم ضحكة: «ألو. ألو. ألو».

منذ اللحظة التي دخلت بها بيت معاذ، كأني فهمت سبب تعلقه بنا. لكني ما فهمت أو استوعبت موقف زوجته مني. وكانت صغيرة السن، ذات ابتسامة خجولة، لما مددت يدي أصافحها عانقتني وقبلتني ثلاث قبلات على كل وجنة، وقبّلت ابني، ثم ركَضَتْ إلى المطبخ. كان للبيت رائحة خاصة. بعد وقت، عرفت أنها رائحة البخور مع الأرز البسمطي مع الحر، والتي كانت في كل البيوت العربية التي زرتها، ما عدا بيت سهى. أجلت عيني في البيت، لم يكن هناك إلا الأثاث الضروري: السجادة الغامقة، الكنبات الداكنة، والغبار المنتشر فوق كل شيء والحرّ، إذ ما كان المكيف في الغرف كلها. ومعاذ كما في بيتي يجول بين المطبخ وحيث نجلس، ينقل الصحون وفناجين الشاي والفاكهة. التفت إلى فاطمة أقول: «معاذ في شغل بيت». أخفت أسنانها بيدها وهي تبتسم، وأجابت وهي تلتفت صوبه: «بس اليوم، عشانكم». فكرت، في أن هذا البيت لم ير شعراً أشقر من قبل، وأن معاذ لا يثق بزوجته لتقوم بالواجب تجاه الضيوف. فأنا شيئاً فشيئاً أخذت أفهم أني ضيفة مهمة من بلد نيكسون، من بلد الفرن الذي ينظف نفسه دون أن يدلق الماء. شعوري بأهميتي بدأ يزداد، كأن شعري الأصفر، والذي ينهدل بلا حياة حول وجهي، أصبح ذهباً براقاً. وكلامي كأنه الدُرر. إذ تعلق أعين أولاده بي وبابني، وتدفق الجيران، يسلمون علينا، ويجلسون يستفسرون من معاذ عن كل كلمة أقولها، ثم يبتسمون إطراء وتشجيعاً. وفكرت أنه ما من مرة استحوذت فيها على كلمة، أو حتى على نظرة إعجاب وأنا في بلدي. جلست فاطمة قبالتي، وقد انحنت إلى الأمام، كأنها تجلس على الكنبة لأول مرة، بينما غطّى فستانها الطويل فسحة الأرض أمامها. الغطاء على الرأس، البرقع على العينين، الحنة على اليدين والقدمين، تحدثنا بالابتسامات

الطائرة، ووجدتني أضحك، وأبتسم بلا مناسبة، وأشعر كأني أصغرها بسنوات عديدة، وكأني طفلة مدللة. تدخّل معاذ يحثها على أن تقدم لي المزيد من الكعك، إذ غطّ ابني على الصحون كرفّ حمام. بينما انزوت ابنتا معاذ، تنظران إليّ بدهشة. فقط، طفل معاذ الصغير، لم يأبه لوجودي، إذ ما توقف عن البكاء، لأن والده أقفل الباب، وهو ما زال على عادته يأكل تراب الحديقة. معاذ كما في بيتي، يسيطر على الجلسة بحركاته وبكلامه. ما اهتم بأحد عندما قال لي بالإنكليزية إنه يحبني على امتداد الرمل والسماء، بينما ابتسمت له فاطمة، ثم أبعدت يدها كأنها تعتذر لي عن حركات زوجها، رغم أنها لم تفهم ما قال، ربما حزرت من اكتفائي بدلعي وقولي له **Stop it**. بدت سعيدة، وقالت لمعاذ إن التسلية في بيتها اليوم، تفوق مشاهدتها للتلفزيون أو النزهة في السيارة. ابتسمت لها شاكرة، خاصة وقد لاحظت أنها تخفي بين طيّات فستانها شيئاً. إنها ربما كمعاذ تحب إعطاء الهدايا كواجب، أو حتى تشعر بالفرح. فضولي ازداد، تفرست في حركة يدها، حتى أرى ماذا تخبىء وما استطعت، لو لم يرغب ابنها الصغير في أن ترفعه بين يديها. رأيت علبة، علبة جللو، بينما معاذ أخذ يغني بالعربية، مشيراً إلى قلبه، مرقصاً عينيه لدرجة أني طلبت منه الكف، وأنا أبتسم لفاطمة السعيدة، المستأنسة للجلسة، لا بد أن علبة الجللو ما هي إلا الغطاء، لا بد أنها تضمّ شيئاً آخر، كما رأيت في سوق النساء، يضعن الذهب في علب حليب نيدو والفضة في علب التايد. ابن معاذ الصغير يرمي بعلبة الجللو، يلتقطها معاذ ويقول لي: «فاطمة تبغي تعلّميها تحضير الجللو، وهي خجلانة منك». نهضت بلهفة، محاولة إخفاء خيبتي، أخذني معاذ إلى المطبخ، بينما لحقت بنا فاطمة ببطء، وأنا أسير مزهوّة وفي طريقة جديدة غير مبالية لكمش عضلات مؤخرتي لأبدو أكثر رشاقة ونحافة كما هي عادتي. أحاول الشرح لها، لكنها تكتفي بالابتسام ولا تنظر إلى ما أفعله، بل كأنها ما كانت تسمعني، بل تهزّ رأسها، وتخفي أسنانها بيدها.

لما ودعتنا فاطمة، التي رافقتني حتى الباب هي وأولادها، مددت تلقائياً وجنتي إليها، وقبلنا بعضنا، ثم مدت رأسها عبر الباب، بينما خبأت

جسمها، رأيتها تضحك لما جلست في المقعد الأمامي، وأولادي في المقعد الخلفي، لتقول شيئاً لمعاذ، الذي أشار لها بيده لأن تختفي، ولما سألته عما قالت وأنا أفتح دفتري الصغير، أطلب منه كتابتها حتى آتي بمعناها من سهى أو من القاموس، وكانت «الناس عجائب غرائب»، هزّ برأسه وهو يكتبها مستحسناً. وما كان يدري أني أدرس اللغة العربية، لأني نويت الاستيراد، والدخول في المشاريع التجارية حالما تسنح لي الفرصة.

يقنعنا معاذ بالذهاب معه إلى قرية صغيرة، لنرى الجمل المولود في مزرعة صديقه. لم أمانع. غزل واهتمام معاذ بي يسليني، ورتابة هذه الأيام بحاجة إلى حدث كهذا الحدث. خاصة أنني لم أعد أرى أحمد.

لما نزع معاذ الحطة والعقال عن رأسه، ووضعهما على رأسي. رأيت رأسه وشعره وجبينه، ورأيت رجلاً. انتشلتها من على رأسي. مدّ يده يأخذها، لأشعر بحماوة تلسع يدي. لما ابتعد بالحرارة إلى مقود السيارة، تمنيت لو تعود إليّ، والتفت إلى جيمس في المقعد الخلفي أبتسم له كأني أعتذر لشعوري هذا. ثم عدت بنظري أراقب اليدين السمراوين والشعيرات السوداء. ثم لاحظت سرواله القصير الأبيض من خلال ثوبه. حدت برأسي أنظر عبر الزجاج، أفكر في أن محاولاته بالتالي، وجدت منفذاً إليّ، رغم اقتناعي السابق باستحالتها، لأني كنت قد أيقنت أنه يلم بعلاقتي مع أحمد، منذ اليوم الأول لمجيئه إلى المكتب مع الصقر.

لذلك سألته متصنعة اللامبالاة إذا هو يستطيع أن يجد لي عملاً، فأحمد ما عاد يرسل إليّ الأوراق. أجابني بأن التشديد على الحريم والشغل في ازدياد. ثم علّق بأنه يجب ألا أعمل. ولم يكن التشديد هو الذي دفع أحمد إلى الاستغناء عني، بل مجيء عائلته من مصر. أوشكت أن أسأل معاذ عن تاريخ رحيل عائلة أحمد، لكني توقفت، لأسأله إذا هو يراه. أجابني: «أحمد لهيان بالحريم والأولاد»، وفهمت أن معاذ يزوره في المكتب فقط، إذ لا اختلاط في الزيارات بين الرجال والنساء. ثم سألني معاذ فجأة، إذا كنت أرضى بالسفر معه، حدجته بنظراتي، لكنه كان يقولها بكل بساطة، لما سألته:

«لماذا؟» قال: «والله ماني شايف غير الرمل والبحر»، ثم أعقب يسألني: «يمكن أفضل لما تروحوا أميركا إجازة، أنا أزوركم وتفسحوني، أنت في النهار وديڤيد في الليل»، وما استطعت إلا أن أفكر، وما استطعت إلا أن أتخبط ولا أصل إلى نتيجة، كيف هو يغازلني، ومع ذلك يزورنا ويتحدث مع ديڤيد، بل إنه وطّد صداقته معه، ويأخذني أزور زوجته، وهي تستقبلني أحسن استقبال، رغم معرفتها بتردده علينا وسهره عندنا. هل تحررهما أعظم من تحرري أنا وديڤيد؟. وما أجبته، رغم تفكيري بأننا وضعنا فيه بذرة الفضول، في دنيا لم يفكر فيها من قبل. ووجدتني أتمنى الاختلاء به في هذه اللحظة، منذ أن توقفت خلوتي مع أحمد، كأن غرف البيت انكمشت وصراخ الأولاد في الكمب بوند أكثر ارتفاعاً، ومتطلبات جيمس أكثر استحالة. أخذت أشعر بالحاجة إلى الخروج من البيت، والتحدث مع أي أحد أصادفه. مع الجارة قبالتي، ثم الصعود في السيارة، لأطلب من السائق أن يدور ويلف بنا. نذهب إلى المخزن، نشتري ما يطلبه جيمس، وما تطلبه شهيتي، والكثير من المواد الأميركية وإن لم تلزمني، دون الاهتمام لارتفاع سعرها. بل شعرت أن المال هنا لا قيمة له. وما كنت أفكر بزيارة النساء هنا، ما كنت أجد ما أشتكي منه أسوة بهن، فأنا لا أتضايق كغيري من صوت المؤذن عند الساعات الأولى من الصباح، ولا إقفال الأسواق على عدد مرات الصلاة، عدا أن حياتي هنا تختلف، واختلفت حتى منذ الليلة الثالثة لوجودي في الصحراء. إذ فتحت عيني مذعورة على صوت، لا هو غناء، ولا هو خطاب، ينبعث من مكبر الصوت. لأجد نفسي عارية في حديقة، عالية السور. ألتفت حولي بجنون، أبحث عن ملابسي، لما وجدتها مطروحة قربي، أخذت أفكر بزوجي، ثم خبأت بطني بيدي، قبل أن أمدّ الأخرى وأسحب ملابسي. ماذا حدث لي؟. أين ديڤيد؟، لما وقفت بصعوبة، عرفت أني شربت كثيراً. ولم أتمكن من السير إلا ببطء، رغم تلهفي على معرفة ماذا حل بديڤيد. دخلت البيت، ورأيت صاحب الشركة، يغط بالنوم على الكنبة. رأيت آثار عشاء البارحة، الأقداح وفضلات الطعام وأعقاب السكائر والكاسيتات. تذكرت فيلم الفيديو ورفضي النظر إليه في البداية، ثم ضحكي

وطلبي لرؤيته. وأنا سعيدة لا أصدق هذا الاهتمام بي، والصحون الكثيرة التي غطت الطاولة، والخادمان واحترامهما لي وهما يقدمان لي المشروب، وإيعاز صاحب الشركة للسائق بأن يأتي بمسلسل «دالاس» من عند صديقه، فقط لأني سألته، إذا كان رأى هو الحلقة الأخيرة. ما عدت أذكر إذا حدث هذا قبل أو بعد مغادرة ديڤيد الحفلة ليطلّ على جيمس، هل عاد، ورآني أشاهد الفيلم فانصرف غاضباً؟ جلست أزيح المنافض والصحون، لربما استيقظ النائم على الكنبة. كان الفجر بدأ ينقشع. نظرت عبر النافذة، ولم أر سوى السور العالي، الرجل لا يزال نائماً، اقتربت من الباب أفتحه بالمفتاح، فلم أبصر سوى سيارته. تركت الباب مفتوحاً، ونزلت حتى الباب الخارجي وفتحته، لم أر غير قلّة من البيوت. النور يكاد يلسع العين عدت إلى البيت أدخله وأغلق الباب ورائي، محدثة جلبة. وهنا نهض الرجل، الذي لم يفاجأ برؤيتي، بل ابتسم لي. سألته بخجل عن زوجي فردّ ببساطة: «ديڤيد ذهب إلى البيت». أوشكت أن أسأله أكثر، لكني ارتبكت وسكتّ. وقف هو يبحث عن مفاتيح السيارة، يدي على أكرة الباب. وضع يده فوقها ثم انحنى يقبلها ثم يقبلني عند رقبتي، لأشعر بانتفاضة خفيفة عند فخذي، تراجعت، ولم أستطع رغم توتري، إلا أن أشعر بدفء أسمر. استسلمت لقبلته ثم ليديه ثم لجسمه وغمرتني سعادة عظيمة رغم تشوشي، وحاولت أن أسترجع اسمه وما استطعت، ووجدتني أسأله أن يكتبه على ورقة، لكنه ما رضي. بل حفظني اسمه وكان أحمد. كنا قد تعرفنا به في الصباح، لما رافقت زوجي لنشتري المعلبات والطعام، وأثاثاً مستعملاً من عنده. ولما دعانا إلى العشاء. فكرنا أننا نحلم، وبأننا محظوظون لانتقالنا إلى هذا البلد، إذ الناس هنا أكثر اهتماماً بالآخرين.

يسألني جيمس إذا كان باستطاعته لمس الجمل. أجاب معاذ عني، بأن أم الجمل تعبانة، وربما تعضه إذا هو اقترب منها، وهو يفتح فمه ويعض يده لزيادة التأثير. وما اهتممت برؤية الجمل المولود، ولا بالجمل الأم، ولا بصاحب معاذ، ولا بالنساء اللواتي يراقبنني من عبر شقوق الأبواب رغم أغطيتهن المسدلة على الرأس وجانبي الوجه. حتى أكلي للتمر وشربي لكوب

الشاي كان بلا لهفة. إذ هيجانه للتوق لي كان ظاهراً منذ ركوبي معه في السيارة. جعلني أفكر بالأوقات الممتعة التي كنت أقضيها مع أحمد والتي هي لا تقارن بأي سعادة أخرى، وجعلني أطلبها الآن وبصورة ملحّة. كان يقود السيارة، عائداً بسرعة جنونية، كأنه كلما أسرع اقترب مني ولامسني. ولما وصلنا، دعوته لشرب الشاي. لاحظت أن شرايين يديه بارزة، وأنه يعصر الساق فوق الأخرى. لما اقتربت منه أضع الشاي أمامه. تعمّدت الانحناء بوجهي وصدري قبالته. سألني إذا كان عندي حبة أسبرو. عرفت أنه يودّ اللحاق بي إلى المطبخ، رغم المخاطرة بأن يدخل علينا أحد. أمسك ثديي ومرغ وجهه، ليلصق بي ثانية واحدة ويرتاح. تضايقت وتساءلت ماذا كنت أنتظر ونحن في المطبخ؟.

ما فكرت وأنا أشق فخذي أول مرة، ماذا يفكر عن علاقتي بزوجي ولماذا يغمزني باستمرار، ويسألني أن أتزوجه وهو يضحك. بل كنت أراقبه وهو يغمض عينيه، راخياً جسمه، قائلاً إنه الآن يرحب بقدوم عزرائيل. ولما ما فهمت قصده، فسّر بأنه لا يريد من الحياة شيئاً، بعد الآن. وكنت قد أيقنت في البداية أنه يمثّل، إذ لما رآني عارية شهق، وضرب رأسه بيده قائلاً بمرارة: «لماذا خلق الله النساء الأجنبيات على شكل آخر؟». لما سألته كيف هو جسم زوجته فاطمة، ما أجابني، بل كان يمر بيده على لحمي ويقول: «حرير، حرير»، لما صدر عنه خوار كالثور، كدت أضحك. وقال إنني الحور اللواتي يعد الله المؤمنين بهن إذا دخلوا الجنة. أمسك حتى بقدمي يشمها ويتمتم: «أذكى من العود والبخور»، أخذت أضحك، وكنت مرتاحة، الستائر مسدلة، وعتمة خفيفة كانت تغلّف الغرفة، وكانت الساعة الحادية عشرة، والبيت سيبقى كله ساكناً حتى الساعة الثالثة.

وجدت نفسي لا أتوقف عن الضحك، رغم مناداته لأن أكف، وأنا لا أتمالك نفسي أمام ما يفعله بجسمي. كأنه رجل وثني في معبد، يشعوذ بكلام لا أفهم معظمه، ولا أفهم حجزه لي، فهو يأبى لي أن أتحرك أو أن أغادر السرير أو حتى أن أغطي نفسي.

وجدته ينهض، ويصرخ بي، رغم أني رأيت شرايين وجهه البارزة، إلا أني ما توقفت عن الابتسام. ولما اشتد غضبه، ورأيت وجهه المعبر ويديه تهتزان، فكرت: لا بد أنه يشاهد الأفلام الصامتة. إذ عيناه السوداوان تكادان تثقبان الشاشة أو وجهي. وما استطعت حزر ثورته إلا لما سألني وهو يكاد يبكي لماذا كنت أضحك. وما قلت له إنني أضحك لأن مبالغته في تمثيل الإعجاب بجسمي وطريقة حبه لي تثير الضحك. بل اكتفيت بالقول إنه لا داعي لكلامه، وتصرفاته هذه، لأني سعيدة معه. لأعرف بعد وقت أنه كان صادقاً في تصرفاته، وبأني مارلين مونرو الصحراء. إذا تحركت أو جلست أهجت. وإذا سرت أهجت. وإذا تكلمت، فهناك من يجمع كلماتي كأنها قبلات. أرادني ويريدني على الرمل. في البيت المهجور. في الصحراء بلا أبواب. في الواحة، منتظراً نصف الليل، واضعاً قربه عصا كبيرة حتى إذا فاجأنا أحد. يريدني في خيم الشعر، أيضاً عند أمه، بعد أن يشرب حليب الناقة وتنام أمه. في بيتي، في حمامي، في سريري، وتركت نفسي، أتباهى بامتلاء جسمي. غير مبالية بالعروق الزرقاء، البارزة عند أعلى قدميَ وفخذيَ. وما عدت ألبس المشدّ. معاذ يمسك طيّات اللحم، وكأنه يكمش الذهب في مغارة علي بابا. إلا بطني، فكنت دائماً أحتال حتى لا يراها في وضوح النهار. وأجدني دائماً أزيح يده عنها. أو أغطيها بالشرشف. وكمكتشف أخذ أخيراً يتمتع بما اكتشفه، إذ كان قبلاً يريد أن يعرف إلى أين سيؤدي توغله. أخذ يلاحظني، ليسألني مرة، إذا كان رؤيته لسرّتي محرماً في أميركا. تصنعت الضحك. ومع ذلك بقيت يدي تخبىء بطني، ثم قال: «يمكن في بيبي؟»، وضحكت وأنا أهزّ رأسي نافية. ثم وجدته يسحب يدي بقوة، مستعيناً بقدميه فوق فخذي. ولما لم ير سوى اللحم استغرب. وأنا استغربت، أنه ما علّق على الجلد المتشقق، ولا على الخطوط العريضة البيضاء، والبنيّة الغامقة، ولا على تجمع اللحم الرفيع حول السرّة. لكنه ما اهتم لسماعي، وأنا اخبره عن خجلي من بطني منذ أن أنجبت ابنتي الثانية، بل انحنى يقبله. قلت له وأنا أجمع اللحم إلى جهة واحدة، ويبدو بطني أملس كما وأنا فتاة، بأنني سأجري له عملية. اهتم معاذ بموضوع بطني مجدداً وشهق، وقد بدا تعبير

وجهه كرجل يستنكر: «أعوذ بالله. الحمد لله ما في مرض». وعاد يقبل بطني بشراهة وبتصنع، كأنه يقنعني بأن لا غبار على جماله. بينما تهت أبعد الفكرة بأن بطني كان هو عدم رغبة ديڤيد بي، كذلك امتلاء جسمي. وما كان لبطني أدنى التأثير على انسجامي مع معاذ، رغم أني في بادىء الأمر كنت أسيطر على جسمي كأرنبة البلاي بوي التي عليها أن تتصور. لكن طريقته جعلتني أشعر أني أرنبة وأريد أن أنتشي. وما حسدته مرة، لأنه ينتشي كما كنت أفعل أحياناً مع ديڤيد، أو مع قريبي الذي كانت لي معه علاقة عابرة، أو مع أحمد. وما مرة مثلت معه الانتشاء، وفتحت عيناً واحدة لأتأكد من أنهم يروني أرتعش. كنت معه أنتشي بصمت، غير خائفة من أن يتركني وأنا لا أزال أشعر بفراغ. إذ كان يريدني دائماً مرة أخرى من جديد، ولوقت طويل.

- ٣ -

مرّ يومان، منذ أن عاد معاذ إليّ وصخب نقط «صيته» في رأسه. وقتها، لما نهض ناداني: «مريم» وقال إن اسمي منذ هذه اللحظة هو مريم لا سوزان، وسألته، وأنا أتصنع النعومة والراحة: «مريم العذراء، أو مريم المجدلية؟». وأجابني: «مريم، زوجة معاذ الصديق». ثم أردف: «والله اللي يقول عنك مريم الأميركية، لأفكفك رقبته». ولم أسأله عن تاريخ الزواج، أو عن ديفيد، أو عن فاطمة، كأني خفت أن يتراجع. ليعود يقول: «اسمك مريم، واللي يقول مريم الشقراء، ليكون خصمي ليوم القيامة».

أنهض وكلي غبطة بأني المرأة الوحيدة في يباب الصحراء. وما شعرت كالسابق، عندما كان يسألني الزواج به في الأسابيع الأولى لعلاقتنا بأنه يريد أن يملكني تماماً، كما يريد أن يستحضر المطبخ الأميركي، بل نتيجة علاقة بين رجل وامرأة. وبالتالي، لا بدّ أنه اعتاد الفكرة بأنني وزوجته ننتمي إلى جنس واحد، وإن كان الاختلاف بيننا شاسعاً.

آتي بشرشف السرير مركزة وسطه على رأسي، لأتركه ينسدل عليّ تماماً كالعباءة. أبتسم، وأتمنى أن ألف نفسي بالعباءة. وأغطي وجهي بالمنديل الأسود. وأصبح كالباقيات ملفوفة، لأني ثمينة وسريعة العطب. ولأني أنقل من مكان إلى آخر. زوجة ثانية، لا بأس، شرط أن لا أسكن مع فاطمة. طبعاً

لن أسكن مع فاطمة لسبب واحد، الأولاد، وإلا لكان ترتيباً لا بأس به إذا عشنا كالبدوية وضرّتها الشابة.

رافقت سهى مرة، في زيارة جارتها البدوية، صاحبة الماعز، لأن ثغاء عنزة أقلقت نوم ابنها عمر بضع ليال. استفسرتها سهى عن سبب ثغاء الماعز ليلاً ونهاراً، ونحن واقفتان على الباب، ومعنا عمر وابني. ضحكت المرأة، بانت أسنانها الذهبية، ضربت كفّاً فوق كف وأصرّت علينا بالدخول، وهي تحاول أن تبعد العنزة، وتخاطبها كأنها طفل. بينما بقي عمر وجهاً لوجه أمام العنزة الصغيرة التي اعتاد سماعها والتي لم تتوقف عن الثغاء. لحقنا بالمرأة، وخلعنا أحذيتنا عند الباب كما فعلت. ودخلنا لنرى شابة فاتحة اللون، طويلة الشعر، جالسة على حصيرة القش تطلي أظافر قدميها. لما رأتنا، نهضت بسرعة، تعتذر وهي تستقبل سهى ببشاشة. فوجئنا، ماذا تفعل هذه المرأة الصغيرة، على هذه الحصيرة، غير تزيين أظافرها، وفستانها قصير، وشعرها فاتح اللون ولهجتها ليست من هذا البلد؟. أخذتنا الشابة وهي تصرّ علينا بالدخول إلى غرفة الجلوس، لنجلس على كنبات. اختفت ثم عادت في لمح البصر، محملة بصحون الفاكهة والكعك واللوز الأخضر قائلة: «طازجة من الشام». وهنا سألتها سهى إذا كانت من الشام، أجابت الشابة: «أكيد أو مبين عليّ من هالبلد؟». ثم أردفت أنها الزوجة الثانية، وما استطعنا إلا الاستغراب. قالت الشابة، وهي تنظر ناحية الباب، كمن يدلّنا على ضرّتها وقد فهمت استغرابنا: «هي مثل أمي، وأنا بحبها. بتشتغل، وبتطبخ، وتغسل لي ثيابي، لما أزعل مع زوجي بتصالحني، بس الواحد ما يتدخل بالماعز، والدنيا بألف خير». لما سألتها سهى إذا كان زوجها كبيراً في السن، ابتسمت المرأة الشامية وهي تجمع شعرها الأشقر إلى جهة واحدة: «لا والله، بس هو تجوّز صغير، تصوري قديش حبني، ومات لحتى أتجوزه، ما رضي يطلقها، قال إنها أم أولاده، وأولاده كبار، وقال لي جرّبي، وجربت، وهلق بحبها كثير». ثم غمزتنا وهي تهمس: «أوقات ما بصدق أنها مرته، حرام».

أردت أن أسأل الكثير، ولكن عمر دخل بحماسة، يخبر أمه عن قصة

العنزة، بينما وقف ابني مذهولاً لجهله ما يحدث. الزوجة الأولى، واقفة عند العتبة، والعنزة تلتصق بها. مدت رأسها وقالت: «اعذروني، هالعنزة لا تخليني اتحدث وأسولف»، ثم انحنت تحملها بين يديها، وتدخل الصالة، وهي تنظر إلى ضرتها الشامية: «لا تخافي أنا منتبهة حتى ما يهرّ وسخها». جلست وبرقع وجهها الجلدي بهت لونه، وبان كأنه يكمل جلدة وجهها، بينما حضنت العنزة كأنها طفل. وما فارقت يدها وجه العنزة، تلامسه بلطف. ولما سألتها سهى عن صحة قصة العنزة، وهي تنظر إلى عمر، أجابت: «صحيح، اسم الله على ابنك واعي تمام، يسألني السؤال خلف السؤال كأنه نبع ميّ، ما شاء الله، أنا أخبرته عن أمها اللي ماتت، الله يرحمها وهي بتخلفها»، وأشارت إلى أسفل بطنها: «ولو ما شدّيت برجول الصغيرة، لكان طبق بطن أمها عليها، الله كاتبلها تعيش، صرت أعطيها الحليب بالرضاعة، وهي تعودت عليّ، ولأني دائماً بالأسود فكرتني أمها. تلحقني وين ما درت، ما تحب تروح مع الماعز عالشارع، تريدني قربها، أتمدد معها. كل ما أتركها وأصكّ الباب، تصير تثغو وتجن، من يومين رحت أزور أختي، ومسكينة استوحشتني» ثم رفعت رأس العنزة إلى أعلى تسألها: «استوحشتي لأمك لازم؟» ثم نهضت، والعنزة بين يديها، تأتي بالفستق وتعود إلى مكانها تأكل حبة، وتضع حبة في فم العنزة، التي كانت بدورها تنتظر.

أفكر بابتسامة فاطمة ونحالتها، وأبعد الفكرة، فأنا أكبرها سناً، والزوجة الثانية دائماً هي الصغيرة. أرمي الغطاء على الأرض، وأجلس خلف الآلة الكاتبة، أضرب عليها كل ما أفكر فيه من ترتيبات إزاء أولادي وطلاقي من ديفيد، هكذا اعتدت، تدوين كل شيء، حتى أنسق أفكاري وبالتالي مشاعري. أحياناً كانت اللائحات التي أكتبها تتعدى العشر، لائحة بشراء الأكل، لائحة بأسماء الذين عليّ مراسلتهم، لائحة باللواتي عليّ زيارتهن، لائحة بما يجب أن أقوله لمعاذ، لائحة بما أملكه من ذهب، ولائحة بالذي يجب أن أملكه.

أجلس تماماً كما جلست في تكساس، أعد كل شيء يخص لعرض بيتنا

للايجار، ولايجاد مدارس داخلية لبناتي الثلاث بعد أن قررنا المجيء إلى هذا البلد العربي، لكن الفرق بين الآن، وجلستي في تكساس هو الشعور الذي استحوذني آنذاك، وشعوري الآن. يبدو العالم خارج نطاق الصحراء بعيداً. أبدو الآن سوزان أخرى، ووجدتني ألفظ اسمي، سوزان، ثم سوسان، ثم بصوت أعلى سوزان، سوزان، حتى سمعت رينغو يسألني إذا كنت أناديه. أنادي نفسي، أتساءل، إذا أنا حقاً سوزان أو سوسان التي جلست في تكساس، امرأة، في بيت ككل البيوت، أو نملة في حديقة ككل الحدائق.

لأني أجلس هنا خلف الآلة الكاتبة، أرى الاستهجان والاعجاب على وجه كل من يراني. أمر بخاطر كل من في البيوت الأخرى جواري. كما يمرون في خاطري. والذين يمرّون قرب هذا الباب، إذا ما تلهفوا لدخوله، فكروا بي. هذا الشعور يتسلل إليّ ويدخل أوردتي، ويجعلني أشعر بالراحة والاستقرار.

كنت ربّة بيت أميركية عادية في الماضي، كنت أغسل حفاضات أولادي، وأتسلى بطيّها كل مساء. وأنا أطفىء النور في غرفهم، كنت أشعر بسعادة حقيقية، لأنهم أكلوا واغتسلوا وناموا، ألملم ملابسهم عن الأرض، وأجدني أفرح، حين أرى الوسخ عليها، إذ يجنبني الحيرة إذا كانت بحاجة إلى غسل أم لا. وأنا أرى العائلة تأكل الساندوتشات دون السؤال عن الطبخ كنت أفرح أيضاً، الغد سيأكلون الروستو الذي أعددته لهذا المساء. أجلس أمام التلفزيون منذ الصباح ألاحق المسلسلات، أقرأ الكتب الغرامية والبوليسية، وأشرب البيبسي كولا بتواصل. وما كنت أجد سبباً حقيقياً لفتور علاقتنا أنا وديفيد، بل ما ناقشتها قط، وأيقنت أن المتزوجين يصبحون هكذا. حتى بعد حب جارف. رغم أني ما زلت صغيرة نسبياً، لا بد أني كنت خارج حلقة ما يجري في الحياة. لم أكن أفكر في البلاد الأخرى، أو حتى في الولايات المجاورة، إلا عندما تحدثت مع باربرا صاحبة الغاليري، التي ما دخلتها قط رغم قربها من منزلي. كانت باربرا تلفت نظري، تلبس كما في

المجلات ودعايات التلفزيون، الملابس القطنية والحريرية، التي أعرفها بالاسم وأفكر أنها لنساء معينات كجاكي كيندي، وللأميرات في البلاد البعيدة. لا أذكر أني شاهدتها في بنطلون بوليستير، أو بلفافات شعر، بل الشعر دائماً نظيف متموج. أسوار معصمها الذهبية تخشخش، كذلك حلقاتها وسلاسل رقبتها. كانت باربرا تستوقفني، وتستوقف كل من تراهن، تسألهن أن يزرنها، كنت أعرف أن اهتمام بربارا بي كان عملياً، إذ لا يمكن أن تكون شخصيتي العادية قد جذبتها، تريدني أن أرى الغاليري لربما اشتريت شيئاً. وكنت مخطئة، إذ بعد قليل بدت الأشياء التي لم أرها قط في حياتي مثل الخشب المحفور، والنحاس الأحمر، والأصفر ورسومات على الحرير، غير ملفتة للنظر كحديثها، تكلمت كثيراً عن حياتها في الهند، عندما كانت معلمة هناك، وطوفانها في القطارات، وكيف أنها في إحدى رحلاتها، التقت وجهاً لوجه مع عصابة، كانت تنوي تهريب مجوهرات مسروقة في حقائبها، ثم تعرفها بزوجها، وكان من الراكبين، الذين هبّوا لمساعدتها. حدقت وقتها إلى عقدها، لتقول لي وهي تخلعه وتضعه بين يدي إنه من الأحجار الكريمة. خجلت من كفيّ الحمراوين، ومن أصابعي غير المتناسقة الأظافر، أمام أظافرها الطويلة، المطلية بالأحمر، ثم لتعقب، أنها تحايلت على البائع، وأخذت تشتري حجراً واحداً بين كل مدة وأخرى. سكتت باربرا أخيراً لتسألني: «وأنت؟»، ابتسمت لها ومددت يدي أختار منفضة، رخيصة الثمن، ولم أبح لباربرا بأن حياتي هادئة إلا من حادثة سرقة منذ سنوات.

أذكر شعوراً غريباً داهمني، لما أخرجت تلك المنفضة النحاسية من الكيس، ووضعتها على الطاولة، لأول مرة أجد نفسي لا أجلس مسترخية كأنه لا يقلق بالي سوى الواجبات المنزلية المحسوسة، بل إني أخذت أفكر بباربرا وبحياتها وبحيويتها، وشعرت بفضول لأن أراها وأزورها، هذا الشعور أوصلني إلى شعور آخر لا أستطيع وصفه. بل يشبه الشعور كمن أضعت شيئاً، أو كأني أترقب حلقة معينة من مسلسل.

عدت زرت باربرا لحظة أخبرني ديفيد عن العرض لوظيفة في البلد

العربي الصحراوي، كأني أخيراً وجدت الفرصة لأزورها، وكأني وددت أن أقول لها بفخر إن حياتنا أيضاً مهمة، شجعتني هي كثيراً للذهاب إلى البلد العربي، قائلة بأننا سنعيش كما في كتاب ألف ليلة وليلة. وابتسمت مجاملة وموافقة، رغم أني ما كنت قد سمعت بالكتاب، ثم أخذت تخبرني عن الأموال، والقصور، والأقمشة المرصعة بالمجوهرات، وأنا أنظر إلى مصاغها الذهبي وأفكر بسعادة في أنه لا بد أن أشتري مثلها في البلد العربي فراتب ديفيد سيكون ضعفي ما يتقاضاه هنا، وقالت إن عمر الشريف من تلك البلاد، كذلك الامبراطورة ثريا. احترت من أصدق، والدي قال لنا أن نحترس من البراغيث والقمل، وخالتي أوصتنا من لسعة العقارب، قائلة إنها تحب دماء الشقر.

الشعور الذي داهمني، وأنا أمام المنفضة النحاسية، التي ما كانت تمت إلى باقي أثاث البيت بصلة، داهمني منذ الليلة الأولى، ونحن في مطار الصحراء، لا بد أنه سيحدث شيء ما اعتدت عليه من قبل، العيون السوداء تحدق إليّ كثيراً، بينما كنت أحدق إلى القماش الأبيض على رؤوس الرجال، وأسمع ابني يشير إليهم ويسألني إذا كان هؤلاء هم الرعاة الذي أحاطوا المسيح في المذود. ضحكت. حين ضحكت، ابتسمت العيون السوداء. والرجل الذي ختم جواز سفري نظر إلى صورتي ثم في وجهي ثم إلى الصورة، ومر بإصبعه على شفتيه وتنهد، وعرفت أن العيون الجريئة كانت تثني وتستنجد أيضاً.

لما جاء ديڤيد ، كنت قد رتبت على الورق وفي عقلي كل ما يجب عمله، قلت له إني ومعاذ سنتزوج، سأل وهو ما يزال يدهن الزبدة على التوست بكل تأنّ: «متى؟» المفروض أن تريحني إجابته، لكني اشتعلت. طقطقة التوست ما زال يحدثها فمه، وما أجبته، بأنه يجب أن نطلق أولاً. ربما نسي أننا ما زلنا متزوجين. شعرت برغبة أكيدة، لأنتشل التوست من بين يديه وأمرغ به وجهه. وعدت أقول له: «يظهر أنك مبسوط؟»، وصرخت به، أتهمه أنه بلا شعور وبأنه أناني وبالتالي ضعيف الشخصية. وأنا أتساءل بصوت عالٍ: بأني لا أفهم كيف استطاع ايجاد وظيفته هذه. ثم أجدني أجيب نفسي بصوت عال وبتهكم أيضاً: «لا بد أنك تغش العفاريت». أجاب: «مبسوط. لأنه بالتالي هذا ما تريدينه، الطلاق مني لأنك لست سعيدة معي وأنا أريد بالتأكيد سعادتك».

ووجدتني أصرخ به: «الأولاد معي، ومعاذ سيصبح والدهم، ولن تراهم قط» أجابني بين طقطقات التوست في فمه: «كما تشائين». لذلك صرخت: «أنت مجنون، تظنني سأصرف عليهم.. لا. أنت والدهم وأنت تتكفل بهم».

وما أجابني هذه المرة، سوى بزفرة، ثم بهزّ رأسه كمن يقول: «النجدة». ووجدتني أنهض، أدفش الصحن والخبز والزبدة والعسل من

أمامه حتى آخر الطاولة، أحاول أن يكون صوتي طبيعياً. كأنه لا علاقة له بدفشي الصحون: «جيمس يبقى معي، والثلاث يبقين في مدارسهن الداخلية لتقاسمهن بالإجازات». ولما أجابني بكلمة «جيد» قلت باستفزاز: «طبعاً سأعتنق الإسلام، وسأنشىء جيمس مسلماً».

ولما كان جوابه: «كما تشائين».

صرخت وأنا أتخيل جيمس يحاول قراءة القرآن في مدرسة إسلامية، والمعلم يعنفه لجهله: «هكذا أنت ولن تتبدل، بارد وأناني لا يهمك سوى نفسك، لا تهتم بما سوف يجري لأولادك».

ويظهر أني أوصلت صبره إلى حد معين، إذ بدأ كعادته يتهمني بالجنون بصوته الطبيعي كأنه يناقشني.

ووجدتني عندها أتهمه بأنه أوصلني إلى عصبيتي هذه، وكنت صادقة، ومؤمنة بما أقوله. اتهمته ببرودهِ وبأنه لا يحس باللذة إلا مع الطائرات التي يطيّرها، أو أنه يحب الرجال، أو ربما له علاقة برينغو. ولما بقي وجهه مكباً فوق الطاولة، صحت قائلة: لا بدّ أنه أخذ مالاً من أحمد، وإلا لماذا تركني في الليلة الأولى وحيدة مع بقية الرجال، وها هو يبارك الآن علاقتي مع معاذ.

وهنا ما تمالك أعصابه، ربما لأن رينغو في المطبخ. نهض وبدلاً من أن يتجه صوبي، اتجه إلى الباب وخرج.

فتحت الباب أقول له صائحة: «سأتصل بمحامينا»، أجابني: «اتصلت به منذ أسابيع وهو يعدّ أوراق الطلاق».

وقتها فقط واجهت مخاوفي. مرّ يومان دون أن يتصل بي معاذ. كأني أحسست بقطرات عرق نزّت فوق شاربي الخفيفين، مسحتها بيدي، وقفزت إلى التلفون أديره.. أجابتني فاطمة بضحكة وقالت: «معاذ في الشغل». أدرت رقم مكتبه، فردّ زميله حين سمع صوتي: «دارلنغ، هاني». صحت به، «معاذ من فضلك»، لكنه عرف أني سوزان. لا بد أن كل البلد تعرف

علاقتي بمعاذ، ثم سمعت معاذ كعادته يقول: «دارلنغ، هاني. أوه دارلنغ I miss You». لم أطمئن، إنه دائماً يردد هذا، حتى في الأيام التي ما عاد يزورني بها. ووجدتني أسأله بسرعة «متى سيأتي اليوم؟» سألني إذا كان رينغو في البيت. استغربت لأنه في العادة لا يسأل، ووجدتني أقول له: «مش مهم»، سمعته يحادث زميله. قلت بعصبية: «هالو معاذ». رد عليّ: «دارلنغ في عندي كاتالوجات لسيري لنكا»، كأني لم أسمع جيداً، عدت أسأله: «كاتالوجات لمن؟»، ردّ بسرعة: «سيري لنكا، قولي لمقصوف العمر رينغو يستناني» حبست كلامي، وما شئت مناقشته أو الاستفسار، لم أشأ أن يتطور أي حدث أم مشاحنة بعد عودته إليّ.

أحوم حول نفسي، أفكر بأني لا أستطيع انتظار معاذ، دون أن أفعل شيئاً يلهيني عن حقدي على ديڤيد، الذي أخذ يتصاعد مع كل نفس أستنشقه. أفكر بانتزاع السجادة الأفغانية عن الحائط، ولملمة كل ما اشتريته وما أهداني إياه معاذ. أمسك بالسحلية المصبرة وفي فمها ثعبان، وأضعها إلى جانب الأباريق النحاسية، وفروحيوان لا أعرفه. احترت من أين أبدأ، وماذا أفعل بهذا كله، وأين سنتزوج، وأين سنعيش، ووجدتني أرتمي على الكنبة منهارة، وبدلاً من التفكير بنفسي وبمعاذ، أخذت أفكر بديڤيد وأشدّ أسناني على بعضها، كأني سأدخل حلبة المصارعة معه بعد لحظات.

خمس عشرة سنة وأنا معه. خمس عشرة سنة لا أعرفه، رغم أني أعرف حتى عدد الشعيرات على كتفه. بعد سنوات من زواجنا، أخذ اهتمامه بي يخف شيئاً فشيئاً. لو أنني قرأت مثل هذا في صفحة القلوب والمشاكل في المجلات النسائية، لما صدّقت. إنه شعور يؤدي إلى الجنون، وبعد مدة، إلى الاستهتار فالكبت. اختصر كلامه معي تدريجياً، ثم اختصر المضاجعة. لا بد من وجود علاقة مع امرأة أخرى، حاولت ضبطه فراقبت رسائله، ووقفت بعيداً مقابل مبنى الشركة التي يعمل بها، وتجسست على مكالماته. لحقت به إلى ولاية أخرى، حيث يزور أهله، شممت ملابسه، استدرجته في الحديث. وما اكتشفت شيئاً، سوى أنه لم يعد مهتماً بي، ونحن نشاهد

التلفزيون كان يدفعني عنه كلما عانقته قائلاً بأنه يود أن ينهي البرامج الرياضية، واكتشف أنه فعلاً مهووس بها وأنها تشغل كل باله. في السرير كنت أقترب منه فيبعدني عنه قائلاً: «إنه لا يحب أن أكون أنا البادئة». وحين انتظره ليبدأ هو بالمبادرة، كان يدير رأسه وجسمه إلى الجهة الأخرى، متمنياً لي ليلة سعيدة. ولكني، لم أعرف درجة عدم اهتمامه بي إلا في ذلك الصباح الذي وجدت نفسي فيه عارية، في حديقة أحمد.

وأذكر أنه حين أوصلني أحمد بسيارته، وأنزلني أمام بيتي واختفى، وقفت دقائق أمام الباب، لا أجرؤ على دقّه، ولما عرفت أني لن أقوى على دقّ الباب، أمسكت به، ودفشته، حتى أبرهن لنفسي، أني قادرة على الاتيان بحركة ما. ولدهشتي ما كان الباب موصداً. خلعت حذائي وأمسكت به، لأدخل غرفة ابني جيمس، ثم إلى غرفتي. كان ديڤيد يغط في النوم. انسللت بهدوء في الفراش، وأنا أحبس أنفاسي أنتظر. رغم خوفي لم أستطع إلا أن أفكر كيف عنيت كثيراً للرجال الذين سهرت معهم خاصة أحمد، ولا أعني شيئاً لديڤيد. رغم أن جاذبية أحمد وطريقة تصرفاته واحترامه لا تقارن بديڤيد. لأول مرة أنتقد بيني وبين نفسي ضخامة جسم ديڤيد وكبر بطنه.

ذلك الصباح نهض ديڤيد، وقال لي: صباح الخير بلهجة عادية. فكرت أنه يحاول أن يكون حضارياً. ثم سألني إذا كنت أتفاهم مع الخادم السيرلنكي. هززت رأسي بالايجاب. لبثت صامتة لبعض الوقت، دون أن أعرف، وجدت نفسي أسأله: «هل انبسطت البارحة؟»، أجاب وهو يربط شريط حذائه: «ناس طيبون، هل أرسل لك السيارة؟»، لم أجبه. ذهلت لتصرفه ووجدتني لا أفارق السرير لساعات.

- ٤ -

جاء معاذ وفي يده كاتالوجات سياحية وعدد من مجلات أزياء. وما كنت مهتمة بالمجلات وبالأزياء، وإن تصنعت أخذها باهتمام، كي يشعر هو بأهميته، ووجدتني أستنفر أذني لأسمع منه ما أريد. لكني يئست وتخدّرت أذني من التعب.

أخذت ألوم نفسي لأني لم أتزوجه يوم عاد إليّ وقد فلت شرش التوازن، وصاح بأني زوجته، وها أنا الآن أسمع تفاصيل السفر والفنادق والنقود والمناظر، ووجدتني أتمسك بالكنبة، خوفاً من أن تفلت كلمة واحدة مني. بأن أبعد مكان أود الذهاب إليه، هو ضمن حدود الصحراء، وبدلاً من أن أنصت كما وعدت نفسي، تدخلت قائلة: «لا سفر ولا طيارات، نتزوج عند أمك». أجابني: «مش تطلقي الأول»، أجبته: «طلاقي سيأتي بعد مدة قصيرة».

مدّ يده كأنه يبعد عن وجهه ذبابة وقال: «إن شاء الله خير سوسان»، ثم التفت إلى رينغو وكله لهفة ليسمع عن سيري لنكا...

وكلما فكرت أنه لا بأس بالسفر معه الآن، لمع ضوء في رأسي، ينبهني بأن السفر له وحده. وجلست أبعد الفكرة. وفعلاً وضعت كفي على فمي، حتى لا أنبس بكلمة. إذ لا يجب اعطاؤه حتى مجرد التفكير بأني أشكك في سفري معه.

أخذت أقارن بين التحضير لسفرنا في السابق والآن، كيف كان لا يصدق، بأني فعلاً سأسافر معه، كيف دار حولي وتذكرة السفر في يده، يود التأكد من أن تاريخ الطائرة مكتوب، واسمه مكتوب، يقارن بين تذكرته وتذكرتي ليتأكد من أن تاريخ السفر واحد، إذ هو اشترى تذكرته بنفسه، بينما أعطاني المال لاشتري تذكرتي بنفسي. إذ كان قد بدأ يخاف من علاقتنا. وسهى هي التي جعلتني أميّز خوف معاذ الحقيقي، وأنا أروي لها كيف يتلصص كلما دخل بيتنا. وهو يبدّل كل يوم فوطة رأسه، من بيضاء، إلى مخططة، إلى زرقاء، حمراء، بنيّة. أحياناً يخبىء عينيه تحت نظارة غامقة. وأحياناً طبّية استعارها من زميله رغم تعثره وهي على عينيه. وكان قد بدأ يأتي فارغ اليدين، بلا أشيائه المصادرة. ولما أخذ يقفز ويختبىء تحت السرير، متوهماً حركة، أو صوتاً، كنت لا أتمالك نفسي وآخذ في الضحك من كل قلبي، ولا أتوقف بسهولة، وكنت دائماً أفكر أنه يبالغ، إذا ما رأيته اهتم قط من أن يضبطه أحد. كما أني ضقت ذرعاً باتهامي بأني لا أحبه، كلما سألني الزواج به، ورفضت متحججة بفاطمة وبديفيد وأولادي وأولاده. لذلك وجدتني أرحب بفكرة السفر معه، خاصة أن الفندق الذي حجز به، كالفنادق الفخمة التي أراها في الإعلانات، وأن هذه الفرصة لا تعوّض لأزور بها أوروبا. تحاشيت النظر إليه ونحن في المطار، رغم أنه ما كان ينظر ناحيتي، بل يهدىء طفله بين يديه، وحقيبة يد معلقة في كتفه، تضرب في وجه ابنه، بين سيل من المودعين، يقبلونه على الأنف والجبهة، كأنها الرحلة الأخيرة. فكرت في أني أرى شخصاً غريباً وهو في البذلة والحذاء. كأنه لا يعرف السير بهما.

رغم أننا جلسنا جنباً إلى جنب، إلا أننا لم نقترب من بعضنا. ولم نتحدث إلا بعد اقلاع الطائرة، وارتفاع صخب الركاب الذي فاق ضجيج محركاتها. إذ انطلق الركاب بالتصفيق فرحاً بالحرية وبالمشروب. وأخذ معاذ يطلب الكأس تلو الأخرى، ويمازح المضيفة، ويلتفت إلى الراكبين ويمازحهم. ثم وقف يوزع الدولارات، ويصرّ عليهم قبولها بين ضحك البعض، ودخول البعض الآخر في اللعبة. شعرت بالخجل، غصت في

كرسي متصنعة النوم، وهو ما توقف عن التحدث والشرب والقهقهه. لما حطت الطائرة ولدهشتي، استلم معاذ عدة بطاقات شخصية من الركاب، وأخذ يعدهم بالاتصال بهم. وقررت بيني وبين نفسي، أننا لن نحرج كثيرا، منعاً للمواقف الحرجة، التي تنبت كل لحظة معه. لكنه ما اكتفى كما فكرت بغرفة الفندق وباسدالنا للستائر، وما عرفت أن اللغة التي بيننا ليست لغة الجسد فقط.

أخذ معاذ يضجر من البقاء في الغرفة، يريد أن يمشي، ويدخل الدكاكين، ويشاهد التلفزيون. أراد أن يبقى في قلب الصخب طوال الوقت، تماماً كما وقف على الرصيف في اليوم الأول، ممسكاً بذراعي، يحاول استيعاب الضجة والسيارات والناس والحياة المختلفة. رأى النساء وتنهد قائلاً سبحان الله. مع تأمله للأثداء والمؤخرات أخذ يتأمل الأشجار والماء ويتمدد في البارك يراقب البنات المتمددات على الحشيش الأخضر، وهنّ رافعات الفساتين، كاشفات أفخاذهن البيضاء، التي تحولت إلى زهرية. حتى إنه وقف يتأمل مانيكانات الواجهات، التي بلا أذرع والتي تنتظر الملابس الجديدة، ويقول ضاحكاً وهو يشير إلى صدرها وأسفلها: «تمام. تمام، سبحان الله». صعق لما رأى الرجال بيناطلين ضيقة. قال: «فينك يا رينغو، حتى يذوب عقلك؟» ثم قال: «والله لو هذا الرجل يتمشى بشارع النافورة، حتى ينط عليه اللي توّه تزوج»، وأراد العدو وراء الحمام، ووقف طويلاً أمام الكلب، الذي لف معطفه بطنه، يهزّ رأسه تعجباً. وأراد لمس كل شيء يراه في المخازن، وقطف الورود من الحدائق، وغسل وجهه بماء برك البط، لما شاهدنا ستربتيز، أخذ يضحك، ويسألني لماذا القماش المبرّق الذي يغطي الحلمة وهو حجمه كحجم حبة العدس. ثم أشار وقال: «أشكال وألوان،». ثم نسي أنهم عراة، وأنهم يقدمون استعراضاً، وسألني: «إذا هم مجانين». وأخذ يشبههم بالحيوانات، التي رأيناها في الصباح، وكنا قد ذهبنا إلى حديقة الحيوانات وراقب القرود والسعادين ومازحها. ونقر على زجاج الأفاعي يشتمها. ووقف طويلاً عند الصقور، يحدثها عن صقره، الذي مات مسموماً. ثم استدار إلي يسألني لماذا لا

أبتسم، أجبته بأني ضجرت من الحيوانات ومن دخولنا المخازن، ولمسنا للمعروضات وشرائنا لتلفون ميكي ماوس، وآلة لطهي البوب كورن. ووددت لو أقول له إني أفضل شراء حلية لي، أو معطف جلدي كالذي أراه في الواجهات لكني لبثت صامتة. في قرارة نفسي أعرف ما يضايقني، فأنا بدأت ألاحظ سمنة قدمي وجسمي حتى وأناملي، متأكدة أنها السبب في عدم تغزله بي وتوقه إليّ كما في الصحراء. عدم تسليتي ظهر على وجهي. حتى لما اشترى علبة فيها الحب، أسوة بالصغار والكبار، الذين كانوا يتهافتون على شرائها. ولما سار يحاول قضمها، ما قلت له شيئاً، بل جلست على حافة البركة، ألاحظ رجلاً وابنه يضحكان على ما يفعل معاذ، ولما انتبه معاذ أنها للحمام، ضحك لهما من دون خجل. ما رضيت أن آخذ له صورة مع الشرطي صاحب النياشين والأزرار الذهبية. اكتشفت أنه ما بقي عندي ذرة من الصبر، ليلتها عدنا إلى الفندق، وأنا أتنهد قائلة بأني ضقت من الزحمة والناس. ولم أعرف أني اشتقت إلى الصحراء بتلك الدرجة، إلا عندما تكلمت مع ديفيد وابني ذات مساء، وجاء صوتاهما مرتاحين معافين. كنت واقفة ووجهي للنافذة، خلفها أضواء السيارات تمر بسرعة، تخيلت سكون البيت في الصحراء، إذا رنّ التلفون فكأنه يرن ببطء. والصوت المتحدث كان دائماً هادئاً، حتى صوت معاذ العالي. وعرفت أني اعتدت روتين حياتي هناك، ببعده عن الضجيج، والبشر والاختراعات. حتى البحث عن التاكسي وركوبه هنا بدا لي كأنه مهمّة. ووجدتني أعرف سرّ ضجري هنا وضيقي، عدا حنيني إلى رتابة الصحراء. اكتشفت، وأنا أراقب النساء هنا المهرعات، في أيديهن أكياس الأكل والأغراض، والتي إذا ما أحنت ظهورهن من ثقلها، جعلتهن يملن على جانب واحد، وهن يقفن في محطات الأوتوبيسات. رأيت دبّاً محشواً مسنداً إلى نافذة مواجهة للفندق، فكرت في الأم التي لا بد من أن تحف المغاسل، أو تكوي. تهت أقارن نفسي بها، ثم حياتي في أميركا وحياتي في الصحراء، كأني امرأة أخرى لا تمت إلى الأولى التي كانت تقضم أظافرها كلما تذكرت نسيان شيء لم تشتره، فأنا الآن امرأة مترفة، أسأل السائق أن يأتي لي حتى بعلبة كبريت، ومن رينغو، أن يغسل فراشي الشعر. المأكولات تأتيني،

كذلك الملابس من التنظيف، والنقود بدلاً من الذهاب إلى البنك. حتى إني لم أعد أجلس أكتب الشيكات لبائع الصحف، للكهرباء، للهاتف. لا أقود ابني إلى المدرسة في الصباح الباكر. ولا أنتظر بعد الظهر مع باقي الأمهات وشفاهنا قد ازرقت من البرد، الشمس هنا ساطعة طوال الوقت، حتى البرد في الصحراء كأنه الربيع.

قلت لمعاذ، وأنا أود ادخال السعادة في قلبه، إني أفضل الصحراء على هنا أو على أميركا. فتل يده مشيراً إلى رأسه يصفني بالجنون. رغم أنه عاد وقال إنه اشتاق إلى الصحراء هو أيضاً.

تمددت على السرير سعيدة لقرقعة الثلج في الكأس، ومعاذ يصب فوقها الويسكي، كنا قد عدنا إلى الغرفة، بعد أن أفلحت في إثارته ونحن بين الدكاكين نتبضع، لما أصرّ على أن يقدم قلماً مذهباً للبائعة التي لاطفته وضحكت لنكاته. وما تدخلت إلا عندما مدّ يده إلى بطنه، وقال إنه جائع، وأخذ يسألها عن مطعم مجاور كأنه يود دعوتها معنا. ما استطعت أن أنسجم معه في المرة الأولى، لأني كنت أسمع أصواتاً في الرواق، وأسمع أيضاً ضجة المصعد. وما اهتممت، وما عدت أحاول، إذ هناك دائماً مرة أخرى. لكني فكرت فجأة أنه ربما لن يكون هناك مرة أخرى. ووجدتني وهو في حالة استرخاء أتململ، وأتشبث بكلتا يدي عند أسفل ظهره. ثم أتحرك غير مهتمة لجموده، وأخذت يده أضعها عليّ، وأرتفع حتى ألصق به حتى لا يعود له مهرب. رغم أني شعرت بجسمه يعاكسني، رافضاً إطاعتي. بقيت أتحرك والعرق يتصبب مني. ولدهشتي هبّ معاذ قبل أن أهدأ ينهض عن السرير بطريقة أنستني لذتي منذ هنيهة. وصاح: «بسم الله الرحمن الرحيم» أغمضت عيني، وأنا أسمعه يصيح: «يلعن جنسك. جنية! العوذ بالله». وما اهتممت، كان دائماً يبالغ عندما ننهي مضاجعتنا، أحياناً يضرب رأسه في الحائط، وأحياناً يقبلني في كل جسمي، مبتدئاً بقدمي والأصابع وأظافري المطلية، متنهداً أني لن أغادر قلبه، متمنياً لو يدق عليه وشماً باسمي. أردت النوم وأنا أفكر، في أنه لا بد قد شرب كثيراً هذه الليلة. لما نهضت عند الظهر كان قد ارتدى ملابسه، لما حدثته وردّ عليّ باقتضاب، سألته عما جرى، وما

أجابني. وأنا أنهض، تعمدت كالعادة كشف فخذي، وما رفعت بروتيل قميصي المتدلي على كتفي. لكنه غضّ النظر، ولما تأكدت أن في الأمر شيئاً، سألته ما به، وما أجابني، وكأنه ندم لعدم إلحاحي، إذ عاد وقال لي بما معناه إن الله خلق النساء الأجنبيات، من طينة الرجال، أو من طينة مختلفة عن النساء. وما فهمت ما يقصده، وما كنت أعلق على الكثير مما يقوله، ثم غسلت شعري وجلست أجففه بالسشوار، عندها قال إنه سيقص شعره في الفندق.

حين لم يعد بعد ساعة تضايقت. ذهبت واشتريت بضعة قمصان نوم، والروايات الأكثر مبيعاً. لأول مرة أشعر بثقة وبمباهاة وأنا اختار ما أريده وأدفع. حتى وأنا أسير في الشارع. عدت بعد وقتٍ إلى الفندق. لم أجده، أردت أن ألقنه درساً. سرت في المدينة، وكأني في مهمة عسكرية، ولم أتوقف إلا عند الجسر. أختبر شعوراً جديداً عليّ، وهو أني لأول مرة وحيدة، كأنه لا مكان لي على الكرة الأرضية، إذا ما عدت الآن إلى الفندق. فكرت بديڤيد عن قصد، وعرفت أنه لا يعني لي شيئاً، فهو ليس طوق نجاة، وبالتالي ليس صديقاً. لما شعرت يوماً بألم في معدتي وكدت أتمزق، بقي نائماً، غير آبه لتأوهاتي وألمي. وما دهشت، إنه يستأنس وحيداً بمرضه. وأولادي؟. أولادي هم أولادي، أينما كنت وأينما كانوا، لا يستطيع أحد أن يلغي هذا، ومع ذلك فأنا ما زلت أشعر بالوحدة. فكرت بمعاذ، وعندها شعرت بأني لست وحيدة، وأن لي مكاناً على الكرة الأرضية. ثم فكرت أن معاذ لا بدّ قد ضل الطريق، فعدت راجعة إلى الفندق. وإذ لم يفتح الباب، قلت لا بدّ أنه عاد وهو في سكر شديد. عدت إلى الاستعلامات أطلب مفتاحاً، أخذته مع ورقة تقول: «جيمس اتصل تحيات». فتحت باب الغرفة وما كان في داخلها. استغربت وأنا أحاول التفكير أين خرج. وما تصورته وحيداً، إذ هو لا يثق بإنكليزيته وهو من دوني، والتي يظهر أنني الوحيدة التي أفهمها. خرجت أبحث عنه في مطعم ومقهى الفندق، في السونا والمسبح، لأعود إلى الغرفة. قرأت عيناي من جديد الورقة: «جيمس اتصل تحيات». ساعة مرت، أيقنت أنه ضاع. فتحت التلفزيون، أخذت أنتقل من قناة إلى أخرى لربما

أعلنوا عنه، ثم اتصلت بالاستعلامات أسألهم عنه. ثم تشاغلت بلم ملابسه عن الأرض. ثم كأني كمشت انجذابي له في الملابس التي بين يدي. القميص من الحرير، كذلك الجوارب، ومع ذلك فهي مرمية على الأرض كما يرمي ثوبه الأبيض. لما اشتراها، ما فكر محولاً الثمن ليعرف كم تساوي بعملة الصحراء. كلما ترددت في شراء شيء ما، وجدته يشتريه. رغم معرفتي أنه ما كان في ذلك الثراء. وجدتني منذ أن زرت فاطمة في المرة الأولى، وأنا في اندهاش لكرمهم، وبالتالي لعدم حرصهم على الأشياء المادية. إذ كنت أفكر قبلاً أن هداياه لعائلتي كانت من أجلي. أذكر يوم شعر رينغو بأوجاع في البطن، وسمعنا معاذ نتشاور أنا وديڤيد، إذا ما كان علينا أن ندفع أجرة الطبيب، مد يده إلى جيب ثوبه وأعطى رينغو كل ما معه في جيبه من المال وهو يضحك قائلاً: «إن شاء الله يلاقوا ثعبان في أمعائك». وأقلام الحبر التي يوزعها هنا حتى على الغرسون في المطعم، وإصراره لدفع البقشيش، حتى للذي باعنا الحلي. وطاف وجه معاذ الضاحك والذي يستحوذ على اهتمام وجو الالفة لكل من نصادفهم. وما كان السبب في البقشيش، أو هداياه، بل بساطته وخفة ظله. وأخذت أشعر بالأهمية وأنا معه: كذلك بالاطمئنان عدا الحنان الذي يغدقه عليّ. ووجدتني أتعلم منه، وأعتاد منه عدم الاسراع للحاق بأي موعد. وإذا مشى القطار، أفكر أنه لا بد من قطار آخر، وإذا ألغيت الرحلة لا يجب التوتر. لا بأس هناك الكثير لنفعله، حتى إذ اكتفينا بالسير والتسكع في المحطة. وضعت ملابسه على الكرسي، غطيت تلفون الميكي ماوس الذي اشتراه لعائلته، ابتسمت، ووجدتني أفكر فيه بشكل آخر، كأني أغار من سرعة فهمه وتقليده، واستيعابه لما يجري حوله، كأن هذه كلها كانت موجودة في الذاكرة وهو نكشها. ووجدتني أعود أكمش ملابسه أدنيها مني، وأعرف أني ارتبطت به. لما مرت ساعة أخرى، شعرت بحماوة تلف رأسي، فتحت باب الغرفة، أطللت على الرواق الطويل الفارغ للحظات وعدت ادخلها. أتصل بالطوارىء في المستشفيات. وحين لم يعد، امرأة الاستعلامات تجيبني، اتصلت بالبوليس، الذي طلب مني الاتصال بعد ساعات. اتكأت على الكنبة، والخوف عليه يزداد كلما سمعت صوتاً، غير أني لم أسمع سوى أنفاسي، وأنا أفكر فيمن

عليّ أن أتصل، أبعدت فكرة الاتصال بسفارته. الخوف من كشف علاقتنا كان يوازي خوفي عليه. ثم نهضت إلى حقيبته وأتيت بجواز سفره. فتشت ورقاته واحدة، واحدة. وكانت كلها بيضاء. ما عدا ختم بلده وهذا البلد. ثم فتحت حقيبة يدي. تأكدت من جواز سفري. وتذكرة السفر التي تحمل اسمي، والأخرى اسمه. فكرت إذا هو أخبر أحداً بأني أسافر معه، ولما صممت على طلب مكالمة مع ديڤيد، سمعت حركة عند الباب. كان صوت معاذ وصوتاً آخر. لا بدّ أنه ضلّ الطريق. لما فتحت الباب عرفت أن المرأة الواقفة معه ليست دليلته، وأنه لم يضل الطريق. لبثت هادئة، رغم الحماوة التي عادت تلف رأسي لكن كلامه فجّر البركان، وهو يدل عليها وقد نسي اسمها: «هذه حرمة طيبة بتحب العرب، والله يا سوسن رحت وجيت مثل الحمام الزاجل». وقفت المرأة في وجه البركان قبل أن يقذف بحممه لحظة، لتعود فتزيده حمماً بجوابها وهي تثني عليه. كأن رائحة الويسكي ملأت المكان، صرخت بهما، دفشتهما خارج الغرفة كعجينتين، أغلقت الباب بعنف. لهجة المرأة، كأنها تحادث صبياً صغيراً يتودد، هي التي طيّرت صوابي. شعرت كأنه عصفور مدّته أمه بالغذاء طوال الوقت، ولما حان وقت تعليمه الرفرفة بجناحيه، تعلم من طائر غريب وطار معه. ومع الحنق شعرت بقهر، كأن ما كنت أفكر به قبل أن يأتي أخذت ملايين من الأسنان تنهشه. خفت أن يكون الحنان والاهتمام اللذان يخصني بهما خياليين. لما سمعت صهصهة وضحكات كأن مصيرهما واحد خلف الباب، وجدت نفسي أفتح الباب أشدّ معاذ من ذراعه أدخله وأدفش المرأة التي ما توقفت عن الصراخ.

رغم الأبواب الأخرى التي فتحت، والأصوات التي تعالت، وصوت رجل الاستعلامات الذي حاول أن يكون مهذباً. لم تتوقف المرأة عن الدق على الباب ولا عن التهديد، كانت تريد مالاً. لما استدرت إلى معاذ، الذي تمدد على السرير بملابسه. وجدتني أصرخ به وأسأله أن يعطيها المال، وكالعادة مدّ يده إلى جيب بنطلونه ثم إلى الجيب الأخرى، ثم في جيب الجاكيتة وأعطاني كل ما معه، أخذت بعضها وانحنيت أدفشها تحت فراغ الباب. وما انتظرت أن أسمع حركتها وهي تأخذ النقود أم ذهابها، بل

التفت إلى معاذ، وأنا أفكر بجمال المرأة وبمعطفها. الفضول تضخم لدرجة أني سألته لماذا أتى بها. ولماذا لم أعد سوسو، وساند أندسكاي، لكن معاذ يضحك، وضحكته تشد على حلقي. أفلتت مني نقطة ارتكازي وأنا أهزّه، ولم أنم قربه في السرير، بل جلست على الكنبة. وما ناداني إلا مرّة. حضرت نفسي لأسمع النداء الثاني، ولأعرف لماذا المرأة، ولماذا ما عدت ساند أند سكاي. وقبل أن أنوي سؤاله، قال لي كأنه لم يحدث شيء: «يا سوزان، هيدي الحرمة طيبة، وبتحب العرب، والله ماني فاهم البهدلة اللي بهدلتيها؟»، ثم بكل جدّية: «الله يسامحك». عرفت أنه لم يفهم سرّ غضبي وغيرتي. لا بد أنه يحسبني فاطمة التي لا تشعر بالغيرة أو الغضب. ووجدتني أقول بسخرية: «الحرمة بتحب الفلوس»، أجاب: «مسكينة، يمكن ما هي متزوجة، ما عندها أهل»، ثم سألني في لهجة التأكيد وكأني صديقة «هي حلوة يا سوزان؟»، تصنعت اللامبالاة، رغم أنه ما كان يقصد حرقصتي. وكنت قد هدأت نفسي وأنا أفكر بأننا سنعود إلى الصحراء بعد يومين، وبأن ما حدث اليوم سيصبح ذكرى. أحاول أن أضبط أعصابي وأبدل الموضوع. سألته كيف عرف الطرقات، نهض وقد بدا على وجهه الاهتمام تخالطه السعادة، وقال لي مستخدماً يديه وعينيه، كيف لما ترك الغرفة، وهو يذكر نفسه بكل ما يراه، من أصيص زهور ومرآة وأرقام حتى يتذكر أين تقع الغرفة. ثم طلب عنوان الفندق واسمه من رجل الاستعلامات، لما أعطاه الرجل بطاقة بكل ما طلبه، عرف أن انكليزيته مفهومة، وعادت الثقة إلى نفسه. ولكن ما أن خطا خطوة واحدة، خارج الفندق، وسار في الشارع الصغير، حتى شعر بالخوف من الشارع العريض الموازي له. كأنه يرى لأول مرة الزحام والبشر والسيارات والأضواء. تحسس الورقة ونقوده أكثر من مرة. شعر أنه في بلاد غريبة عجيبة، بلد علبة القط والتي هي كرايفن. في الصحراء أسماء علب السكائر تطابق صور علبة السكائر. علبة الجمل هي «كامل» علبة «الرقاصة» هي «الجيتان». ولا يعرف لماذا شعر بالحزن فجأة. بدا كأنه لا يعرف السير فوق الأرصفة، ولا كيف ينظر إلى الناس، ولا كيف يختار أن يتوقف، ويشجع نفسه، مذكراً إياها بأنه لطالما أراد أن يسافر ويرى الدنيا، البلاد

التي يأتي منها كل شيء إلى الصحراء. أراد الرجوع، لكنه عرف في قرارة نفسه أنه يعرف التصرف. ذاكراً أنه تعلم مني كيفية السير والتجول، سار حتى وقف أمام كشك المجلات. ورأى المجلات والجرائد العربية أيضاً، لما عدّ بائع الصحف النقود، وناوله الباقي، شعر معاذ بالفخر وهو يقول: «تانكيو»، وأصبحت خطواته أكثر اطمئناناً، ثم تحمس ودخل مطعماً. لم يكن جائعاً. طلب كأساً من الويسكي، دفع، لما سمع كلمة تانكيو، ارتاح، سار وما توقف، إلا عندما قرأ كلمة بار. وكان كما فكر به من زمان. أضواء خافتة، وكراسي عالية، تماماً كما في أفلام الفيديو. فرح باكتشافه وبذكائه، ابتسم وضحك. عن يمينه امرأة تشرب. لما استدار نحوها ابتسمت له مرحبة. شعر كأنه يطير من الفرح، وما فهم كلامها. هي فهمته، وسألته من أي بلد هو، وماذا يعمل هنا. ولما أجابها، سألته إذا كان شيخاً، أراد أن يهزّ رأسه بالايجاب، ثم حانت منه التفاتة، إلى القناني بالعشرات خلف الرجل الذي سكب الكؤوس. قال وهو يضحك محدثاً نفسه: «أكمش هذه وأرميها». وكانت الويسكي قد لعبت برأسه. وما استطاع إلا أن يرى ما يفعله في الصحراء مضحكاً. وأمسك بالمجلة وشطب عليها. وما فهمت المرأة، بينما طاف في خياله صورته وهو يجلس خلف طاولته، ينهال على المجلات ـ مقلباً الصفحات، يتلذذ بالنظر إلى أجسام النساء، والقلم الأسود الثخين ساكناً بين أصابع كفه اليمنى. ثم يدخل الحمام يداعب نفسه. ويخرج إلى المرأة التي تتبدل بتبدل المجلات من شقراء، سمراء، نحيلة، ممثلة أجنبية، عربية. حين يزور أصدقاءه الذين يعملون في السفارات كانوا يطلعونه على الصور الفوتوغرافية الصغيرة السوداء والبيضاء، الملصوقة على طلبات استمارات الفيزا، والتي كانت تضغط أيضاً زر الشهوة عندهم. لدرجة أنهم سرقوا كل صورة امرأة جميلة، سحبوا عنها نسخاً، وقاموا بتكبير حجومها، وتبادلوها فيما بينهم، مما جعل المسؤولين يصدرون قانوناً ترفض به الاستمارة، إذا كانت الصورة مرفقة له تظهر أكثر من رقبة المرأة، أو إذا لوحظ فتنة في العينين. ضحك كثيراً قبل أن يرى نفسه في التاكسي مع المرأة، وفكر بأن يعرفها عليّ، لأنها طيبة.

ثم تذكر ذروة المغامرة إذ صفق بيديه وأدار وجهي ناحيته حتى يستجلب كل اهتمامي: «اسمعيني يا سوزان، لوما الحُرمة لكنت الحين في مدينة تحت ـ سبحان الله كأنك في الأذن تعاريج ودهاليز، ضائع وجوعان، يمكن أموت تحت وما حد يدري. . . كيف أطلع فوق. . .». سألته بضيق صبر: «مدينة تحت؟ زيَ الأذن؟».

ـ ايوه، اخذتني الحرمة في الترام، وصارت تمشي من سرداب للثاني كأني في بلاد الجان، وتطلع درج وتنزل درج، وأنا ماسك ايدها وماسك قلبي، خايف تتركني. .

ولما سمعت شخيره، قفزت، وبدل أن أهزّه من كتفيه، وجدت نفسي أضيء النور وآتي بكوب ماء. أجلس على حافة السرير، وأناديه باسمه حين فتح عينيه قال: «اسم الله عليك، ويش فيك؟».

مددت له كوب الماء. تصنعت الهدوء. وأنا أقول له إني وافقت على الزواج منه. ولدهشتي ما أجابني. بل عاد يغمض عينيه ويقول: «إن شاء الله». وللحظة كأني عدت سوزان، التي تجلس قبالة التلفزيون في ضواحي تكساس، ولفافات الشعر على رأسي. ولا شيء في حياتي سوى المسلسلات العاطفية. ووجدتني أفكر بقهر، كيف يجرؤ على الاتيان بامرأة، ولماذا لم أعد سوسو وسوزان وساند أند سكاي. عدت أوقظه بهزّه، ولم أدرك مدى عنفي، إلا لما آلمتني يداي وكتفاي، وكلي ضيق، لأني وافقت على الزواج ولأنه يرفضني. وكالعادة كلما أردت الحقيقة منه، جعلته يقسم بأولاده. جلس في السرير ولدهشتي، قال إن البارحة خاف مني، وشعر بالقرف، تهت أتذكر البارحة. وما وجدت سبباً، هل لأني اشتريت حلية أخرى، هل لأني قلت له إني أفضل حياة الصحراء على هنا، ووجدتني أسأله بعصبية، إذ فضولي لألم بالذنب الذي اقترفته كان قوياً: «لماذا؟ لماذا؟». قال إني أتصرف على هواي كالرجل. ولما عدت أنكش ما حدث البارحة وما حزرت حتى هززت رأسي أستفهمه أكثر، ولدهشتي قال بكل هدوء وجدية: «الله خلقك لإنجاب الأولاد، ولمتعة الرجل، فقط». ما فهمت. ربما ما فهمت الانكليزية؟ طبعاً. أنجبت الأطفال وطبعاً يتمتع الرجل بي كما أتمتع به. ردّ

معاذ بجدية كأنه استرد كل وعيه: «المرأة خلقها الله حتى تجيب الأولاد، كأنها معمل، ها هي الكلمة مظبوطة يا سوسان. إنها معمل، تمتع الرجل، لا تتمتع هي». ووجدتني أضحك وأجيب بسرعة: «إذا لا يريدها أن تتمتع، كيف ولماذا أنا أتمتع؟» حار ولما ما وجد جواباً حاضراً كسؤالي، صرخ: «كنت كالجنيّة البارحة»، ثم تمتم: «بسم الله الرحمن الرحيم. قرفت منك، ومن جنسك، والله تصورتك راجل، وأنت تصرخي، قلت يا معاذ هالحرمة خنثى، لا راجل ولا أنثى»، ثم زاد: «أنت تتمتعين لأنك خنثى». رغم شعوري بالخجل، وأنا أفكر في رغبتي البارحة التي ما وقف بدربها أحد. أخذت أضحك. وأضحك. أفكر بجدية حديثه وبألمه وأضحك. لا بد من أن ضحكي أكد له بأني جنيّة، إذ أخذ ينظر إليّ باشمئزاز. وسألته ودموعي تتساقط من الضحك، «وماذا عن فاطمة هل هي جنيّة أيضاً؟». وأجابني: «بأن المرأة الأجنبية لا بد أنها من طينة مختلفة عن النساء». وما استغربت فاطمة وعدم لذتها أو شهوتها، إذ وأنا في أميركا كنت قد شطبت على الجنس، سواء مع ديقيد أو مع نفسي، وما عدت أشعر بجسمي، وبلذتي، إلا نادراً فقط. وأنا نائمة أحلم مع الشرطي، أو أستاذ أولادي، ومع حافة الطاولة، أو ماء البانيو، وكنت أفكر وقتها أن جسمي يكمل وظيفته غصباً عني.

اقتربت منه أسأله، إذا كان أتى بالمرأة حتى ينام معها، لربما أيقظتُ به الرغبة من جديد. أجابني: «امرأة مسكينة بهدلتيها»، وعدت أقول له مداعبة: «يعني ما في سوسان؟ أبداً، أبداً».

ولما ظلّ محدقاً في السقف، أيقنت أنه لا يود الاستسلام لي رغم رغبته، لكنه صاح فجأة:

«الحين فهمت السبب أنت ما حبلت مني...»

سألته بجدية وكلي رغبة لأعرف طريق تفكيره: «والله حلفت عليك تقول السبب...»

جوابه قطع جملتي: «السبب إنك لا ذكر ولا أنثى وإلا كنت حبلت مني..»

ووجدتني أضحك وأنا أقول، إنه عقب ولادتي لجيمس أجريت عملية سددت بها الأنابيب. . .

عندها ضرب معاذ كفاً على كف، ثم فرك عينيه وقال: «أعوذ بالله، كافرة، ثم وبتشف: «فهمت، الله يعاقبك، هلق أنت خنثى. . .»

تهت أتذكر لما رآني عارية في المرة الأولى، كيف قال كلاماً ما فهمته وقتئذ، لكني أفهمه الآن. وقتها استغربت اندهاشه وهو يرى شعيراتي الصغيرة. وأيقنت أنه ما رأى جسماً قبل جسمي.

وددت التعليق على كلامه هذا، لكني سمعت أنفاسه تعلو، استدرت بدوري أحاول النوم، بعد أن وصلت إلى التفكير بأني كنت طوال الوقت أحتمي بسذاجته وبجهله، وتساءلت، لماذا أنا لست متضايقة من كلامه، أو أني لا آخذ كلامه على محمل الجد، وتهت أفكر لو أن ديفيد فكر بي هكذا، ماذا سيكون ردّ فعلي، ووجدتني أقبض كفي كمن يود أن يسدد لكمة. لكني أنظر إلى معاذ وأبتسم، صدقه وعفويته يأسرانني، ويضعانني في مرتبة مارلين مونرو. ووجدتني مطمئنة إلى جانبه، ووعدت نفسي أني سأنام هكذا إلى جانبه دائماً: بينما ماله، ساعته الذهبية وأغراضه على الأرض.

فقط وأنا أعد ملابسي في حقيبة السفر، مسرورة للملابس التي اشتريتها لبناتي وللحلي الذهبية التي اشتراها لي معاذ، ومسرورة للعودة، فكرت كم هذه الرحلة بدّلت معاذ، وكم بدّلت علاقتنا. لكن ما شككت أن معاذ سيكف عن زيارتي إلا ونحن في مطار الصحراء. حركاته مع أصدقائه المستقبلين ونظراتهم إليّ، ثم ذهابه مع رفاقه، وعدم مبالاته حتى بمعرفة ما إذا كان ديفيد ينتظرني في الخارج.

ما زلت جالسة، يدي على خدي، وما زال معاذ ورينغو أمام عشرات الكاتالوجات عن سيري لنكا يتحدثان مستخدمين العربية والإنكليزية ويديهما. رينغو يشجع معاذ لزيارة سيري لنكا، كأنها المكان الوحيد على الكرة الأرضية. ولما يشعر أن وصفه قد لا يفي الصورة حقها. يصفّر بفمه علامة الإعجاب. لم أستطع الصبر، وما أردت الصراخ بمعاذ، بل تحججت بانتقاد

رينغو، وسألته لماذا لا يعود إلى بلاده، إذا كان يحبها، ويراها أجمل بلد في العالم. وما فهم رينغو سبب ثورتي. وقال بتردد وهو يزيح خصلة من شعره عن وجهه: «أنا سعيد هنا». بينما علق معاذ ساخراً وهو يمسك بيد رينغو ويشير إلى سواره الذهبي، الذي يحمل اسمه، وإلى خاتم اصبعه الذهبي. ثم ينهض ليسحب سلسال رينغو من حول رقبته المنتهي بقلب من ذهب: «فين يجيب الذهب في سيري لنكا، والله ما يجيب غير التنك».

نهضت إلى المطبخ أحاول تهدئة نفسي وطمأنتها أن معاذ ما زال معاذ وأنه ما زال رجلاً، ولا بد أنه يريد امرأة. ثم لمت نفسي لأني ما تزوجته، وهو تحت تأثير نقاط صيته، التي قالت وقتها: «لما يبلعها الراجل ينسى عقله، ويصير كجرو الكلب يشمشم ريحة المرا». ثم لمعت فجأة القنينة في خيالي، سآخذها معي. وسأضع له النقاط حتى أراه وقد صار كجرو الكلب.

- ٥ -

قنينة صيته ما زالت كما هي، وأنا ما زلت في منزلي في الصحراء. ما عدت أرى معاذ. بين يوم وآخر عدت وكأني المرأة الوحيدة والتي تكاد تكون نادرة. وما كنت مخطئة، وما كان الأمر صعباً. الرجال في أثوابهم البيضاء. في المخازن يبحثون بين البرادات والمأكولات عن المرأة. سياراتهم تلحق بسيارات الأجنبيات، أو الراكبات غير المتحجبات. هم في الطرقات، يتلصصون على الأبواب، لربما ابتسمت لهم المرأة الداخلة خلف السور. أما موظفو التلفونات والكهرباء والذين يعملون بالحدائق فقد كانوا أكثر حظاً. في المرة الأولى، لما دفشت العربة في المخزن وتشاغلت بقراءة المكتوب على المعلبات كنت خائفة، وما نظرت إلى الذي ينظر إليّ ويتصنع السعال والبصق للفت نظري. ولا إلى الآخر الذي يجس مدى حقيقة تسوقي بتحريك شفتيه وترطيبهما. ووجدت نفسي أكرج العربة بسرعة البرق، أحاسب رجل الصندوق وأسرع إلى السيارة. لكني في المرة الثانية، وفي المكتبة وجدتني أتحرش برجل، شجعتني لهجته الأميركية ووسامته، ولا أعرف لماذا قلت له: «بما أنك تفهم الإنكليزية، لربما تحدثنا معاً وأفهمتني طباع الرجل عندكم»، وابتدأت أخبره عن معاذ، وهجره لي، وأنا أعرف أن معاذ وهجره لي ما عادا مهمين وأنا أمام هذا الرجل. أراه ينظر إليّ مذهولاً، لا بد من أنه ظنني مجنونة، ولم يجبني، بل استمر يقلب صفحات المجلة، ثم يبحث من جديد عن الرجل الأجنبي الذي كان يحادثه. أخبرته بأني لست مجنونة، وبأني جادّة

أريد أن أفهم شخصية الرجل العربي. التفت الرجل إلى الجهتين قبل أن يمد يده إلى جيب ثوبه ويخرج منها بطاقة، ويضعها فوق المجلة ويتركها على حافة الطاولة ويختفي. خطفت البطاقة، أخفيها بيدي، ثم أضعها في حقيبتي وأنا أتنفس براحة وسعادة. وما توقفت عن إدارة رقمه ليل نهار، حتى ردّ ذات يوم، وقال إنه كان في مشروعه الهندسي في قلب الصحراء. شعرت بضرورة لقائه. صوته أمدّني بدفء عجيب. وكان الضجر بعد عودتي من السفر اختفى. وأنا أضع يدي على قلبي خوفاً من أن يتهرب من لقائي. وكأن وقتاً طويلاً مرّ قبل أن يوافق على لقائي ويسألني أن أزوره في مشروعه. وهو يتفق معي على الساعة ويصف لي السيارة التي ستقلني عند باب المخزن.

والرجل الآخر الذي جاء بعد أن اتصلنا بدائرة الصحة من أجل كلب اعتاد أن يأتي إلى عتبة بيت جارتي كل فجر،وفي فمه قطة أو جرذ. وما أراد رجل الصحة حتى رؤية الكلب الذي حجزناه في حديقتها. بل انتقل بعينيه بيني وبين جارتي، لأسمع منه ذات مرة أنه عرف من محادثتي له عبر الهاتف، أنه كان المقصود لا الكلب. . . وما خطر على بالي معاذ إلا عندما طرق رجل طويل باب بيتي ذات صباح. فتح له رينغو وابتسم، معتقداً أنه أتى من أجله. تجاهل الرجل ابتسامة رينغو، وسمعته وأنا أقف خلف باب المطبخ أنصت، يسأل إذا كان هذا بيت السيد ديفيد، ثم سأله عني. ترددت في التقدم، ولا أعرف لماذا واجهته قائلة: «لا أستطيع أن أقول شيئاً، إلا بعد أن أستشير محامياً». ارتبك الرجل، ليقول بسرعة إنه صديق معاذ وجاء يطلب مني طلباً. وكان معاذ قد ابتدأ يضايقني بلحاق صديقاتي والاتصال بي ثم اقفال السماعة أو إبقائها دون أن يتكلم. مجيئه مرة لزيارتنا ليشرب الويسكي مع ممرضة من أندونيسيا. ثم لماذا هذا الرجل يسأل عن اسم زوجي، كيف يسمح لنفسه التقدم والجلوس على الكنبة وإخراج سيكارة من علبة السكائر؟. أفكر في أن الساعة قد أتت، ليجعلوني أغادر الصحراء، من وراء هذا الرجل العربي الطويل، معاذ؟ المهندس الذي التقيت به في المكتبة؟، المسؤول عن الهاتف؟، صاحب المكتبة؟، أم الصيدلية؟، يولّع الرجل سيكارته ويقول لي إن معاذ دلّه على بيتي وهو يهديني السلام. إنه يكذب لكني

سيطرت على نفسي، وما قلت شيئاً. بل ظللت واقفة، أستمع بينما تشابكت أفكاري، بين الاتصال بزوجي أو طرد الرجل، أو الاتصال بمعاذ أو أن أصدق الرجل، الذي أسمعه يقول إنه يفضلهن بين السابعة عشرة والعشرين، وإنه على استعداد للدفع من ثلاثمائة إلى خمسمائة دولار شرط أن يتم اللقاء في بيتي. سكت لينفض سيكارته أمام ذهولي. فكرت سأجبَر على السفر من هنا وهم بحاجة إلى برهان.

أجبته بأني لا أفهم ما يقصده. ضحك وخبط يده على فخذه، لاحظت نصاعة ثوبه، وساعة يده الذهبية وخاتمه الثمين، قال متصنعاً الضحك: «إنك تفهمين جيداً، متى تتصلين بي؟»، ووقف يمد يده إلى جيب ثوبه يخرج بطاقة. ترددت، الخوف جعلني آخذها وأقرأ تحت اسمه وظيفته. ضحك الرجل هذه المرة بثقة، عدل من حطة رأسه وقال: «الموظفون أيضاً رجال... وأنت تعلمين بالوضع هنا». فكرت بتشويش: «إنهم يوقعون بي». الجيران، معاذ، المهندس الذي أصدّه، رجل المكتبة، الصيدلي. تقدم الرجل، وسار إلى الباب بهدوء. التفت إليّ مادّاً يده يريد مصافحتي: «لا تنسي أنا بالانتظار». ورغم انخفاض صوته كانت لهجته آمرة. مددت يدي. عندها أبقاها بين يديه وقال: «معاذ محظوظ جداً». ثم شكرني على القهوة وعلى حسن ضيافتي. عدت إلى الصالون كأني أقفز. وما رأيت الفناجين. تصورت نفسي أعدّ الشنط، درت ألقي نظرة، على كل شيء في لحظة واحدة. جنّ جنوني، خبطت بقدمي، لن أغادر هذا المكان. اضطرب تفكيري. وما عدت أعرف كيف أتصرف. وجدت نفسي أنادي رينغو، وأخبره بما حصل، وأنا أسير حول الطاولة بخطوات كبيرة غير مبالية بكلمات رينغو المهدئة، بأن الرجل لا بد أنه أتى من أجل امرأة فعلاً. عرفت أنه لا مفرّ من الاستنجاد بمعاذ، وكان قد انقطع عن زيارتي منذ أن رفضت إدخاله في ساعة متأخرة من الليل.

لم أجده في مكتبه، ووجدتني أذهب إلى بيته، أدقّ الباب، وتفتح لي فاطمة التي دهشت لرؤيتي وهي تنظر إلى الهاتف، كأنها لا تصدق أنني فعلاً

اتصلت قبل دقائق وها أنا أمامها. رغم أني رجوتها أن تبقى معي لأني لن أستطيع المكوث إلا دقائق. اختفت تسرع إلى المطبخ. جلست أشمّ الرائحة نفسها والتي لا أحبها، كيف تبدل البيت منذ أن تعرف بي. ووجدتني أحب كل ما أراه وأستأنس له. السمكة من قرن حيوان ما. صورة مكة المكرمة مشغولة بالمعدن الأبيض. سجاد الموكيت الطويل الشعر وبلون المستردة، والزهور الاصطناعية التي اشتريناها معاً.

أطلت فاطمة، تحمل صحناً كبيراً من الفاكهة، وابتسامتها عريضة، دلّت على بطنها وقالت: «في بوبو». ابتسمت لها، كأن الأمر لا يعنيني. فعلاً ما كان يعنيني. كل ما أردته الآن أن أستنجد بمعاذ وأبقى هنا. ولما هزّت فاطمة كتفيها عندما سألتها عن معاذ بمعنى أنها لا تعرف قلت: «Son of the bitch» ردّت فاطمة: «تانكيو مدام السوزان». ثم ابتسمت فرحة بأنها تتكلم الإنكليزية. وأشارت إلى صحن الفاكهة، ثم إليّ واستفهمتني لماذا لم أتناول شيئاً منها. لما اقتربت من الباب أمسكت بيدي تستمهلني وتجرّني إليه. ثم قدمت لي الصحن لتتناول موزة وتفاحة وتضعها في يدي.

عدت إلى السيارة، لا بد أني واهمة، هذه ليست الطريقة لطردي من هنا، يجب أن يعود معاذ لزيارتنا كسابقاً. كأنه خشبة النجاة.. تردده إلينا كان يبعث الطمأنينة التي أصبحت أفتقدها كاليوم مثلاً. أو أن الرجل يريد امرأة حقاً وهو يعرف معاذ. لا بد أنه عرف بزيارة بناتي لي، ربما لحق بنا وأجرى التحريات، أو ربما يعرف عني من أصدقاء رينغو. فالمعجبون برينغو من أهالي الصحراء في ازدياد، وهو يقبل كل المواعيد، معللاً لربما تعرف بشخص واحد، ملائم، حتى يقطع علاقاته الكثيرة ويستقر. وما كان هذا سهلاً، امتلأت الصحراء بأمثاله، الشركات الأوروبية أخذت تفضل توظيف الشاذين والاتيان بهم إلى الصحراء من ناحية مادية وعملية. يوفرون المصاريف والبيوت الكبيرة، ومواصلات العائلة ومدارس الأولاد، ومشاكل الزوجات وفراغهن. ثم لا اشتياق إلى امرأة، لا كبت يجرّ إلى اهمال العمل، وعدم تحمل الصحراء، وطلب العودة إلى بلادهم، أو الاجازات

المتتالية. أم أنه المهندس الذي ما عدت رضيت مقابلته، بعد أن زرته في مشروعه في الصحراء. رغم مخابراته الكثيرة ودورانه حول البيت، هو الوحيد الذي كلما أتذكره أنفر حتى من الذكرى. كانت الرحلة طويلة استغرقت ساعتين في جوف الصحراء. لا أرى إلا غرباناً سوداء على امتداد الرمال التي تبدل لونها، عينا السائق الفلبيني الذي لقيني عند باب المخزن كما اتفقت مع المهندس تنظران إليّ عبر المرآة التي ركزها عليّ. وهو يضع شريطاً موسيقياً تلو الآخر. حتى وصلنا إلى نقطة بشرية، فيها معدات وآلات وعمال، لفوا رؤوسهم وأفواههم بالقماش درعاً من الرمال التي كانت تلسع وجوههم.

ما كان التعرف على المهندس سهلاً وهو في البنطلون والقميص، لدهشتي أخذ يطوف بي، ويشرح لي بجدية عمل الآلات وما يفعله العمال. الشمس تزداد حماوة كل لحظة، وأنا أسير معه حتى آخر المشروع، ليدخلني خندقاً وهو لا يكفّ عن الكلام والشرح، خاصة عندما يرى العمال ينظرون إلينا. سألته من أين جاء بلهجته الأميركية، حتى أضعه في جو من الخصوصية. أجاب: «جامعة نيويورك» مشى بضع خطوات أمامي. يئست ولحقت به، لنصل إلى مكتبه، غرفة من الباطون، رائحة سكائر واسمنت. جلس خلف الطاولة، وسألني عن صديقي العربي، قبل أن أفتح فمي، وقف يفتح لي الباب قائلاً: «إن المكيف لا يعمل في المكتب» ليعود بي إلى الشمس. فكرت بخيبة أمل، إني أخطأت بالمجيء، لمت نفسي وأنا أشعر بالغثيان، من الحرارة والتعب، بينما قصد هو أحد العمال وتسلّم منه رزمة صور. أخذ يعطيني الصورة إثر الصورة، وكانت لأساسات حديد، ومعدات خنادق. قلت له بعصبية إنني عطشانة، ومع ذلك لم تتبدل ملامح وجهه، بل بقيت جدية، ثم تقدم مني، وفتح باب السيارة. لما دخلتها، تمنيت لو أني لا أزال تحت الشمس. الحرارة تغلي داخل السيارة. بلعت صرخة. فخذاي كادتا تحترقان من بلاستيك المقعد، مسحت العرق بيدي، أفكر في أنني ما عدت في سن أستطيع تحمل هذه المغامرات المتعبة. أوقف السيارة أمام بناء صغير، نزلت خلفه وقد بدأت أفهم تصرفاته. كان خائفاً وعصبياً. البرودة التي

تسللت إليّ في الكافيتريا الصغيرة التي عبقت برائحة الكاري والأرز جعلتني أنسى الخارج. وما كفّ عن الحديث مع العمال، الذين جلسوا على الطاولات المتفرقة، ثم ليريني الصور من جديد وينهض. خفت من حروق السيارة، وتمنيت لو أبقى في المطعم أو أعود إلى بيتي في تلك اللحظة. ثم قلت، إنه عليّ العودة. هزّ رأسه وكأن طلبي هذا مدّه بالراحة، وقال إنه يريد أن يأتي ببعض الأوراق من السيارة. ونهض وما فهمت علاقتي بالأوراق، لكني هززت رأسي. ولحقت به. وما انتظرت نتيجة المكيف، بل فتحت الزجاج، مددت رأسي، وكانت المسافة قصيرة. لما نزل، بقيت في السيارة، لكنه أشار إليّ حتى أنزل. نزلت بتردد، وأنا أعد نفسي بالفرج قريباً. كان هناك سكرتير يطبع على الآلة. عرّفني به، ثم أخذني إلى الغرفة الأخرى. وما أن ردّ الباب، حتى أمسكني بيده، ووقفنا خلفه. أمسك صدري، وفتح أزرار بنطلونه في عجلة، كمن يتلقى الأوامر، قرّبني منه، بينما اضطررت إلى الالتصاق بالحائط للتوازن. ثم استدار يقفل أزرار بنطلونه، يعدل من قميصه، ثم يقترب من طاولته، يمسك بمغلف كان على الطاولة. من جديد أخذ يحدثني عن مصطلحات هندسية. على وجهه كانت علامات الضيق وعدم الصبر. كان يعجلني، وما استطعت تمهله، حتى أمد يدي إلى حقيبة يدي، بل وجدتني أسير خلفه، وهو لا يزال يتحدث كلاماً تكنيكياً لا يفهمه سوى المهندسين. أعطاني المغلف الذي كان يمسكه قائلاً: «قولي هذا للشركة». وأنا في ذهول تام.

لا يمكن أن يوقع بي أحدهم، قلت وأنا أنهض بكل ثقة، ووجدتني بناء على نصيحة رينغو أتصل بالرجل في اليوم التالي ولم أجده. بعد أيام عدت واتصلت به فقيل لي إنه مسافر. ولما تعددت مكالماتي وأصبحت الإجابة غزلاً، دون تأكدي إذا كان المجيب هو الرجل نفسه أم من في مكتبه. اطمأننت. وما تبخر خوفي إلا لما رأيت الرجل مصادفة في الشارع مع امرأة ملثمة، يخفي وجهه خائفاً من وجودي.

- ٦ -

عدت مرّة إلى البيت، ليسرع رينغو يستقبلني قائلاً إن معاذ اتصل عشرات المرات. ولما لم أتجه إلى التلفون، بل إلى الثلاجة أفتحها، أبحث عن شيء آكله. قال رينغو إن معاذ كان يصرخ على غير عادته. وما إن أنهى جملته حتى رنّ التلفون. أسرعت إلى السماعة دون أن أتوقع معاذ. جاءني صوته ضعيفاً، هزيلاً. طلب مني زيارته قائلاً إنه مريض. لا بد أنه ظن أني أتمنع لأني غاضبة، منذ ذلك اليوم الذي جاء يستفسر عن سيري لنكا وسافر من دوني. عاد يلحّ بإصرار. ولما تحججت بعدم وجود السائق سأل: «ورينغو؟»، ثم سمعته بصوت عال يشتم: «الله يخرب بني جنس الأصفر، هو يوصّلك». وما أضحكني كالعادة كلما شتم رينغو، بل أجبته: «بكره، أنا تعبانه». وأعدت السماعة. وما أن ألقيت برأسي على الكنبة، حتى عاد التلفون يرنّ. وكان معاذ، وكأنه يستجدي. نهضت رغماً عني، أعرف تماماً سبب إصراره، وكأنني وللحظة اشتقت لأوقاتنا معاً. سألته لماذا لم يأت هو؟ كنت تعبة، إذ وجبة الغداء في بيت صاحب الصيدلية كانت ثقيلة والمشروب متوفراً. لكن درجة إصراره ما كانت طبيعية.

لما فتحت لي فاطمة الباب. عرفت أن في الأمر شيئاً، رغم ابتسامتها العريضة، وقبلاتها على خدي، قالت: «معاذ مريض» وهي تطبق كفيها وتشير إلى رأسها، تميّله. سرت خلفها، والشعور بالتعب ما زال يحيطني. أفكر أن

رائحة البخور قوية هذا اليوم. مررنا بغرفة الجلوس، وما استطعت إلا أن ألاحظ أشياء جديدة، صورة على الحائط، كشاشة تلفزيون، تتبدل مناظرها ببطء، فكرت بالهدية، التي وعدني بها منذ أن عاد من سيري لنكا. كان معاذ في السرير. في الغرفة التي فكرت يوماً أنها ستصبح مألوفة لدي، وما كان فيها إلا السرير من جهة وفرش فوق بعضها من جهة أخرى وخزانة. بينما تعالى دخان البخور.

كان معاذ هزيلاً، أصفر الوجه، وقد بانت تحت عينيه هالتان بنفسجيتان، بينما وقف شعره. وبادرني وهو يميل برأسه، بكلمات ما فهمتها. وتحدث عن كهرباء. عن أنوار تلمع وتطفىء في وجهه، وعن البيت الوسخ، ثم مدّ يفرد يديه أمامي ويرجفهما. وانتبهت إلى مدى ركاكة إنكليزيته، واستغربت كيف كنت أفهمه من قبل. لا بد أني كنت أساعده في الشرح، وها هو الآن لا يستطيع حتى الشرح رغم أنه يستعين بالعربية وبالإشارات.

وجدتني أسأل فاطمة التي بقيت واقفة تنظر إليه وتتحدث عنه كأنه إنسان غريب، لا زوجها: «أكل ما في، قهوة ما في، شاي ما في، المسكين في حبوب، الصبح، والغداء، والمغرب، وشوية موية يبل ريقه».

وبدا لي كأنه شخص آخر لا يمت إلى معاذ الذي كنت أنظر إليه بحرقصة وهو يتحدث مع رينغو عن الرحلة لسيري لنكا. بينما جلست أخطط لزواجي منه. والذي لما علمت بسفره من دوني، فكرت باللحاق به إلى المطار، والسفر معه غصباً عنه، غير آبهة بالفضيحة. وها هو الآن يستنجد بي، كما كان يستنجد بي عندما لا تعصر الغسالة الملابس، وعندما لا يشتغل الفرن. لأكتشف أنهما إما ما كبسا الزر، أو أن الكهرباء مقطوعة ذاك النهار. ووجدتني أسأل فاطمة التي كبر بطنها: «في دكتور معاذ؟» أجابت وهي تشير باصبعين: «مرتين». ثم اختفت ووجدتني أسأل معاذ: «ماذا يشعر وأين هو الألم؟». لكنه ما كان مهتماً بسؤالي، حرّك رأسه وكان قد جلس في فراشه ولما أعدت سؤالي، أجاب: «إسألي رينغو، الله يخرب بني جنسه، جنس

أصفر، آجوج وماجوج، ما يخافوا الله. شياطين العوذ بالله». هنا، دخلت فاطمة وكنت طوال الوقت، أسمع تأنيبها لابنها الصغير في المطبخ. لا بد أنه كان يأكل من الصحون التي كانت تعدها، لتضعها أمامي طافحة: الفستق الحلبي، والفاكهة. حاولت أن أستفهم عما قاله له الطبيب، لكنه كان يتكلم من جديد عن النور الذي يطفىء، ويضيء، عن وجهه ورأسه وسلسلة ظهره خاصة، عن البيت الوسخ، الذي فيه جرذ كبير، عن الويسكي الغريب الطعم، ثم مدّ يديه المرتجفتين يريني العروق البارزة. ثم خبأ عينيه بكفه، وأخذ يبكي كالطفل، عندها لم أحتمل رؤيته يبكي، خاصة أن ابنتيه تبكيان في الردهة، وفاطمة تحاول تهدئة الصغير، وتحاول إنهاء جملتها قائلة: «والله أنا قلت له، لا تسافر وحدك، خذ المصحف وحطّه تحت مخدتك، وما سمع مني... الله يسامحه». ووجدتني وأنا أرى شرايين صدغيه الصغيرة قد برزت، أنهض وأقول لفاطمة: «لازم دكتور».

عاوناه أنا وفاطمة على النهوض، لاحظت حول إصبعه خاتماً ذهبياً كبيراً وفي وسطه حجر أحمر نبيذي اللون. ولدهشتي ما استطاع معاذ الوقوف، ولما اتكأ على كتفي للحظة، عاد وارتخى على السرير. لما سألته عن اسم الدكتور الذي عاينه وأنا ألتفت إلى فاطمة، أقول لها إني سأتصل به، صاح معاذ ومدّ يديه الاثنتين. وأخذ يميل برأسه ويحاول رفسي بقدميه، وما فهمت اعتراضه، وقلت أطمئنه بأن الطبيب لا بدّ أن يأتي إذا كلمته. لكن معاذ توقف عن الصياح، وصدر عنه كلام ظننته هذياناً، لكن فاطمة شرحت لي قائلة: «يبغي دكتور شركتكم، أميركاني»، ووجدتني أفهم لحظتها لماذا يستنجد بي. كلمت ديفيد، ثم الدكتور ثم رينغو الذي وعد أن يأتي بالدكتور. جلست أشرب القهوة، فخورة بنفسي. لا شيء يستعصي عليّ في هذا البلد. كأني أملكه. بعت حتى الآن خمسة مطابخ، شريط التلفون مدّ إلى بيتنا في ثلاثة أماكن، فوق البيوت الأخرى والصحراء، لأن العواصف كانت تهزّه وتعطبه. عبدت الطريق المؤدية إلى بيتنا بالاسفلت، بعد أن كانت رمالاً، وكنت أصل إلى ما أريده، أحياناً عبر الهاتف، إذا ما كنت مواجهة، أو من خلال الأصدقاء. معاذ يمسح دموعه بكمي ثوبه، لمحت شحاطته

الجلدية الفخمة ثم شنطة السفر المرفوعة فوق الخزانة. كأنها لا تمت إلى هذه الغرفة. جاء الطبيب، أول ما سأله وهو يفتح عيني معاذ، ويحدق إلى البياض إذا كان يأخذ دواء ما. سألت فاطمة، التي أسرعت تأتي بقنينة صغيرة، وتعطيني إياها وتبقى خارج الغرفة. أعطيها بدوري إلى الطبيب. كانت مهدئاً للأعصاب. سأله الطبيب عن الجرعة التي يأخذها، ردّت فاطمة من الخارج: «أربعة خمسة»، ربما سمعتني أشهق، إذ أردفت: «هو اللي قال يبغي أكثر عشان يطيب بسرعة». لما ترجمت للطبيب ضحك، قال إن مريضاً رفض حقنة بفخذه، قائلاً إن الألم والورم في عينه لا في فخذه. ولما قال الطبيب إنه يودّ فحصه، خرجت من الغرفة لوقت حتى أدخل وفاطمة وهي تقول: «الحمد لله تاب، ما في سفر».

قال الطبيب إنه ما وجد شيئاً في معاذ غير اضطراب أعصابه وإن عليه التوقف عن أخذ المهدىء، وإنه يجب إجراء التحاليل. وما تركت معاذ، إلا بعد أن هربت من الغرفة لما سهت عينه، إذ أراد مني أن أبقى.

فجر اليوم التالي، عاد التلفون يرنّ، عاد معاذ يطلب مني الإتيان بالطبيب. ولما أخبرته أن عليه انتظار نتيجة التحاليل، أخذ يصيح. وحين ما ذهبت إليه، أتى هو بعد الظهر مع جار له. ووجدتني أتصنع الاتصال بالطبيب، وأنا أرى رينغو يجرّ معاذ، بينما أخذ جاره يأكلني بعينيه. ثم سمعت جاره يقول لمعاذ إنه يجب عليه تسجيل اسمه بالمستوصف القريب، مضيفاً أن كل من يعود من الشرق الأقصى عليه التعاين هو وحرمته. مدّ معاذ يده يسكته قائلاً: «وأنت إيش عرّفك، في عيني نور كاوية». ثم أعقب كلاماً ما استطعت فهمه، وما استطعت تحمل صياحه، ولا حركاته، ولا صوته، هل يبكي، يضحك، يهرّج؟، ووجدتني أتصل بسهى وأطلب منها بعصبية أن تأتي حالاً، ولا أترك لها المجال لتعتذر. ولما استفهمتني صحت بها: «أرجوك. لا أستطيع الشرح، أرجوك». دخلت المطبخ، طلبت من رينغو أن يجلس معهم، لأسمع صراخ معاذ من جديد، والجملة ذاتها: «جنس أصفر، آجوج. ماجوج».

لم أجلس معه بقيت في المطبخ، إلى أن سمعت جرس البيت، وكنت قد رفضت أن أقدم الويسكي لمعاذ أو لصديقه رغم صياح معاذ ورينغو الذي أخذ يردد أمامه أنه منذ انقطع عن زيارتنا انقطع الويسكي في البيت. وكان رينغو يكذب. الويسكي والعقود الذهبية والسجاد العجمي، كل هذه في ازدياد.

وما عرفت لماذا تضايقت سهى لما رأت معاذ وصديقه. رغم شرحي لها بأنه مريض. وما رضيت الجلوس في الصالون ومعرفة ما يشكو. دخلت إلى المطبخ وهي تنظر في ساعتها تريد الاتصال بزوجها، حتى يرسل لها سعيد. لكن، ونحن نسمع معاذ ينادي أنصتنا. لما مناداته تحولت إلى صياح، رأيت سهى تضحك. فضحكت، ثم لنغرق في الضحك معاً. لهجته كانت أقرب إلى البكاء والضحك، هل يُمثل؟، «والنور في عيني يما. . . أمد أيدي يشيلوها، والنور نار. . . تأخذ طريق عظام سلسلتي وتلسعني، أقول آه، وسمعتهم يقولو هاها. قلت التوبة يا ربي، أبعد عني الشيطان مثل ما أبعدته عن الفردوس، وشامتها السوداء، لو خال الحُرمة القحبة ما نغز الشامة بشوك الصبار لكانت بعدها نقطة سوداء في وجهها، وما كان صار اللي صار»، كنت أنتظر لمحة من سهى حتى نضحك، لكنها تجاهلتني هذه المرّة، ونهضت مسرعة إلى غرفة الجلوس وسمعتها تسأله بجرأة: «مين هي يا معاذ؟ مين هي الحرمة؟»، حاول معاذ النهوض للسلام عليها وعاد ارتخى وقال: «يا مدام سهى، النور في عيني، نور كاوية، ما تغيب ولا ثانية. يما الجرذ كبير مثل الدجاجة. يمشي يتبختر ويطّلع في عيوني. كان لازم أفطن من قصة الشامة السوداء وأهرب برجولي، لكن اشتريت لها حبة الماس، مثل اللي في الصورة، تكلمت كثير، وهي تدل على الألماس وعلى الشامة. كل مرة ألتقي بها. تتكلم عن الماسة وعن الشامة. وتبكي، وأنا ما فهمت، وشوي شوي فهموني جماعتها، أنها ما تزوجت بعد عشان الشامة الكبيرة في خدها قرب خشمها، يقولو، العائلة اللي تجي لتخطبها لابنهم تشوف الشامة تغير رأيها. مكان الشامة هي مصبّ الدموع، وإذا تزوجت يمكن زوجها يموت. خالها نخز الشامة بالصبار، وصار مكانها دم. ثم حبة، لتنقشر وتعود شامة، وقالوا

لي هي تبغي تغطيها بألماسة عشان تتزوج، قلت لهم أنا أتزوجها وأنا ما خايف من الشامة هي عندنا العكس تدلّ على الجمال».

أيام قبل أن يستعيد معاذ صحته ونشاطه، ولم أعد أزوره بل اكتفيت بالسؤال عنه هاتفياً من وقت لآخر، إلى أن دعتنا فاطمة أنا وسهى لتناول الغداء. إذ هي ذبحت خروفاً فرحاً بشفاء معاذ. وافقت سهى على الذهاب وقد جاءت تحمل علبة من الشوكولاته، ومعها ابنها، ولم أستطع إلا أن أبادرها متسائلة، كيف وجدت الوقت لتناول الغداء عند معاذ وفاطمة، بينما انقطعت عن كل الزيارات استعداداً للرحيل عن هذا البلد؟ أجابتني ضاحكة: «ما عدت أتسلى مع أحد، لكن معاذ وقصة مرضه مسلية». ذهبنا مع سعيد الذي دخل معنا بناء على رغبة معاذ الذي أدخله غرفة أخرى. نظرت سهى إليّ وابتسمت. بينما ولأول مرة، خلعت فاطمة برقع وجهها. بعد أن قالت لها سهى إن إحدى ابنتيها شبه معاذ. بدت فاطمة صغيرة السن، بريئة العينين، جميلة الابتسامة، رغم اصفرار أسنانها، تدلى شعرها الأسود السميك رغم التصاقه ببعضه من كثرة الزيوت، وبان عقد ذهبي يحيط برقبتها، وقد تدلت منه ليرات الملك جورج الإنكليزية.

لاحظت عيني سهى تجولان في البيت. تمسك بالكوب الأحمر البلاستيك، لتضعه على طاولة البلاستيك، الرمانية اللون وهي تقول: «اللون نفسه»، ثم سألت فاطمة عن عناقيد العنب المعلقة على القاطع والتي كانت من حلقات معدنية متشابكة. ابتسمت فاطمة وأتت بعنقود البلاستيك وأصرّت على سهى أن تأخذه. حتى تلك اللحظة، ظننت أنه قد أعجب سهى رغم تمنعها. لكن لما أمسكه عمر وهرب به، سمعتها تقول له وبالإنكليزية أن يترك العنقود القبيح الشكل جانباً. وما توقف عن مشاكسة سهى إلا لما سمحت فاطمة له ولابني بامتطاء الجمل المحشو، الضخم والذي وبره كإبر القنفذ. خرزتا عينيه خضراوان لسانه وشفتاه بنية اللون. كان عمر يسقط عنه أكثر من مرة، لذا أتت لهما فاطمة بمقعد للحمام خشبي مبلل، حتى يصعدا عليه ويتزاحما. على قطف العناقيد ثم تدليتها من مكان آخر. وفاطمة سعيدة بالضجة، رغم تأنيب سهى لابنها وتأنيبي لابني.

لما دخل معاذ إلى غرفتنا بعد الأكل، كأنه أبعد شبح الملل والنعاس الذي بدأ يتسلل إلينا ثلاثتنا وخاصة سهى التي تسأله عن سعيد. فأجاب معاذ: «راح مشوار وهو يجي بعد نصف ساعة»، ثم قال: «تعالو، شوفو اللي جبته من سيري لنكا». ونادى فاطمة، التي انحنت تحت السرير وأتت بصندوق من الخشب وفتحته. وكان مبطناً بالقماش الأحمر المخملي. كان فيه خواتم من الحجارة شبه الكريمة، الليلكية والكحلية والزهرية، ومن المرجان الزهري والأحمر ومسابح، وأمسكت بخاتم وقد بان به الذهب أكثر من الخواتم الأخرى. وقلت: «جميل» وكلي تمنٍ أن يقول لي كعادته تفضلي، وفعلاً قال لي بكل سعادة: «تفضلي يا سوسو»، ثم أتى بعقد يضعه في يدي، ثم قرب الصندوق من سهى، التي ما زالت واقفة وقال: «تفضلي، مدام سهى، أنت أختي والله العظيم» وتمنعت سهى كما ظننت، رغم قسم معاذ وإصراره على أن تختار أي شيء، ما رضيت سهى، بل سألت فاطمة عن كوب ماء، ولحقت بها إلى المطبخ.

عيناي انصبتا على الصندوق من جديد. ووجدتني أقول بدلع: «تسافر من دوني؟»، أجاب ضاحكاً: «والله يا سوزان غلطة، شوفي السفر كيف مصّ عافيتي، وصحتي، وخلاني بالطرشقة، من بعد بلاد آجوج وماجوج الله كتبلي عمر جديد».

وأردت أن أعود إلى صلب الموضوع، مددت يدي أمسك بخاتم فيه لؤلؤة وفص أحمر، وقلت وأنا أدخله في اصبعي: «فاطمة محظوظة»، أجابني: «فاطمة ما تحب شغل سيري لنكا، ولا الطلياني تقول الذهب عياره خفيف، وعدتها بعقد من البحرين». وأنا أتصنع بأن الخاتم لا يخرج من إصبعي، قال وهو يقف: «خلّيه باصبعك يا سوزان»، دخلت سهى تسألني متى سنذهب، ابتسمت لها، وكنت قد وضعت كل ما أعطاني إياه معاذ في حقيبة يدي خشية من ظنونها. وبادرته سهى قائلة: «ما كفيت القصة، شو صار بأم الشامة؟» وما وددت سماع القصة من جديد. كنت فرحة بالمصاغ، أريد تأملها في البيت عن كثب. وقفت قائلة: «يجب الذهاب». لكن معاذ أشار بيده لي حتى أجلس، وأدار وجهه إلى سهى، كأنه فرح باهتمامها به، وكنت

قد شعرت من زمان بلهفته لمحادثتها: «في الفندق قالوا لي أنت تسافر وتموت عند أهلك، فتشوا بأوراقي، واتصلوا بالسفارة. وجاء واحد طلّعني المطار ودخل معي حتى الطيارة، الله يبارك فيه، خبرته قصتي كلها، وقال لي: «حظك كبير». أي والله حظي كبير، وإلا كنت مصبّر بسيري لنكا ميت: بلا صلاة، وبلا شهادة وتطهير».

وما فهمت شيئاً، لكن سهى سألت: «شو السبب ما عرفنا شو كان السبب؟». قال معاذ غير مهتم لدخول فاطمة وبيدها إبريق القهوة من الاستينلس ستيل: «اللي عندها شامة، بكت وقالت، ما حد يتجوزها، وكانت تريد تخبيء الشامة بالألماسة. قلت لها أنا أهربك منهم وآخذك عبلادي وتتزوجي، في اليوم الثاني رحت الكازينو واستنيتها هي ماجت، بس جماعتها أخذوني وعذبوني وحطوا نار عليّ، نور يلسع ويلخبط العقل، ويمكن حطوا حبوب منومة وحبوب جنون في المشروب، وأنا ما عرفت السبب، وكل ما أسأل عنها، كل ما يعذبوني أكثر. ولما فهمت الموضوع، قلت لهم أنا متزوج، وكل اللي قلته كان ضحك ومزح».

ابتسمت لفاطمة، كذلك ابتسمت لها سهى. بادلتنا فاطمة الابتسام، ورفعت يدها كمن ترمي شيئاً خلف كتفها ورددت: «الله يهديك يا معاذ»، ثم أخذت تسكب القهوة في الفناجين وهي واقفة، ظلت واقفة معظم الوقت ونحن نأكل. كلما دعتها سهى للجلوس معنا جلست للحظات، وتصنعت الأكل وعادت تقف. تنصت لمعاذ لربما ناداها. تعود تجلس لتفرغ الأرز بصحني وصحن سهى. وتقطع بيديها اللحم ونحن نحاول منعها. نهضت سهى. ووجدتني أنهض. نحاول بصعوبة إنزال عمر وجيمس عن الجمل. نصافح معاذ، ثم فاطمة التي مدّت قنينة كولونيا ودلقت منها على يدي ويد سهى وعلى الأرض. بينما جاء معاذ بسبراي وقال سائلاً: «ما بخرتيهم؟» وهو يرش السبراي على وجه سهى، بينما أبعدت وجهي. طفحت رائحة بخور شديدة الحلاوة كالسكر، سرعان ما اختلطت برائحة الكولونيا. قالت فاطمة بخجل: «والله ما حب إلا بخور العود، يضحكوا علينا بالطساسة ولا نشوف الدخان ولا شيء».

في السيارة أخبرتني سهى بأن فاطمة لا تصدق أن بيني وبين معاذ علاقة، ثم أخذت تضحك. وما أخبرتني سهى عن سبب ضحكها إلا لما أخذت مني وعداً بأن لا أغضب مهما ستخبرني. لكنها ما توقفت عن الضحك. ووجدتني أقول لها بنفاد صبر إنها إذا لم تخبرني سأغضب فعلاً. وأخبرتني، وما فهمت لماذا ضحكت سهى هذا الضحك كله، وفاطمة شبهت زرقة عيني بالزجاج، ولوني كلون السمك الأحمر، ومؤخرتي بإلية الخروف.

ثم سمعت من سهى بقية الحديث، إذ أخبرتها فاطمة أنها لا تصدق ما تقوله الجارات، بأن بيني وبين معاذ علاقة، مبررة بأني متزوجة وعندي أولاد، وأني أعلمه الانكليزية لقاء تعليمه لي العربية، إذ أريد أنا وزوجي إنشاء شركة، وأن معاذ يأخذنا إلى القرى ليعرفنا بالبلد، وأنه صار بيننا خبز وملح. ثم عادت سهى تضحك طويلاً وتتردد قبل أن تخبرني أخيراً بما قالت فاطمة، بأن كوني أترك شعري الصغير مثل الغابة نجاسة، وأن صلاة معاذ تبطل إذا هو مسني. ووجدتني أشارك سهى في الضحك وأنا أخبرها عن معاذ وما اكتشفه في أثناء سفرنا معاً، وكيف ابتعد عني كأني مريضة بداء البرص.

- ٧ -

عدت أدق باب معاذ، ما كان الشوق ولا الذكرى، ولا الضجر، لكن باب معاذ بقي ساكناً. رأيت عيناً تنظر في العين التي ركبت في الباب حديثاً. أخذت أدق الباب بكفي، كلما أفكر بأن العودة إلى أميركا أصبحت قريبة. ثم توقفت لأعود من جديد بعد أن سمعت صوت ابنته، ثم صوت بكاء ابنه. وما استطعت الابتعاد عن الباب. كأني إذا لم أره يفتح الآن، يتحول إلى باب طائرة. عند هذه الفكرة ركلته بقدمي، بقي صامتاً أمامي، لولا من حشرجة، كانت تأتي من الداخل.

فكرت وأنا أسند رأسي إلى يدي التي لا تزال على الباب: فيمن أستنجد، وما علق بالذهن ولا بالغريزة إلا معاذ، هو الوحيد الذي أشعر بأن لي عليه سلطة. كأني ما أزال أتقاضى ثمن علاقته بي والتي عبرها رأى حياة أخرى، وجد منفذاً إلى العالم. اتصلت بكل من أعرفهم، أصحاب الأجسام الفتية المكبوتة، التي تطلبني كل الوقت. الذين جعلوني أكتشف أن هوس معاذ وغيرته أمران طبيعيان. فمعظمهم، خاصة الذين لا يسافرون إلا نادراً يلاحقونني ليل نهار. وهم حققوا لي حلم ألف ليلة وليلة أكثر من معاذ. يقيمون الحفلات من أجلي، يأتون بالكافيار، والسمك السلمون بالطائرات الخاصة، يطلبون آخر أفلام الفيديو من الأستديوهات. وكنت أعرف ماذا سيحدث لسو ألن في مسلسل دالاس، ربما قبل شركات التلفزيون. عندما

أخذت أتصل بهم واحداً واحداً، أعرض عليهم مشكلتي، وأطلب الحل. شعرت كأني أتعرف بمراكزهم الحساسة لأول مرة، إذ الرجل الذي ردّ بجدية هو غيره الذي رأيته يرقص، ويأخذ الكأس تلو الآخر لينسى عواطف أم لؤلؤة. تملّصوا كلهم واستحالوا طلبي بالبقاء هنا. رغم أن الشركة التي يعمل بها ديڤيد أعلنت إفلاسها، وأقفلت مكاتبها، وعينت يوماً محدداً لسفر موظفيها. إلا أني أردت لو تمدد إقامتي، وإقامة ديڤيد، لربما وجد عملاً آخر، وإلا خسرنا تأشيرة بقائنا إلى الأبد. أدق على الباب، وأفكاري وقفت على لساني، فقط، يلزمها مواجهة معاذ.

ثم سمعت فجأة صوت معاذ: «ويش فيك يا سوزان كنا نايمين؟».

قلت بسرعة: «افتح باب ضروري».

صمت قبل أن يقول: «أنا تعبان. إن شاء الله أكلمك بالتلفون».

أجبت كطفل عنيد، دون أن أدعه ينهي جملته: «افتح باب ضروري. دقيقة واحدة».

وحين لم يفتح الباب، فكرت غير مصدقة ما يجري، فكرت بجنون العلاقات التي تلحق شدة الحاجة. في السابق ركع أمامي خاشعاً. وهو لا يفتح لي الباب الآن. تهت أتذكر ذهابي مع ديڤيد إلى منطقة قريبة لقضاء النهار مع مدير عمله، لما عدنا وفتحنا الباب. انبعثت رائحة كريهة. ولم يكن رينغو في البيت، بل الأكواب أينما كان، قناني الويسكي، قيء، وسائد، عرفت أن معاذ لم يترك البيت منذ أن ودّعنا في الصباح ومعه قنينة ويسكي. مستأذناً من ديڤيد ومني، ليشرب كأساً، قائلاً إن فاطمة تلم الجيران عليه إذا شرب الويسكي في البيت. ووجدته ملقى على الأرض، بينما الستائر مسدلة. أمسكت بوجهه. وعدت أهزّه. دخلت المطبخ لآتي له بكوب ماء. ولما شربه، تركني ديڤيد وصعد إلى الطابق العلوي عن قصد. بينما بكى معاذ قائلاً، إنه اشتاق لي ولم يشأ ترك بيتي، ونام في سريري، وشمّ وقبّل ملابسي حتى أحذيتي. ساعدته على النهوض وأنا خائفة من عبء تعلقه بي. وديڤيد الذي خطفني لنتزوج والذي بكى، وهو يراني أتألم في وضع ابنتي

بكر توقف عن احتضاني. تحول حزني إلى غيظ، بلعته وأنا أبلع ريقي، ثم رت الباب بهدوء وقلت: «مكتب ديڤيد خلاص لازم سفر وأنا أبغي أبقى نا». جاءني ردّه بسرعة: «معلهش أنت تسافري وأنا أزورك بأميركا إن شاء لله قريب» صحت: «لا أنا ما روح أميركا، أنت تعمل باسبوري وباسبور يڤيد. أو باسبوري أنا. «وجاءني صوته: «ما أقدر، أنا تعبان يا سوزان. نت تسافري مع ابن الحلال، اللي ما قتلك وقتلني وشرب من دمك ودمي».

خبطت على الباب بكل ما عندي من قوّة وقلت: «افتح ضروري». وقد بّت قدمي كحيوان عرف أن ساعة ذبحه قد أتت.

ولما بقي الباب موصداً إلا من حركة خلفه، شعرت كأن قوةً خفية كالريح تجردني عن كل ما آمنت به، وأنا بين غرف بيتي في عمق الصحراء. كأني كنت ملكة جمال سابقة، هجم عليها المحتفلون بالملكة الجديدة، يسحبون التاج والصولجان والمعطف والحذاء والمكياج. ينتزعون الابتسامة عن الشفتين، وينتزعون حتى السعادة الماضية من القلب. شعرت كأني قارئة بخت، عرفت مستقبلها في البلورة الزجاجية وغالطته. لن يفهم أحد، أني أخاف من العودة، لأن صخب المدن يضيع البشر، وأنا خائفة أن أضيع. العودة إلى أميركا، هي العودة إلى نقطة بين الملايين، وأنا هنا أشعر بأهميتي، كل دقيقة، حتى إذا قلت صباح الخير بالعربية، أثنى الجميع عليّ. ماذا تفعل امرأة أربعينية وحيدة في بلد يعجّ بغيرها، بعد أن كانت المرأة الوحيدة. من ينظر إلى امرأة سمينة، أربعينية تلدغ ولا يفهم كلامها بسهولة. من سيدير رقم تلفونها سوى من يخطىء؟ في ذهني شكل تلفوني يرن في كل لحظة. لا يعرف الأوقات الباكرة والمتأخرة. ينقل إليّ جنون لهفتهم. أنا واحة خضراء وارفة في هذا القحط. أصبحت كباربرا، أخشخش في أساور الذهب حول معصمي، أخشخش الطمأنينة والأمان، حتى النفسي والمادي للسنوات التي سوف تأتي. وتصورت تماماً ما سيحدث لي، حتى وأنا في السيارة المتجهة إلى المطار. سأرى وجهاً مستديراً لدرجة. وشعراً ينسدل على رقبة ممتلئة، وزندين سمينتين. صدراً طافحاً. وبطناً بارزاً وقدمين قصيرتين سمينتين.

دققت كمحاولة أخيرة بكل عزمي لدرجة أن أساوري الذهبية آلمتني. أمسكت بها واحدة واحدة رغم أني شعرت براحة ما، إلا أن ذكرى باربرا آلمتني. هل أعود بهذه الأساور والمجوهرات القليلة فقط؟ أين أحلامي التجارية والثراء، والرجل الذي سوف أقضي بقية حياتي معه. عندها صرخت هذه المرة: «فاطمة، فاطمة». سمعت جلبة. ثم جلبة أخرى. أدير المفتاح في الثقب. وفُتح الباب، وما تعرفت بالشخص لأول وهلة. إلا أنه يشبه معاذ. شهقت: كان معاذ يقف على قدمين متهالكتين، الوجه أصفر. قروح بيضاء عند الشفتين. لما مدّ كفه يحاول تغطيتها، ظهرت قروح حمراء على الأصابع. من خلفه، ظهرت فاطمة ناحلة. جميلة الابتسامة، انتبهت إلى اختفاء بطنها. رغم أني ما زلت مصعوقة، لرؤية معاذ وبادرتها كأن كل شيء طبيعي: «صبي أم بنت؟»، وأجابتني بتردد وهي تنظر إلى معاذ: «صبي، لكنه تعبان». ووجدتني أفكر، إذا كان عليّ أن أفك سلسال رقبتي الذهبي، الذي تدلت منه كلمة الله المزخرفة لأقدمه هدية للمولود كما يفعلن هنا. وسألتهما: «أين هو؟» حاول معاذ الغمغمة، لكن فاطمة أخذتني إلى الغرفة وهي تقول: «مسكين، تعبان». لحقت بها، ورأيت مولودها في وسط السرير وبودرة بيضاء على وجهه، لما اقتربت بانت قروح بيضاء على يديه، ووجهه حتى عينيه. ووجدتني لا أعلق، بل أضع يدي على سلسال رقبتي ثم أتراجع وأنا أشعر بالغثيان. وما استطعت رغم محاولتي إلا أن أنظر في عينيه، حيث الزهرة، ثم حدت عينيّ، وتبينت ملابسه، التي طلبتها لفاطمة من أميركا. ولا أعرف لماذا فكرت وأنا أرى الغطاء الملون الذي لا بد حاكته أم معاذ وهي في خيمتها، أنني والفرن الذي ينظف نفسه، والطائرات السبب في الزهرة المنتشرة في عين المولود وفي معاذ. لماذا لم تتعالج هي، وكيف لم يجهضها الطبيب، علماً بأن المولود سيكون مصاباً بمرض الزهري، ثم سكت، لا بد معاذ أخفى عنها إصابته خوفاً من الفضيحة. فكرت بأن أسأل عن اسمه وعن أشياء كثيرة. لكني ابتسمت، كأنني ما رأيت وما فكرت شيئاً، رغم أن باب المستوصف الخاص لمع في ذهني، مزدحماً بالعائدين من الشرق الأقصى. عندها فقط أيقنت أنه ليس بوسع معاذ مساعدتي.

عدت إلى السيارة وأنا أحاول طرد الأفكار وتأنيب الضمير ولومي لنفسي. لكنها كانت تعود إليّ شيئاً فشيئاً، وتتلاحق، كأنها تحيك قصة سفر معاذ إلى سيري لنكا والسفلس الذي أراه لأول مرة في الحقيقة لا في الكتب. ووجدتني أفكر كم أنا محظوظة، لأن المرض لم ينتقل إليّ، وبالتالي لأني لست في بيته، كما تخيلت نفسي أكثر من مرة. هذا الشعور أسعدني: عندما أخذت أمر بالطرقات والشمس التي لا بد أنها حارقة في الخارج. كأن بيت معاذ أصبح في قارة أخرى. أشعر بوقع الحياة الرتيبي البطيء، الذي يبدو حتى من خلال جلوس العمال في الظل، كذلك الماعز. وأجدني أحب هذا الواقع. أنسى المولود شيئاً فشيئاً، وأفكر بأنني لن أغادر هنا مهما حصل. تصميمي هذا، جعل أفكاراً حتى الخرافية منها تتزاحم في رأسي. إشهار إسلامي وطلب البقاء لأعمل مربية أطفال؟ أو توقيع أوراق الطلاق من ديفيد والزواج الشكلي من رينغو والذي لن تنتهي إقامته قبل شهر؟ ووجدتني أعدّ على أصابعي، وكان عدد ما تبقى لي خمسة أيام.

تمر

- ١ -

جلست في السيارة وحيدة كأني ملكة. أحكم الشارع وكل شيء جامد ومتحرّك. تنفست طويلاً. دخل الهواء إلى أنفي ورئتي. رغم الغطاء الأسود أنظر بطرف عيني إلى السيارات. لم يعد ركوب السيارة أمنية وحلماً، أمر عبر الشوارع بسرعة وأفرح. ما حسبت المسافات قصيرة وقريبة. أفكر أن باستطاعتي أن أفعل ما أشاء.

لما رأيت لون السيارة عند الباب المشقوق وهي تنتظرني دق قلبي. كما يدق لتخيل الفاكهة المنعشة والماء البارد، في الأيام الحارّة.

ألاحظ الآن بنايات عالية، واجهاتها من زجاج. أبنية أخرى واجهاتها من رخام وبلاط يلمع. فلل وأشجارها. مطاعم أجنبية. فليبينية وكورية وسيري لنكية، هندية، بكستانية، يمانية ولبنانية. عشب أخضر في بقع متعددة. ورش فنادق وعمران.

أهز رأسي متمتمة: «ما شاء الله» رغم أني لا أستطيع الدخول إليها. أوشكت مرة على دخول الفندق الأبيض. بعدما اشتريت لي ولبتول تذكرتين لعرض أزياء، لكن العرض منع. على كل، كل هذا للرجال وللأجانب الذين يعيشون حياة أخرى. أرى سوراً عالياً مزخرف البلاط، وعمودين من الرخام والمرمر، يتخللهما قطع من النحاس الأحمر، وعلى رأسيهما إبريقان

نحاسيان. لا بد أن سعيد سمع شهقتي لأنه قال: «هذا قصر جديد».

سوره لا يزال ممتدّاً أمام ناظري، ربما هذا القصر هو المكان الذي فكرت فيه جمعية إحياء التراث. لما قالت المديرة إنه يجب العودة إلى الأكلات الشعبية في الخلاء، وتحت النخيل، نحضّرها في القدور الكبيرة على الطريقة البدوية فوق الفحم والحطب. ونأكل المبشور، المطبّق، والجريش والمرقوق. المغزى واضح: «العودة إلى الأكلات الشعبية، متعلقة بالبيئة تجعلنا نبطل تقليد الأجانب، ونفتخر ببلادنا وبصحرائنا». أمد يدي أتحسس فرش السيارة الأزرق لأجد نفسي أفكر بحزن خفيف. كيف وقفت هذه بيني وبين أشياء كثيرة مدة طويلة: السوق، الزيارات، حتى الزيارات الطارئة، الفرح بمولود قريبة، أو صديقة، أو لمشاركة في الحزن عند موت أحد الناس. السيارة كانت رمزاً لهواجس التخطيط في كل لحظة للوصول إليها، والركوب فيها. ولم تكن في متناول اليد. كانت مرتبطة بالانتظار الطويل. دون فتور أو يأس، ربما تزور عمتي منطقتنا، أو يسمح مزاج أخي رشيد بالتجوال بنا في الطرق المعبدة، أو في نزهة قصيرة. لأن اليوم كان يمر كالشهر، كالسنة. لولا ليالي الأعراس التي كنت أثناءها فقط أشعر بالحرية. وقتها يحق لي السهر إلى أن يطل الفجر. والسيارة كانت من الأسباب التي وقفت في بادىء الأمر بيني وبين دخول الجمعية لأدرس. لا يزال صراخ رشيد وصوته يرنّان في أذني، لما حاولت عمتي إقناعه حتى يدعني أذهب إلى الجمعية: «من الأول ما حبيت تسافري لندن. أنا عارفك. متمردة، كل عمرك تلعبي مع الأولاد، هربت من إبراهيم، وقلت إن الشيخ يسكر حتى طلّقك، وتقولي الحين: استأجر سواق عشاني وعشان بتول، وبتروحي الأعراس مع أي سواق من غير محرَم». قاطعته عمتي وقتها، قائلة: «وين الغلط ما أعرف، يطلقها الشيخ بعد شهر من الزواج ويتزوج واحدة أكبر، وما هي بجمال تمر. ولا في نسبها». وجدتني أجيبها بسرعة: «والله أنا مبسوطة، لو ما طلقني الشيخ كنت طلقته. وأنا الحين مبسوطة».

يسكت رشيد، ثم يقول متابعاً: «لا يا عمتي، معزتك عندي ما لها

حدود، وما دخلها بتمر. مين اللي سكّن تمر عنده وصرف عليها، وعلى ابنها غيري أنا؟ ومين خطف ابنها محمد من والده إبراهيم غيري، ومين، ومين. . لا يا عمتي، تمر ما تروح الجمعية. وأحلف، أني غير متضايق من عيشتها معي، لكن لازم تفكر بمستقبلها».

دخلت إلى الغرفة أبكي، ثم نهضت عن السرير، أمسح دموعي. ثم خرجت إلى حيث عمتي وأخي رشيد، لأقول وأنا أحاول السيطرة على صوتي وعلى انفاسي: «ويش يصير لو رحت وتعلمت، بنات العنايز وبنات المبروك، كلهن يروحوا حتى العواجيز، وقماشه وموضي ولؤلؤة». أجاب رشيد قبل أن يغادر المجلس: «ما في جمعية، وأنا مش فاضي أوصلك. وما عايز تروحي بسياراتهن، فكري تتزوجي أحسن».

«مو متزوجة مرة ثالثة!» نظرت إلى عمتي، التي أحنت رأسها ويدها على فخذ قدمها المصابة ثم إلى أمّي التي وضعت يدها على فمها. ثم نهضت إلى سريري. لم أنم طوال الليل. إذن المواصلات هي السبب؟ يستطيع أن يوصلني إذاً هو، كما يفعل أحياناً عندما تطلب منه بتول. ربما يجب أن تدخل بتول الجمعية لكن ما الحيلة أمام أولادها الخمسة؟.

في صباح اليوم التالي، مددت يدي إلى كيس الأرز، ورحت أنقيه من السوس وأطبخه. ثم طبخت المرق، واللحم والخضار. استحممت، ثم لبست فستاني والعباءة والحجاب. وكالعادة، انقبضت عضلات حلقي كلما عاندت وفعلت ما أريد. قلت قبل أن أرد الباب خلفي: «الأكل جاهز وأنا رايحة الجمعية». سرت، خطواتي ثابتة، عباءتي سميكة، عضلات حلقي تنقبض أكثر، يداي تعرقان. التفت مرة واحدة إلى البيت ورأيت بابه الحديدي مقفلاً. لم أشعر بالحر ولا بالعرق ولا بطول المسافة. فكرت في سبب ارتباكي وتنقّلي من اليمين إلى الشمال، الحجارة وأكوام الرمل والحديد في الطرقات. لا أرى بناء الجمعية، لا بأس، أسمع زمور سيارة. ولا ألتفت، بل أحكم عباءتي وغطائي الأسود مرتين فوق وجهي. زمور سيارة، وصوت رشيد يناديني. التفت، كان قد فتح لي الباب الخلفي. وقفت

لحظة لكنني لم أستطع التفكير، تشوشت. دخلت السيارة. لم يتكلم رشيد طوال الطريق. بينما عضلات جلقي المنقبضة ارتاحت فجأة، وأنا أفكر في الصيام والإضراب عن الطعام. لم آكل لثلاثة أيام. اكتفيت باحتساء الشاي بلا سكر وبعد أن حلّفتني أمي وبتول بحياة ابني محمد.

اليوم هو الرابع، أحسست بالاعياء والتعب. وأنا نائمة في الفراش سمعت أمي تقول: «تستاهل الجمعية، والكتب تعبك؟» أما أنا فقد شعرت أنَّ اليوم هو الأخير لصيامي عندما دخل عليَّ رشيد قبل المغرب بعد أن دفعته بتول وقال محاولاً الحنان: «ويش يا تمر تعملي بروحك؟» أجبته وأنا أبكي: «أبغي روح الجمعية أتعلم». لم أتوقع ولم أصدق جوابه إلا عندما أعاده: «ما في جمعية، ما في جمعية» رددت بسرعة وبتصميم: «وأنا ما فك صيامي» غادر الغرفة، كأني سمعته يقول «كيفك». وما عدت أفكر في شيء. أفتح عيني بين لحظة وأخرى. أسمع بكاء أمي. صراخ بتول. كأني أرى أمي تضرب رأسها بكفها، أسمع تساؤلات أولاد وبنات بتول، واحدة منهن تقول: «عمتي تمر بتموت!».

كأن بتول تضايقت من قساوتي. دخلت عليّ تجلّسني وتحاول أن تفتح أسناني مقربة قطعة تفاح، ولم تستطع. احتجت إلى كامل قوتي وأبعدت وجهي، وأخذت أميله إلى الجهتين. بسرعة تعيدني أمي إلى الوسادة، وتضع كفها على جبيني وتقرأ الأدعية. أصوات وصراخ يتصاعدان من سقف الغرف وجدرانها. صوت بتول ينادي: «اسمعوني، والله العظيم أنت يا رشيد. ما أنت داخل عليّ في السرير ولا أنت حلالي، إلا لما توصل تمر بنفسك الجمعية، إسمعوني يا أهل البيت». وأمي تولول وتبكي والمبخرة في يدها، تقترب مني وتقول: «بتول وأخوك يتعاركوا ويطلّقوا وأنت متمسكة بالجمعية. هذه بلد الانجليز عملت عمايلها معك. والله كتبولك حجاب، وسمموا عقلك، يا تمر يا بنيتي، قومي استغفري الله. بتول وأخوك يطلقوا».

أرخيت عضلاتي، وكأني لم أعد مهتمة للأصوات. لما جاءت بتول وأمي لإجلاسي حتى أتيمم وأصلي لم أستطع. ولم تتركاني طوال الليل.

تحلفان عليَّ بالعظيم، تقبلانني ثم تصيحان بي. تحاولان فتح فكي بالقوة. استطاعتا إدخال ملعقة، لكن نصف الحساء انسكب على رقبتي وذقني. صحت بهما، لكن صوتي جاء ضعيفاً. «والله العظيم اللي يطعمني ما سامحه ولا ربه يسامحه». صرخت بتول: «والله أنت ما تحبي أحد إلا نفسك، كنت فاكرة نحنا أخوات».

فتحت عيني وأنا أشعر بالخوف. خيم الصمت على الغرفة. فكرت أن الجميع ملّ من إقناعي. لا أعرف كم من الوقت مضى قبل أن تدخل بتول وهي تقبلني وتصيح: «مبروك» بينما أمي تأتي بالمبخرة تزغلط وتغني، «يا تمر ويا تمر، تروحي الجمعية وأنت راكبة وتجي قارية، كاتبة». كنت تعبة، ومع ذلك أتحامل وأجلس في السرير، مستندة إلى الوسائد. أفتح فمي لآكل، بلا رغبة، كأني نسيت نكهة الطعام، وأخبرتني بتول أن رشيد أخذ ينام في المجلس، غير مبال بهجرها له، وما عاد يكلمها ووجدت ضيقها يحفزها لتدخل إلى المجلس الغاصّ بالرجال عند العصر، وتركع على قدميه تقبلهما وهي تبكي وتقول: «سامح اختك يا رشيد، الله مسامح، العلم نور، وفاطمة بنت الرسول، كانت بليغة، تقرأ وتكتب».

شعر رشيد بالحرج الشديد، وجهه صار كالدم. في الوقت نفسه وجد الجرأة ليوافق. كل من في المجلس علم برفضه وبصيام أخته، أمامهم خرت بتول على قدميه، واستشهدت ببنت الرسول. وجد نفسه يرفع وجهها عن قدميه، ويقول: «إبشري يا أم أشرف، قولي لأختي تفك صيامها».

- ٢ -

كما قلت لسعيد صباح الخير وأنا أركب السيارة في ثقة. قلت له متشكرة وأنا أنزل منها. وقفت أكبس جرس بيت سهى وأنا أبتسم، متعجبة لأفكار سهى، وأنا أرى الباب القديم الذي اشترته، من جارتها الراعية بعد أن ركّبت لها باباً حديدياً من المعدن.

كلما دخلت إلى بيت سهى، أشعر كأني أصعد الطائرة وأسافر، ويشبه إحساسي يوم دخلت الجمعية والتقيت بسهى للمرة الأولى.

لم يكن بناء الجمعية من الخارج أو من الداخل يختلف عن البيوت الأخرى. السور عال يطوّق البناء، والجنينة التي هي مجرّد فسحة من الرمل. النساء جعلنني أشعر أني خارج هنا. فهن لا يمتن بصلة إلى هذا البناء، أو إلى اللوحة المعلقة على بابه: «جمعية الشابات والنساء في الخليج» الكنبات مزركشة الألوان في صالة الجلوس. والصور المعلقة على الحيطان مأخوذة من الكتب وروزنامات شركات السياحة.

جلست على مقعد وراء طاولة، قرب عجائز يرتدين البراقع على وجوههن. وشابات بعضهن تركن الغطاء يخفي شعرهن ويحيط بوجوههن، بينما وضعن عباءاتهن على حجورهن.

تعجبت أنه يوجد في بلدي هكذا نساء، كنساء لندن، ولبنان ومصر

واللواتي نراهن في أفلام الفيديو حتى ماري، جارتي الانكليزية لم تكن هكذا، بل ما رأيتها إلا في القفطان الطويل.

لم أسمع كلمة واحدة من الدرس. كنت أتأمل في المعلمة سهى، لدرجة التحديق إلى وجهها وشعرها وملابسها وحذائها ويديها. أفكر أين تعيش، وما تصورت أن امرأة كسهى تستطيع أن تسير في الشوارع في هذا الفستان المزموم عند الخصر، المفتوح عند الصدر، في هذا الزنار الذهبي العريض، والأحلاق الطويلة البنفسجية، والحذاء البنفسجي، الذي تكشف مقدمته عن أظافر طويلة مطلية باللون البنفسجي. والشعر، لا أستطيع أن أفكر في كلمة تطابق لونه وتسريحته. إنه مبعثر، على الجبين والأذنين والرقبة.

في فترة الاستراحة، رأيت المعلمات الأخريات. لم يكن جميلات كسهى، فكرت أيضاً، أين يعشن، كيف يعشن، هل يمشين في الشوارع، هل ينزلن إلى السوق، كيف هي بيوتهن؟ أم هي كبيت جارتي ماري، عادي، إلا من خفاقة البيض الكهربائية، ونشافة الملابس. هل عندهن أولاد؟ أين يلعبون، في الرمل وفي الحصى؟ حتى التلميذات الصحراويات الشابات، كن تحت عباءاتهن مختلفات. اهتممن بتسريحة شعورهن، حتى فساتينهن لم تنسدل حتى الأرض، وكن يصافحن بعضهن بقبلة على كل خد. لا ثلاث كما هي العادة.

عدت إلى البيت أخبر أمي وبتول بما رأيت في الجمعية. خبطت أمي كفاً على كف وأصرت على أن آخذها معي في اليوم التالي، لرؤية المعلمة سهى والأخريات. خاصة المعلمة الأميركية التي تضع السيكارة في البزازة. ضحكت، وقلت وأنا أمد كفّي: «لا. لالا، فين أخبي وجهي...».

خفت من تعليقات وقصص أمي. ثم دخلت غرفتي أتمعن في المرآة أنا أمد لساني لأرى إذا كان أحد شرايينه قد انقبض، فتعذّر علي النطق بالانكليزية. أو أن الانكليزية لا تنسجم مع العباءة ورائحة البخور العابقة من شعري.

أصبحت أنتظر كل مساء أن تخف أصوات التلفزيون. وأن يهفت بكاء

الأولاد. ويغلق الباب المفتوح على الجنينة. ويسكت ثغاء الخروف الأسود. وأن تذهب النساء اللواتي يزرن البيت. وأن ترحل القريبات إلى مناطقهن أو بلادهن. حتى لما كنت أعتذر، كانت هناك دائماً من تلحق بي إلى الغرفة، تسحب الكتب من يدي في سخرية. أو تدخل بتول، أو أمي وجملتهما تكاد تكون واحدة، كذلك زفرتهما: «عيب يا تمر، والله عيب». وحين تزورنا عمتي كانت لا تكف عن مناداتي حتى أقرفص إلى جانبها وأسليها.

بعد أسابيع، تجاوزت علاقتي مع سهى حدود التلميذة والمعلمة. دعتني سهى إلى بيتها. اعتذرت عدة مرات، قبل أن أصارح سهى بأن رشيد يشترط أن تزورنا هي في البدء. فرحت سهى. وقالت إنها قلما تدعى إلى بيت صحراوي، وإنها تمنت كثيراً أن تدخل البيوت. لما زرت سهى أول مرة. فرحت بركوبي السيارة والجلوس قربها، رغم أني شعرت بالحرج ومعلمتي تتبادل الحديث مع السائق اليماني بعفوية.

قبلت سهى على وجنتيها وكالعادة طلبت منها أن نجلس في الحديقة. انتبهت إلى صناديق وحقائب مسندة إلى الحائط، وما فكرت سؤال سهى من المسافر، فبيتها دائماً يتبدل شكله، وهي تستلم دائماً الأشياء من الخارج. «بها الشوب؟» استغربت سهى، ابتسمت لها: «نجلس عا العشب الأخضر». مع أنها أجابت بضيق صدر: «بتقولي عن هالكم حشيشة عشب؟ وأخضر، ولو الرمل والهواء ما خلا أخضر ولا يابس». لكنها وقفت، تسبقني إلى الحديقة بعد أن أعطتني كوب الشاي وحملت كوبها وجلسنا. أجالت سهى عينيها في حديقتها وقالت إنها لا ترى سوى ما تراه خارج سور الحديقة. أما أنا فقد جلست مستأنسة بالشجيرة، والبندورة الخضراء المتدلية منها. وبالماء في حوض البلاستيك المستدير، و«للجهنمية» الليلكية والبيضاء المتدلية على السور من الداخل. لا أحب هذا الشاي المعطر، مع ذلك أرشفه، فأنا أفضله مختمراً، رغم أن سهى أضافت لي كيس لبتون وتركته حتى صار لون الشاي بنياً غامقاً. أرشف الشاي بسعادة حقيقية، أحب بيوت الأجنبيات. إنها جديدة. وشرحة. لم ألاحظ الفتور على وجه سهى، كذلك شرودها، لما

أخذت كالعادة أقص عليها مشاكلي مع أخي والبنك. سألتني مقاطعة: «جبتِ الورقة من الشيخ». رددت بلهفة: «بكرة». ثم التقت أعيننا وأخذنا نضحك. متذكرين ذلك النهار لما سألتني بتردد إذا كان باستطاعتها المجيء معي، حالما طلبت منها سعيد والسيارة، ولما أجبتها: «يا ريت» عمّتها السعادة كأني فتحت أمامها باب الجنة. واستغربت، فأنا ما وعيت من قبل على مسألة الاستئذان هذه، كلما سنح لنا الخروج خرجنا كالجراد، صغاراً وكباراً. في السيارة ما توقفت سهى وقتها عن سؤالي إذا كنت مضطربة وإذا كان يساورني الخجل أو القلق، ولما سألتها لماذا؟ صاحت متعجبة: «لماذا؟ وأنت ستسألين زوجك السابق عن ورقة الطلاق بعد ١٥ سنة».

ضحكت ورددت: «ويش فيها». وأخذت أحاول أن أتذكر الطريق إلى البيت الكبير الذي كان أكبر البيوت في المنطقة. جملة هربت مني: «إن شاء الله تكون الجنينة مثل ما كانت يا سهى، فيها دفلى، وصبّار وورد أصفر».

خبطت سهى على يدي وقالت: «أنتِ مش معقولة يا تمر، عم بتفكّري بالجنينة بهيك ظروف».

أخذت أدل سعيد على الطريق حتى وصلت السيارة إلى طريق مسدود. قالت سهى ضاحكة: «الظاهر نسيت يا تمر؟».

أجبتها ونظري إلى الأمام، ورأسي يلتفت إلى الناحيتين: «يا أختي، ما أعرف ويش عملوا بالطريق، عليت، وانخفضت، وكبرت ما شاء الله». سأل سعيد عن صاحب البيت، لما لفظت اسمه قال: «أعرفه، واحد من جماعتي سوّاق عندهم». فقط، لما دخلت السيارة الباب المفتوح تبينته. نزلنا. اقترب سعيد يحيّي الحارس، أبواب عدة للبناء المستطيل الذي يحيط بالباحة. أطلت امرأة وقالت: «يا مرحبا، يا مرحبا» وقبلتنا على كل خد. لحقنا بها. صعدنا الدرجات المغطاة بموكيت أحمر. تقول المرأة وهي لا تزال تصعد الدرجات، «الشيخة كلامها حلو، وهي جت من المنطقة الجنوبية، الفرح كان ما شاء الله فرح، والأكل يطعم بوادي بحالها، أهلاً وسهلاً، الناس

معذورة، اللي ما قدرت تجي».

تستفهم سهى وأرد عليها: «كان عندهم فرح، ثم أستدرك وأقول مقلدة اللهجة اللبنانية: عرس». ندخل الصالة الواسعة إياها. أقترب من الشيخة التي فستانها من الحرير المذهّب، أساور معصمها الذهبية تفوق بعددها وأحجارها الكريمة كل الذهب الذي يلمع في الصالة. وتقبلني على كل خد، كذلك تقبل سهى. الشيخة تقول: «أهلاً وسهلاً، كيف صحتكن، شلونكن». أجيبها: «الحمد لله، كيف صحتكن وأحوالكن شلونكن». مدّت الشيخة تحرك حجراً في المبخرة. بينما تلتفت سهى حولها، التفت بدوري بسرعة دون أن تلحظني الشيخة، أرى أثاثاً حديثاً وكريستالاً ومعدناً يشبه الفضة. آية من القرآن بخط ذهبي، إمساكية رمضان، صقراً محنطاً، على طاولة زجاجية إلى جانبه ورد من الأحجار شبه الكريمة، كنبات ضخام تلتصق بالحائط. كل هذا جديد عليّ. كانت الصالة ديوانية فقط. تقول الشيخة وهي تومىء إلى سهى: «إذا الحرمة عايزة تتفضل على الكنبة». أبتسم قائلة: «ما يخالف، صديقتي لبنانية، وكانت معلمة في الجمعية». ثم لأعرفها بنفسي «أنا تمر بنت طاوي». تشهق الشيخة، تلمع عيناها، وتقول: «الله ما نا عرفتك، لما تزوجت كنت أنا في الجنوب، لما عرفت أنك تطلقت زعلت وقلت للشيخ، تطلق بنت الطاوي؟ اللي دم أجدادها والرمل واحد؟ شلونك، تزوجت؟ وإبنك ويش اسمه؟» أجيبها: «محمد». «آه محمد، ويش يشتغل؟ آه يتعلم.. إبني عبد الرحمن تزوج بنت النمر أول البارحة، وتشوفي العروس لبست زي أول وكانت ثقل الجمل ما شاء الله. ما عساكم شرفتونا؟».

قلت: «مبروك، إن شاء الله، يتهنوا ويجيبو لك صبيان وبنات، بس أقول يا شيخة، أبغي ورقة طلاقي من الشيخ، أبغي فتح مشغل، وسألوني عن ورقة طلاقي».

ردّت الشيخة ببساطة وسألت مستفسرة: «زين، سمّي، ما يخالف يا تمر، بس قوليلي ابنك محمد، هو اللي خطفوه أهل إبراهيم، وجرى خاله ولحق بالسيارة، وعاد وخطفه منهم؟».

أجبتها وأنا أبتسم: «صحّ يا شيخة، ما شاء الله تذكرتي».

ترشف الشيخة من القهوة، كذلك فعلت أنا وسهى لتقول: «وأعرف كل شيء. لما أزور المنطقة الحريم يخبروني ويسولفولي». ثم استدارت إلى النسوة تخبرهنّ بقصة خطف إبني محمد، تتدخل سهى سائلة، رغم ترددها، فالشيخة ليست عجوزاً، رغم أسنانها الذهبية، والبياض في شعرها الأسود: «الشيخ ابنك؟».

تمد الشيخة يدها تداعب سهى، بخبطها على يدها، برقة وتقول: «لا يا بنتي، أنا أول حريمه، وبعدين الزيت والمال جا، والشيخ بغي يتزوج أكثر». وربما عرفت أن سهى لا تعرف القرآن إذ زادت: قال تعالى: ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاثَ ورباعَ. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا.﴾. صدق الله العظيم. وهو تزوج من غيري». ساد الصمت للحظات. انتقلت الشيخة بحديثها وبوجهها إلى النساء الأخريات. لم أنهض إلا بعد أن شربت العصير البارد وبعده الشاي والقهوة، وأكلت الكاتوه. سألت الشيخة بعد أن قبلتها لما وقفت: «أجيك بكره وآخذ الورقه؟». قالت لي الشيخة: «ما يخالف لما يرجع الشيخ، راح البر يومين، ثلاثة، مع جماعة لصيد الغزلان بس اكتبي لي سنة زواجك وطلاقك على ورقة». كتبت لها التاريخين على ورقة وجدتها سهى في حقيبة يدها. والشيخة تتناول الورقة من يدي لكزتني سهى ثم قالت لما خرجنا: «بتشارطي، الورقة مش ممكن يعرف فيها الشيخ». ضحكت لكلمة «بتشارطي»، لكني طمأنتها بقولي: «إن شاء الله خير» ودّعتها والحمرة على وجهي أقول لها: «مشكورة يا حياتي أنت وسيارتك وسعيد»، ما استطاعت سهى إلا أن تنقل إلي مرة أخرى هواجسها، عدت أطمئنها قائلة وبثقة: «هي وعدت، وهذا حقي». ثم سألتني: شو حسيت وأنت تشوفي البيت بَعَد ١٥ سنة؟ أجبتها ضاحكة: لا شيء، ما كان بيتي، كنت متل الضيفة.

انتبهت أن سهى شاردة، وقد توقفت عن الحديث. سألتها: «باين

عليك مصدعه، يمكن من الحر، يللا نخش التبريد». أقص عليها ما جرى بيني وبين رشيد، وعن رفضه لمشروعي الجديد، وما صبرت عليّ حتى أنهي كلامي، بل قاطعتني قائلة: «يمكن رشيد معه حق. يمكن... تخسري، تحطي كل مالك بمشغل خياطة وبكرات خيطان وبسشوارات وفليبينيات».

«ويش أعمل؟ المدارس ما يقبلوا شهايد الجمعية، بيقولوا لازم شهادة جامعية»، ثم وجدتني أتسلّح بالجملة إياها: الكل يشكي من قلة الخياطين. ما في قياس، حتى ما في كلام بين الخياط والزبونة. طاقة صغيرة اللي يفتحها الخياط بينك وبينه مو كفاية والفساتين الجاهزة في الدكاكين ما تِنْشرى، كيف تشتري الواحدة فستان من دون مقاس؟ وما في حد يعمل شعر ويصبغ، والله رشيد ما يفكر بالخسارة، عايزني أتجوز، يقول عيب. الحق على بتول. عرفته بخناقتي مع إبراهيم اللي قال لي عالتلفون: «والله ما ريد يقولو عن إم إبني صارت مثل أهل جاوى، تخيط للناس وتسلّك الشعر، وبعدين حريم فايته وخارجه، لما ينقفل المحل بالشمع الأحمر، وين إبني يداري وجه؟». إبراهيم قال لي هذا الكلام وأنا ما عدت سيطرت على نفسي. دمي صار فوق برأسي. أمسكت رأسي بيدي وصرخت. وشلت إيدي حتى شوف الدم اللي حسيته ينز من رأسي ووجهي. ومسكت قلبي، وبعدين قلت لازم إيدي كلها كدمات زرقاء من ضرب قلبي ركضت إلى الغرفة، مزقت قميص نومي. دقيت رأسي في الخزانة، في الحيط، خبطت وجهي، مسكينة بتول ما قدرت تمسكني، وأنا أخلع ملابسي وصيح: «تعالوا شوفوني يا عالم، إحكموا إن كنت زانية». رشفت من الكوب أنتظر كلمات سهى العصبية وحزنها في هكذا موقف، وبدلاً من أن تتعاطف معي، نهضت تزيد من الشاي في كوبي ثم كأن جملة هربت منها، لا بد أنها كانت تعيش تحت لسانها طويلاً. إذ سألتني: «وليش ما بتسافري وتعيشي برّه وبتخلصي؟».

أجبتها: «كيف أعيش بره..؟».

تحمست سهى من جديد: «صاحبتك الإنكليزية ماري أو ماريا، بتدبرك عندها، أول كم يوم وبعدين «بيفرجها الله». ضحكت، وقلت وأنا ألمس

بيدي كتف سهى مداعبة: «يا حليلك يا سهى، ويش تفكري، تبغين أسافر من غير رجعة، أترك بلدي وأعيش بلندن؟ ويش أعمل بلندن، الواحد من غير بلده وحبايبو ما يسوى عود بخَور. حقيقة إنبسطت لما سافرت، لكن اشتقت، صدقيني اشتقت للرطوبة وللغبرة وللحر، ويش يقولو عني. هربت، ويش السبب؟».

قالت سهى: «أنا هربانة، شوفي كل شيء حاضر». وهي تشير إلى الحائط. ما اهتممت لرؤية الحقائب والصناديق، بل ضحكت قائلة: «مش معقول، ما صدّق. لازم أنت رايحة إجازة». ردّت سهى: «وحياة تمر أنا مسافرة بعد يومين ومش راجعة».

لم يتبدل تعبير وجهي الضاحك، قلت لها وأنا مطمئنة: «أنت تقولي، ولما تبعدي ما تشوفي حالك إلا رجعت».

تضايقت سهى لتفكيري بأن الحياة هنا لا تعوض وأجابتني بتهكم: «أعوذ بالله. ولا حتى بالمنام». سألتها: «ويش السبب؟ تروحي المطاعم، وعندك سيارة، وتروحي المسبح»، ثم التفت حولي وقلت: «ما شاء الله بيت كبير، المكيف حتى في الحمام، وجنينة، لا، ما عندك حق».

تنهدت سهى، وقالت أشبه بالصياح: «دخيلك يا تمر، وين أنت عايشة، طبعاً بشجرة البلح، اسم على مسمّى.. ما عم أقدر أتنفس، لا حرية ولا تنس ولا سينما ولا مشاوير، ولا سهرات، ما سمعت؟ كم واحد فاتوا عالفندق وجرّوا رجال الأوركسترا، وطردوهم وكسروا الغيتار، وقالوا الحريم تستنّى بالغرفة الثانية».

قاطعتها سائلة: «أعوذ بالله من الإشاعات..».

صاحت سهى بي: «ولو يا تمر؟ صاحبتي كانت، والعلّة أن زوجها مسافر، وتصوري لو عرفوا، جايي تسهر من غير زوجها! الحمد لله زمطت. كلهن هربوا من الشباك». أجبتها بحدّة: «وليش يسكتوا، والله مرّة فات واحد عجوز الدكان وضرب الطاولة، وكنت أنا وبتول نحاسب البايع قبل الصلاة

بربع ساعة. صرخت فيه وقلت: يللا إيش تبغي، بس معذورين جنسيات كثيرة...».

بدّلت سهى الموضوع، كأنها تضع ابتسامة ضعيفة على الشفتين وهي تسألني: «وشو لح تعملي» أجبتها بحماسة: «بكره تشوفي، رح جيب رخصة مشغل بنفسي وتكون على اسمي بس لو سعيد يأخذني ويجيبني». ردّت سهى: «أنا وسعيد تحت أمرك». نهضت أقبل سهى على الوجنتين قائلة: «ما أعرف ويش عملت من غيرك، مشكورة من قلبي يا حبيبتي». ظنّت سهى أني أقصد السيارة وسعيد، بينما كنت ممتنة لأني تعرفت من خلالها على الحياة الأخرى في الصحراء والتي كنت أجهلها ابتداء بالألوان والأثاث وانتهاء بالحضارة. شكرت الله لأني ذهبت إلى الجمعية، ولأن سهى كانت معلمتي، ولأني آكل قطعة كاتوه في هذا الصحن الأبيض وعليه رسوم الزهور، وأشرب الشاي وأضيف إليه العسل بدل السكر، والذي على حد قول سهى: «السم الأبيض». وأرى كنار سهى يغرد، طائراً طليقاً في البيت، ينتقل من على كتفها إلى سماعة التلفون إلى الكرسي. كل حديث، كل شيء كان عقلي يلتقطه ويسجله.

- ٣ -

«يا تمر، ولا كلمة، انصتي، ما تكفريني ولا تلعبي بصلاتي».

سكتت. أرى ذبابة تغط على يد أمي. انكمشت عضلات حلقي. حادت الذبابة عن اليد. جلستُ أمام أمي صامتة أرقب الذبابة فوق الجلد الأبيض الجاف.

«يا تمر، ويا تمر، ما تخلليني أندم، أربع سنين...».

ما أردتها أن تكمل، بل نهضت بعصبية. وهتفت: «ماني سامعة، ماني سامعة». ودخلت المطبخ: أضع الابريق على النار، أنتظر واقفة الماء حتى يغلي. كأن راحة حلقوم دخلت فمي، مرّت بين عضلات حلقي تلينها. لو بقيت في الغرفة لكنت رأيت أمي تمد كفها تصلح من برقع وجهها. بعدما أطلقت إصبعها لتتحسس أنفها وعرق ما تحت عينيها، قبل أن تهزها في وجهي لتقول: «أربع سنين، وأنا ما انقطعت يوم عن الصلاة، ولا سنة عن الصيام، والدم والقذارة ما جتني، الدكاترة تقول في بطنك بني آدم، وأنا قول والله أنا ما فاطرة ولا أنا مستعفية عن الصلاة، بيني وبين ربي الحساب. إذا كنت حامل، يشطب لي ٩٠ يوم صيام ويمكن ٢٠٠ صلاة». كنت أصححها كالعادة: ١٢٠ يوم صيام وحين أحاول أن أضرب فروض الصلاة التي أدتها أمي على مدى أربع سنوات كنت أبدّل رأيي وأقول: «الحاصل أكثر من مئتين».

كنت أسرّ لقصص أمي، خاصة أن شعري الآن يصل إلى ظهري، وحاجبي ورموش عيني كثيفة. لا أثر للإبر على يدي وفخذي حسب إشارات أمي المستمرة. فهي تمسك بيدي تتفرس، ولا تتوقف إلا عندما يلامس وجهها البشرة تقول: ها. لكني ما عدت فرحت بقصتها هذه. ولا بقصة عمتي التي ولدت ابنتها عواطف، وأحشاؤها كانت خارج اللحم، تسبح في الرحم ممتدة بمصران، وكيف شقها الأطباء، وأعادوا كل عضو إلى مكانه، ولا بقصة القطتين الأختين اللتين كانتا في بيت جدها. وكيف لما حملت الأولى، غارت الثانية، وحملت إنما بعد مدة، برغم أنها ما خرجت أبداً من مكانها تحت الصندوق. وكيف شعرت القطتان بالمخاض معاً، وكل منهما قطعت سرّة الأخرى، وما استطاعتا التفريق بين مواليدهما.

كنت أنظر إلى عمتي وأمي وهما تكملان قصة القطتين. وأتمتم «العوذ بالله من الشيطان»، كانتا تجلسان قبل الظهر وبعد الظهر، كلما زارت العمة المكان، وكانت تزورنا كثيراً بعد أن شل نصفها. أحاديثهما لا تطول وتتشعب إلا عند العصر، بين أقداح الشاي والقهوة والعصير والبسكوت. كل منهما تودّ أن تعيد قصصها. ولا يبدو أن أمي تسمع ما تقوله عمتي، ولا عمتي تسمع ما تقوله أمي. وكان يبدو عليهما ذلك، أمي تتشاغل بأصابعها، وعمتي تحكش أذنها، ثم تعد حبيبات عقد رقبتها. أمي تنهض بلا سبب، تدخل الغرفة أو المطبخ والعمة تستأنف حكاياتها.

كانت عمتي نسب تستحوذ اهتمامي أكثر من أمي. صوتها القوي وبحته. أسنانها الذهبية، شدة سمرتها، عقدها الذهبي الذي يبدو ثقيلاً. وحنة يديها وقدميها الحمراوين المسودتين، كل ما فيها مبالغ، حتى إنها كانت تكحل عينيها، وكان خط جفنها السفلي عرض الاصبع، وما رأيت يوماً شعرة بيضاء واحدة، بل ضفيرتين سوداوين تحت الغطاء، تفردهما أحياناً، لتمشط الشعر بأصابعها وتعود تضفرهما. وهي تتنهد قائلة: «يا تمر، الله فوق وعارف، هو سبحانه بكل شيء عليم، شريكات مصارين عواطف، عارفها هو، بس هو يمتحن الإنسان وإيمانه. والله والكعبة، لما شفتها مثل البدر، العيون وساع، بتطلع علينا واحد واحد، ومصرانها ماسك اللحم والدم، قلت

يا ربي ماني متأففة ولا كافرة، بودي حبها وأعشقها كل ما هو قلبها بيرف، حبيبتي عواطف، كانت كلها عيون، عارفين المشرق والمغرب، صيته قالتلي، أنت تحركت والله عز وجل كان ينفخ الروح بعواطف. أنا عارفة حركتي، وأنا نايمة تصير رجولي مكان راسي وراسي مكان رجولي».

انتبهت إلى الماء الذي غلى وجفّ معظمه. وأنا لا أزال أقف أمام الإبريق ذي الصفارة، صببت الماء القليل على أكياس الشاي والسكر فيه ثم وضعت الإبريق فوق الصينية إلى جانب الأكواب الزجاجية، ثم أخذتها إلى غرفة الجلوس. كانت أمي تنظر إلى التلفزيون رغم اهتزاز الصورة. ما تصورت أني أستطيع الجلوس كما في السابق، سعيدة بالشاي وبالزائرات اللواتي سيأتين بلا شك. إذ أن المغرب مطبوع في ذاكرتي. بين أكواب الشاي والأحاديث، وضجة التلفزيون والأولاد، والنساء تصلّي أينما كان.

أجلس الآن بعيدة عنهما أتصنع القراءة، ثم أتصنع كتابة الأرقام على ورقة بصوت مسموع، كلفة الإيجار، المشغل، الرخصة، استحضار الخائطات من الفلبيين.

تقول أمي موجهة الحديث إلى عمتي: «يا نسب. لازم وتمر في لندن وضع أحد نقاط سحر في طعامها أو شرابها. أو يمكن الشيطان لبس ممرضة أو دكتور ووسوسلها. لانهم هم من المشركين والضالين ويبغوا يكفروا المؤمنين.. عشان يصيروا أكثر. والبنت الأجنبية الجارة، مريم العذراء والله ما أدري اسمها». وما ضحكت لأنها حتى الآن ما حفظت اسم جارتنا ماريا، وما حادت عيني عن الورقة.

أجابت عمتي مدافعة:

«فهمت اسمها مريم. أقسم بالله وبالقرآن أنها جتني مرة واحدة». تمد عمتي يدها إلى الرجل المعافاة وتقول:

«إن شاء الله تصير هذه، زي الرجل الديسك، إذا كنت ما أقول الصحيح. والله، يا تاج، مريم قالت لي كلام كثير وبالعربي: يا ست نسب،

أنا ما في زوج. زوج ببلد بعيد. أنا في جهالي، أنا آخذ تمر بالبص، تشوف قصر الملكة. تشوف أوفرد، ساعة بن بن، تشوف حيوانات. وأنا أهزّ رأسي، وأعمل روحي ساعة متألمة ساعة غائبة عن الوعي، ساعة ما أسمع، ساعة ما أتكلم.

ذاب قلبها الأجنبية. كل ما يرق قلبي على تمر وأنا شوفها تبكي، أبسمل وأقول يا رب إبعد عني، شيطان البرد والمطر. يا رب، وتمر حدّ يشوفها، أو هي تضيع، أهل إبراهيم وأهل الشيخ يصيروا يونوا مثل النحل لا.. لا».

تضرب أمي صدرها وتقول بصوت معترض: «فهميني، فهّميني، فهّموني. ويش اللي قلب عقلها، ومين اللي حط جوالين دموع في عيونها. لما خطفوا إبنها محمد ما هرّت دموع». تقاطع عمتي قائلة: «أنت ما شفتيها؟ لما سرقوا محمد. صارت إبليس أصفر». ثم تنهدت عمتي ودقت صدرها بيدها، قبل أن تقول: «أقول لك الحقيقة عشرين يوم وعشرين ليلة. وتمر ما فارقتني بالمستشفى، هي على الكنبة أو على الشباك. بس لما جت عواطف راحوا يوم أوفورد، واشتروا قمايش وروايح، وقلتلها لعواطف. أنت وزوجك حرّين بس تمر عندي. أبغي أشوفها عالكنبة». أجد نفسي منصتة بكل حواسي لكن لا أعلق كالعادة على حديثهما، ولا أصيح كالعادة عندما تقول أمي: «رشيد معه حق من الأول الجمعية قلبت مخها، والمعلمة اللبنانية والسيارات. لازم يصير عندها بيت وأولاد» ثم التفتت ناحية الباب خوفاً من أن تسمعها بتول التي كانت في المطبخ وهمست: «ودّي عيش معها وريح رشيد. بالحق رشيد الله يديمه، لا يسأل عن خبز ولا شاي، عنده واجب تجاه العيلة لكن اللي يهمه مستقبل أخته. والله ما أحد يصدّق أن رشيد هو ابن ضرّتي اللي كنت عضّها واللي كانت تبصق بوجهي، عاطفته عليّ كأني من لحمه ودمه».

تنصت عمتي ثم تقول: «الله يبارك برشيد، ويبارك فينا، أولاد الانجليز يخلقوا أغراب عن أهلهم ويموتوا أغراب. لما الدكتور الانجليزي عرف كيف نعيش، وكيف ما نترك أهلنا، وهم ما يتركونا قال لي: «أنتم متحضرين أكثر

منا»، سألت مريم الإنجليزية وكانت مع تمر، حبيبتي تمر بقيت جنبي، والله ما فارقتني» «الحاصل شو يبغي الدكتور؟» وفسرت لي مريم بالعربية كلمة الحضارة. يعني اختراع الطائرات، يعني التقدم والحياة الحديثة والآلات، قلت لها: قولي للدكتور: «أنا صدقت عن الطائرات لأني ركبت فيها، وعن بواخر البحر، لأني سافرت فيها. والسيارات لأني تنقلت فيها، لكن ما صدق أن الإنسان طلع القمر ولو شفت مليون صورة. كيف قدر يوقف الرجل عليه والقمر قد رغيف الخبز وما وقع؟ وقولي للدكتور: ما صدق أن الأرض تدور. وأنها مثل التفاحة. لو الأرض تدور لكان سريري هذا صار هناك، والطاولة صارت مكان سريري. قوليله، هذا أوهام، لكن أحسن ما يزعل قوليله عمتي آمنت بالراديو، وبالتلفزيون، الإثنين يسلوا والإثنين عال، ولو لما سمعنا الراديو أول مرة قلنا هذا الشيطان، وشفنا التلفزيون وقلنا هذا جد الشيطان».

مددت يدي إلى شعري، هذا ما تبقى لي من لندن. شعري المالس الطويل، قصه لي مزين شعر هناك، وعمل لي برمانت خفيف. لندن، ودكاكينها والحمام الأبيض، وممرات المستشفى النظيفة. المساحات الخضراء الممتدة ذكرتني: «بجنات تجري من تحتها الأنهار». أحببت المطر. والباص الأحمر، والشاي والكعك في المقاهي. الاحترام من كل الرجال الذي صادفتهم، من مضيف الطائرة إلى حارس الفندق إلى الطبيب في المستشفى إلى سائق التاكسي.

في لندن قررت عند عودتي إلى الصحراء أن التحق بالجمعية وأدرس. فقراءة القرآن عند المطوعة، ما هي كل شيء. وقررت أيضاً أخذ دروس في الانكليزية حتى أستطيع أن أردّ عندما أسأل. فأنا ما استطعت نطق كلمة واحدة. ولا تمكنت من ملء أوراق الجمارك حتى بالعربية، تصورت نفسي أجلس أمام التلفزيون، أشرح لبتول ولعمتي وأمي حقيقة ما يجري في الأفلام الأجنبية. فالمرأة التي حبسها مستر روشستر في فيلم «جين اير»، لم تكن أمه بل زوجته المجنونة..

- ٤ -

في اليوم التالي. جئت بورقة الطلاق من الشيخ. كأن دجاجة أمسكت قلماً وكتبت. بل خربشت. لما وصلت إلى المبنى الحكومي قلت لسعيد: «قول للموظف يجيني وأنا أستنى في السيارة».

لم يستغرب سعيد. نزل وهو يقول: «لحظة يا عمتي تمر».

رغم جلوسي في السيارة كان قلبي يدق. كما دقّ وأنا أدخل البنك منذ ايام. عرفت وقتها أن دخولي خطأ، ربما ما داست عتبته امرأة قبلي. لكن النساء تدخل المخازن والمحلات وتشتري. من سيمنعني؛ الغطاء الأسود سميك فوق وجهي. عبر الغطاء رأيت العيون، والأجسام كلها. وما قال لي أحد «دخولك ممنوع»، تقدمت بخطى واثقة، أعطي الرجل ورقة. غاب قليلاً ليعود ويسألني إذا كنت أحمل حفيظة نفوسي. أجبته «نعم». فكّرت، ثوان وينتهي هذا التوتر، لكنه قال إن نقودي هي باسم محمد. شهقت قائلة: «محمد هو ابني». قال الرجل دون أن ينظر إليّ: «لازم يجينا هو». خرجت من البنك وأنا أفكر لماذا سجّل رشيد مالي باسم ابني والذي كان عمره خمس سنوات، لما توفي والدي وترك لي هذا المبلغ.

في اليوم التالي لما جاء ابني، تأكدت من أنه يحمل حفيظة نفوسه. أسرعت ألتف بعباءتي وأتجه إلى السيارة. لكن صوته المستغرب أوقفني: «إيش اللي تبغيه يُمّا». أجبته بخجل: «أروح معك، واستناك بالسيارة». ردّ

أكثر استغراباً: «تروحي معاي البنك؟ وتستني بالسيارة؟ ويش خطر لك؟».

ما ناقشته، بل دخلت البيت ويدي على قلبي. خمسة وعشرون ألفاً، سيستلمها إبني الذي لم يبلغ السادسة عشرة بعد. لم أرفع يدي عن قلبي إلا حين عاد والمال معه في كيس الورق.

كما دقّ قلبي وأنا أدخل البنك، دق قلبي وأنا أدخل المبنى الحكومي للحصول على رخصة مشغل وحلاقة. السكون عمّ المكان. لما تقدمت من موظف خلف الطاولة، انعقد لسانه، وأشار بيده إلى الطاولة الأخرى، ثم حولوني إلى آخر وآخر وآخر. فهمت أن دخولي إلى هذا المبنى هو خطأ كبير. لكنه ليس ممنوعاً، ولماذا هو ممنوع؟ الغطاء الأسود على وجهي. الملاءة السوداء علي، تحتها يزحف ذيل الفستان خلفي، محتشمة غير متبرجة. عرفت أن غضب رشيد سيكون عظيماً. فكرت «سيقتلني؟ لا بأس». عدت إلى الطاولة الأولى، والقهر قد دبّ فيّ وتحول إلى شجاعة ربما متهوّرة. قلت غير مبالية إذا سمعني أحد أم لا: «إسمي تمر بنت الطاوي، أبغي أفتح مشغل خياطة وحلاقة للحريم». أجابني الرجل غضباً عنه، وكأنه أصبح تحت سطوتي: «مشغل في. لكن حلاقة ممنوع. متزوجة؟»، «مطلقة». «تجيبي ورقة طلاقك، خللي وليّ أمرك يجينا مع صك الإيجار لنكشف على المشغل، وبعدين نعطيك الرخصة». ثم أردف ناظراً في الأرض: «لكن يا أخت في المرة الثانية، إبقي بالسيارة، وابعتي سواقك، وموظف يجيك السيارة مع الأوراق ويأخذ توقيعك». شكرته وخرجت من المبنى. ورقة طلاق؟ ما رأيتها عندما طلقت زوجي الأول ولا زوجي الثاني، لا أذكر أني وقعت اسمي على ورقة واحدة في حياتي.

هربت من زوجي الأول إبراهيم في ظهيرة حارة. إبني محمد في حضني. أهل زوجي ينامون من ثقل بطونهم. طُلقت من زوجي الثاني عندما نهضت في الصباح على دق كثير على باب غرفتي الموصد من الداخل. فتحته على عجل وأنا أتذكر البارحة، لما قال لي زوجي الشيخ: «صكّي الباب. أصحابي لا بد يسكروا، واحد عايز يشوف إذا كنت صحيح تشبهي نبيلة عبيد، ما تعرفي الشيطان يوسوس لهم..».

أشبه الممثلات؟ تأملت نفسي تلك الليلة. سمراء، كبيرة العينين، صغيرة الأنف، أسناني متساوية وبيضاء، متوسطة الطول، جسمي مقبول، لولا امتلاء مؤخرتي. فتحت الباب بعجلة، رأيت الخادمة تمسك بيد ابني محمد. ابتسمت له قائلة وأنا آخذه بين يدي: «صباح الخير، وصباح النور يا حمّودة». قالت الخادمة باقتضاب: «أخوك رشيد في تحت». استغربت وفكرت أن بتول لن تولد قبل شهر؟ إذا أهل زوجي الأول إبراهيم يريدون ابني محمد. لبست فستاني فوق قميص نومي الحريري، وهبطت السلالم بعجلة.

بادرني رشيد بغضب وتشف: «مبروك، طلقك الشيخ».

ما صدّقت ما أسمعه. البارحة هدأني الشيخ عندما رآني أبكي، خائفة من تهديد أهل إبراهيم لأخذ محمد مني. وقال: «ما حد يمس ظفرك. وأنت زوجتي».

المفاجأة والفضول حالا دون إدراك حقيقة شعوري إزاء طلاقي. عرفت من الخادمة وهي تساعدني في حزم حقيبتي أن الأخرى صحت من نومها على صراخ الشيخ. رغم سكره الشديد رأته يخبط باب غرفتي خبطاً قوياً، وإذ بقي الباب موصداً أتى بمسدس، وراح يحاول الوصول إلي. لولم يمسك به السائق والخدم. وما رضي الإذعان إلا بعد أن أقسم بالطلاق، وطلب شاهدين وطلقني. لم يصدقني أحد عندما أقسمت بالله وبأنبيائه أني لم أسمع شيئاً سوى هدير المكيفات، مع أني نادراً ما أنام هذا النوم العميق.

بعد أيام وفي بيت رشيد، عرفت أنني سعيدة لطلاقي. كان الشيخ سكيراً، يصحو والقزازة، وينام والقزازة، يجلس طوال النهار ولا ينهض إلا ليصافح زائراً. يحتسي الكأس تلو الأخرى حتى يلوي رقبته وينام. يستيقظ في العصر، وينادي حتى أقترب منه. وأنا أشم رائحة المشروب القوية. أذكّر نفسي بأن علي التحمل قليلاً. لا يلبث أن يتركني بعد وقت قصير. كان يغط أحياناً في النوم ما إن يكب فوقي. عندها أفرح وأتمنى لو يأتيه

النوم دائماً. فرائحة المشروب لا أتحملها إلا بجهد. وكنت أعرف أن عمتي وأخي والكل سعداء لزواجي، إلى جانب البيت الكبير كقصر، والخدم والسيارات، والسائقين، كان هو من الوجهاء والأعيان. وكان حنوناً، كريماً، الهدايا والمال كالمشروب موجودة يوزعها بسخاء. كان يعاملني كابنة له، مع أنه ما كان يكبرني إلا بخمس عشرة سنة. يسألني كل يوم: «أكلت والحمد لله؟، شربت والحمد لله؟ محمد أكل والحمد لله؟ شبع والحمد لله؟» محمد هو إبني والحمدلله مع أنه لا يراه إلا نادراً. حتى عندما يراه، ما كان يداعبه.

لما أخبرت رشيد بهذا كله أجابني: «ويش دخلك، هو أنت اللي تشربي المسكر؟» لكن عودتي إلى بيت أخي والعيش بينهم وعدم زواجي لم يساعد محمد. أخذت أبيع المجوهرات والملابس للجارات بأسعار رخيصة، وأشتري لمحمد ما يريده. كان يقول لي دائماً إن أولاد وبنات خاله أحسن وضعاً منه. وما كان يدرس ويحضّر واجباته. بل يتعمد مضايقتي. كنت أعرف أن انفصالي عن إبراهيم، حوله إلى ولد عصبي نزق. حائر بين الإثنين. عندما كان يقيم عندي كان يرفضني، ويرفض حياته معي ويطلب العودة إلى والده. ما ان يمضي يومان على ذهابه إلى والده، حتى يتصل والده برشيد قائلاً إن محمد يريدني. وكان رشيد قد اصطحبني مرة للمجيء بمحمد إثر اتصال والده بنا. أطلّ محمد سعيداً حتى سارت بنا السيارة دقائق. ثم تجهم وجهه ولم يتكلم طوال الطريق، إلا ليطلب من خاله التوقف لأن دواراً أصابه. لما أوقف رشيد السيارة، ركض محمد وهرب يعتلي الكثبان ويجلس حائراً يبكي، رافضاً النزول، بل أخذ يرميني ورشيد بالرمل رافضاً العودة إلى والده أيضاً.

- ٥ -

اقتنع رشيد بفكرة المشغل عندما قرأ الرخصة وكانت مسجّلة باسمي واشترط أن يستجلب الخائطات الفليبينيات شرط أن تدخل بتول شريكة، دون أن تزور المحلَ. وأن لا تعدّي الفليبينيتين عبر عتبة باب المشغل الذي سوف تنامان به إلا معي. زغردت عمتي. قفزت أنا من الفرح. وهللت بتول. وبكت أمي.

وما انتبهت إلى أن أمي لا تزال تبكي، بل تتشنج. كان عقلي يدور فرحاً، يتخيل غرفة الاستقبال في المشغل، غرفة الخياطة، المرآة، الخزائن، صور الموضة في مجلات سهى، والخائطات الفليبينيات، واحدة منهما يجب أن تكون مصففة شعر، أفكر في الطاولة والكرسي الذي سوف أجلس عليه تماماً، كما في الدكاكين. والعائلات والشيخات كلهن يتوافدن على مشغلي.

وسمعت أمي تقول بين شهقاتها: «والله ما رجعت من بلادي إلا عشان عيونك يا تمر، تركت أهلي وتراب أمي وجيتك، وأنت لا تحسبي حساب. كأني ما حملتك في بطني ولا بزرتك، أنت لاحقة نسب، كأنها ضبع شخّ عليك وسبعك، أربع سنين حملت بك..».

حضنت رأسها واحترت بماذا أجيبها. وعرفت أن أمي لن تكف عن البكاء. ربما لليال أو لأيام كعادتها. خفت أن تعود إلى الهذيان والثرثرة، فاقدة عقلها ككل مرة تغضب فيها. ووجدتني أقترب وأهدئها كما أهدىء

طفلاً. «لا يا أمي وحياة محمد أنت غلطانة. كلمتك مسموعة ومطيوعة. أنت تعرفي رشيد وعناده، عمتي تأثر عليه وهو يخجل منها. أنت تعرفي، فضلها عليه، هي مثل أمه». وأخذت أتحسس ضفيرتها الحمراء. أرى الشعيرات البيضاء عند الجذور. بدا رأس أمي صغيراً. حتى الحنة لا تلون الشعر الأحمر الأصيل ولا راحة كفّيها الناصعة البياض. أتأمل الشرايين الزرقاء الرفيعة عند رقبتها. ألمح القدم الصغيرة نحيلة، حافية، كأنها من زجاج.

شددت على يدها أبعدها عن وجهها الأحمر. لما رفعت إليّ عينيها الخضراوين، كانتا محتقنتين، وفكرت كعادتي أن أمي، لا يمكن أن تكون أمي: «أعوذ بالله» وجدتني أبعد فكرتي هذه. وصرخت أمي باكية: «حتى أنت يا تمر تقولي أعوذ بالله، والله ماني مجنونة!».

ووجدت نفسي أقبّلها على الخدين. ألمس الدموع المالحة، ثم أقبل يديها. أحتضنها وأقول: «أنت تاج العروس والملوك، إذا كنت أنا مجنونة، أنت مجنونة!..» جملتي هذه جعلت أمي تزيد من بكائها الأقرب إلى النواح. أو كمواء قطة تستجدي. وكانت تهتز كلها وقد أعادت كفيها تغطي بهما وجهها.

أخذت شهقاتها تخف شيئاً فشيئاً، ثم مدت يدها إليّ تشير إلى أنفها.

مددت لها بمنديل كان في جيبي، لما نظفت أنفها ومسحت عينيها، حاولت أن تتكلم بلا بكاء. جملة واحدة أحفظها غيباً: «كنت حاسة فيك بين ظهري وكتفي». وأردت أن أقول لها أعرف، أعرف، لكني خفت من مضايقتها وتركتها تقول: «كنت حاسة فيك بين ظهري وكتفي، ولا مرّة نمت على فقراتي، دائماً على بطني أو جنبي، تغذيت كل يوم بلبن جمال وضان، وبثلاث حبات تمر. الدكاترة يعطوني إبر، طول الواحدة شبر. لما ولّدتك، شفت نغز الإبر بايديك ورجليك، الله أكبر. ولدتك حليقة، بلا شعر، وبلا حواجب وبلا رموش، حتى ما كان الشعر في نخرك، صرت حنّيك كل ليلة جمعة، الضراير وأولادهم يضحكوا عليّ، ويقولوا: تحنّي حجر صفوان؟ وأنا «صم، بكم ما شوف». حنيت جلدة رأسك، وزيادة اشتريتلك أمشاط

وشرايط، حتى اشتريتلك دواء للصيبان والقمل، لما الكل تغامز عليّ في سوق الحريم وهم يشوفو موضي الملعونة بتبيعني قنينة طويلة وتقول لي ضاحكة غامزة: «يمكن تلزم تمر، دواء وارد الهند، الكل يحلف أنه مثل شياطين سليمان، نقطة واحدة بالرأس ينفي القمل عن بكرة أبيها». وأنا نكاية فيها، وبالملعونات قلت، ما يخالف أشتريته، ومديت كفّي على عبي ودفعتلها.

كنت أنظر إلى عبّ أمي الذي يكاد لا يظهر من تحت فستانها الطويل. وأرد بملل وبحزن في آن: «أنا عارفة يا أمي. أنا عذبتك ولا زلت أعذّبك. أنا عارفة. لازم أختصر كلامي مع عمتي. على كل، هي ضيفة عندنا، يومين وتروح منطقتها»، ثم زدت بنفاق: «وأنا من قساوتها علي في لندن، وتدليعها لعواطف، عرفت مكانتي الحقيقية في قلبها».

شهقت أمي موافقة: «تعلمينني على نسب؟ وعواطف؟ طلقك الشيخ. وما شدت عمتك بشعرها، ولا ندبت صدرها، يمكن هي ارتاحت، كيف تمر تتزوج من شيخ وعواطف لا».

رددت مجاملة: «الله يسامحها».

ثم وجدت نفسي أمسك بيد أمي أسحبها عن السرير وأقول: «يللا يا تاج العروس وتاج الملوك، إغسلي وجهك وإلبسي فستانك، وسرّحي شعرك، عندنا شغل كثير».

وأنا أنقي الأرز من السوس وأفرم اللحم، وأقطع الخضار بحماس، دخل رشيد وقد أمسك ورقة الرخصة لفتح المشغل غير مصدق أن الوزارة منحتها لي. ابتسمت بفخر وما علّقت. يجب أن أطبخ بسرعة، رغم أن بتول طلبت مساعدتي في الطبخ اليوم. لكني رفضت. أردت أن أبرهن أن فتحي للمشغل لن يبدّل شيئاً في تقديم مساعدتي للبيت.

رغم تفكيري بالأشغال الكثيرة، شراء مكنات، ستائر، ودبابيس، ومقصات، ثلاجة صغيرة وفراشين للفلبينيات، إلا أني كنت أفكر في أمي

تمتمت: «شكراً يا ربي» إنها في تحسن دائم. غضبها، وحزنها، هذه المرة كانا عاديين. حتى إنها ما عاندت في النهوض.

وأنا صغيرة، عشت مع أمي في غرفة واحدة في بيت يتألف من ثلاث طبقات. أرى نفسي أنتظر أمي في الفراش. أتأملها وهي تضفر شعرها الأحمر، مغمسة أطراف أصابعها في كوب زيت. تسألني وابتسامة على شفتيها: «أنت يا تمر لازم نعسانة، ما تبغي تعرفي عن السميسكة». كنت أبتسم وأعرف أن أمي تمازحني. كانت أمي لا تزيد ولا تنقص ولا تبدل لهجتها حتى وهي مريضة. تسوي برقعها عند الكلمة ذاتها كل مرّة. تبتدىء دائماً بعضّ شفتيها قائلة: «يا تمر ويا تمر قصة السميسكة هي قصة البنت الفقيرة اللي أمها ماتت، وضرة أمها قاسية وخبيثة، كانت تخلّيها بالمطبخ، تحف النحاس، وتملي الماء، وتكنس، وتمسح، وتشعل الفحم وتطبخ، وتغسل، وتحضر المبخرة، وتحني شعر ضرة أمها».

«يا تمر ويا تمر، مرة اصطاد أبوها الصياد مائة سمكة، وسهرت البنت الفقيرة كل الليل وفي أيديها السكين تنقر بطن السمك وتشيل الأحمر والدم والقلب. ضرّة أمها، قالت لها: لازم تنظفي كل السمك الليلة، لأن السمك إذا كان فيه خير ما يعمل ريحة كريهة». لما مسكت البنت آخر سمكة فرت من بين إيديها. فكرت البنت، أن إيديها المنفوخة والحمراء صارت تعبانة. لكن السميسكة بكت، وقالت بصوت رفيع للبنت: «اتركيني وأنا بِغْنِيكِ»، والبنت استغربت السمك بينطق وخافت، وقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وتطلعت عالسميسكة وكانت حلوة، عيونها سود، وأنفها من صغره ما باين، وفمها فتحة صغيرة، وأسنانها صغيرة، وجلدها فضي يلمع. وبكت السميسكة أكثر وتوسلت للبنت: «أتركيني وأنا بغنيك»، شفقت عليها البنت الفقيرة، وحملتها تحت إبطها، وفتحت الباب على مهل، وشخير ضرة أمها وأبوها واصل السماء، ركضت حتى وصلت البحر، ومسكت السميسكة وقالت لها، يا سميسكة ويا سميسكة لا تبكي ولا تنوحي، عودي لأمك وأبوك وأختك وأخوك وجيرانك ولمعلمة القرآن والدين، مع السلامة. ورجعت البنت البيت، ولما

سمعت شخير ضرة أمها وأبوها واصل للسماء تنهدت. ثاني يوم ابن السلطان عمل حفلة ولا الحفلات. المناسف والرز والحلاوة. وكل صبي وبنت ورجل وحرمه راحوا الحفلة. إلا البنت الفقيرة. ضرة أمها خلتها في المطبخ مع كيس رز كبير، وأمرتها تنقيه من السوس حبة. حبة. وبعدين رشت ملح عالأرض، وأمرتها تجمع الملح حبة حبة، وخوفتها من يوم الحساب، الله سيأمرها أن تكنسها برموش عينيها. قعدت البنت الفقيرة على الأرض تبكي، وصارت تنقي السوس، والسوس يهرب من بين أصابعها. وسمعت صوت حلو يقول: «أنا السميسكة، عملتلك فستان من مرجان البحر، والزينة من الصدف واللؤلؤ حتى تروحي قصر السلطان». إلتفتت البنت الفقيرة مستغربة ونادت: «أنت فين؟» عادت تطلعت عالأرض وقالت «والسوس والرز والملح؟» ردّت السميسكة: مش مهم، أنا خلّيلك الرز أبيض والسوس يغرق، والملح في المرطبان. يللا معك السلامة.

شافت البنت نفسها بالفستان الجميل، ومن الشباك شافت عربة كرسيها صدفة كبيرة. والسائس مارد صغير. وراحت القصر، وابن السلطان حب جمالها وأخلاقها وتزوجت يا تمر وعاشت حتى يوم القيامة، بالثبات والنبات وخلفت صبيان وبنات». فقط، وعند تمددي على السرير أستمع إلى قصة السميسكة كنت أشعر بالسعادة، إذ كانت تبدو أمي هادئة وجميلة، ورائحة الطعام والقهوة وصابون الغسيل قد اختفت من الغرفة التي كانت بيتنا.

كانت أمي تطهو طعامنا في هذه الغرفة وتغسل ملابسنا ولا نفارقها إلا لننزل ولنصعد السلالم الطويلة بسرعة وهي تحتضن الخضار واللحم كأنها لصّة. وكنت قد اعتدت أن أسمع صوت أمي يشتم ويهدد من الدرجة الأولى إلى أعلى السلم. وأحياناً كان صياحها يختلط مع صياح آخر. كنت أفرح كلما رأيت أمي تتناول السطل، إذ عندها كنت أخرج من الغرفة، أنحني أراقب أمي وهي تشد بالحبل إلى أعلى وقد تجهم وجهها.

من سرعتها كان السطل المغمور بالماء يندلق معظمه بين الطبقتين حتى يصل إليها. وأحياناً كان أحد الأولاد، رغم سرعة السطل، يضع فيه حصوة أو

بزرة تمر أو ورقة حتى يرى جنون أمي تاج، وهي تشتم اسْمي جوهر ونجيّه بأعلى صوتها. قلما خرجت في النهار أو في الليل من الغرفة إلا للذهاب إلى المرحاض، ومع أمي. ونحن ننزل الطبقتين أحاول التلكؤ، تنهرني أمي بعصبية: «قبل رمشة عين كنت ماسكة نفسك، والحين تتبختري؟» أردت أن أرى الأولاد، وجوهر ونجيه، أتمعن في وجوههم. إذ كنت أرى شبهاً بيني وبينهم أكثر مما بيني وبين أمي. لكني دون أن أدري كنت أخفض نظري كلما التقيت أحدهم عند المدخل وعند باب الحمام.

وكنت أشعر أني أعيش معهم لأني أسمع أصواتهم وجلبتهم وكأنهم في الغرفة. وإذا ما سمعتها انتظرتها. عدا أن أمي كانت في سيرتهم، منذ أن تفتح عينيها في الصباح، إلى أن تخلد إلى سريرها في الليل. تتلو علي قصصاً لا أستوعبها، بل أعرف أن محورها الكراهية. ومع ذلك ما شعرت إلا بالفضول وبالشوق إلى أن أنزل السلالم وأدخل غرفهم وأحادثهم، وألعب مع أولادهم. رغم أني رأيت أكثر من مرة جوهر ونجيه تشدان شعر أمي وتكبان فوقها تضربانها. وتصيحان من عضّها لأيديهما ولفخذيهما، بينما يصفق الأولاد من حولهن فرحاً: «التركية مجنونة. التركية مجنونة». حتى فتح باب الغرفة، أصبح أمراً أتوق إليه، فرؤيتي لفضلات طعام عفن عنده والجرذ الميت وقشور البطاطا والتاج من ورق مذهّب كلها، كانت بالنسبة لي حواراً بيني وبينهم.

كم تمنيت لو أفصح لهم كم إني أتوق إليهم، رغم عراك أمي ورؤيتي لزبل الماعز المرمي عند باب الغرفة. بل كيف أحببت تاج الورق المذهّب الذي تركوه، ووضعته على رأسي وأردت الاحتفاظ به، لكن أمي نتشته ومزقته بين أسنانها.

لما فقدت أمي أساوري الذهبية، وما شاء الله، والقرآن المرصع بالألماس والياقوت والذي كان هدية السلطان لها، جاءت عمتي تصحبنا إلى بيتها لنعيش فيه، إذ جن جنون أمي. وقتها نزلت السلالم وكأنها تخطفها. دخلت طبقة جوهر كالزوبعة، قلبت الأثاث، حتى إنها مزقت الفراش،

وأخذت يدها تبحث بين القطن. وما استطاعت جوهر، ولا أولادها الوقوف في وجهها، بل إنها لوت يد نجيه، وبصقت في وجوه أولادها. ولما كان الباب الآخر مقفلاً، أخذت تتراجع إلى الخلف ثم تعود كثور وتضرب الباب، حين لم ينكسر نظرت إلى أعلى، وابتهلت لله أن يفنيهم واحداً واحداً. كانت نجيه وجوهر تخافان من عينيها الملونتين، ومن نمش وجهها الأحمر، ومن شعرها الأحمر الذي ما رأتا مثل لونه قط. فأسرعتا تحيط كل منهما بأولادها، تخبئان وجوههم بذيول فساتينهما.

كأن الحياة أصبحت أخرى في بيت عمتي. لم أستطع إلا أن أفكر لماذا لم ننتقل إلى بيت عمتي من قبل، بل لماذا لم تزرنا أو نَزُرْها بدلاً من البقاء في تلك الغرفة. إذ حب عمتي كان غامراً، وابتسامتها عريضة، وضحكها يسمعه كل من في البيت.

حتى أمي كانت تجلس إلى جانب عمتي هادئة، جميلة. (عدا بعض الأحيان حين تذكر سيرة نجيه وجوهر) وكانت محور الجلسات. اختلاف شكلها عنهن جميعاً كان يدعو للانبهار، عدا كلامها الذي كان ولا شك مشوقاً. إذ تنصت له النساء حتى عمتي كالمسحورات. أما أنا فقد أخذت أسر باللعب مع بنات عمتي، خاصة مع عواطف، التي كانت من عمري، وأولاد عمتي الذين كانوا يذهبون إلى المدرسة. ويأتون بالكتب الملونة التي فتحت ذهني، سألت مرة عن صور السمك في الكتب، وأخبرني ابن عمتي عن السمك. كنت أنتظره عند الباب في الحر تحت الشمس، ثم أهز رأسي آسفة: «يا ريت معلمة الدين، تعطينا كتب، مثل الكتب حقتك» وأنا آخذ بين يدي الكتب أحدّق بالصور. مرة قرأت كلمة «الله» في كتبه، ودهشت قبل أن أعرف أني أستطيع القراءة في غير القرآن وأستطيع الفهم أيضاً. عمتني السعادة لما أصبحت أقرأ ما يقرأ، وأدرس ما يدرس وأكتب ما يكتب. ذهابي إلى معلّمة الدين تحول من بكاء كل صباح إلى امتنان. ما عدت اهتممت لعينيها القاسيتين، وتوقفت عن عد أزرار برقعها، صببت كل اهتمامي على فمها أفك رموز الكلمات وأسألها إذا كانت كتابتي لاسمي صحيحة.

ومع عمتي ذهبت إلى السوق، وركبت السيارة، وذهبت إلى الصحراء، ونمت في الخيمة. وفي حضور عمتي وقفت بينما الجارة الهندية تقيس القماش عليّ. سألت أمي بفضول وكفّي فوق الخيوط الذهبية والفضية إذا كان العيد قريباً. ردّت عمتي: «لا يا تمر، هذه لابنة قريبتي في إيران». وما سألتها أيهن فهناك قريبات كثيرات. لا يمر شهر إلا وتستضيف عمتي عائلة من إيران أو البحرين. كنت أفكر أن كل امرأة تلبس عباءة وبرقعاً هي قريبة. كنت أتوقف في الشارع أرفض السير، أشير لأمي أن تسلم على العباءات المتحركة.

لكن الملابس الجميلة كانت لي، ألبسنني واحدة بعد الظهر، بعد أن قمن بتحنية يديَّ وقدميَّ في الصباح. وأخذنني إلى بيت والدي حيث جوهر ونجية والضرّة الهندية الزوجة الجديدة. فكرت بالسطل والحبل والخادم للحظة وأمي وعمتي كانتا من على جانبي. فكرت إذا كان هذا هو زواجي؟ إبنة جارتنا قالت لي مرة إنها عرفت بزواج أبيها من أخرى غير أمها، من كثرة صواني القش والمعدن وفيها الرز واللحم المطبوخ. وها أنا أرى أكياس المؤن والصواني، وأمي تذوق الأرز وتقول: «الظاهر بخلاء، والله المساعد. حب الهال والكمون تعدّه العين. الله يساعد قرة عيني تمر» ثم سمعت الطبول والزغاريد. قلت لأمي: «يّما، يما تجوزيني وأنا ما بلغت؟» كنت أعرف عن البلوغ من كتاب الدين رغم أن المعلمة كانت تضيف كلمة القذارة إلى العادة الشهرية. وقلت: «تزوجوني والولد عيب، والرجل عيب؟» تجيب عمتي: «لا يا تمر، لا تكفري، الرجل زينة الحياة، تاج الرأس. صولجان القلب»، بكيت، ولا أعرف لماذا أبكي. وسألت أمي: «يّما، يّما وأنت تبقي معي؟» ولما هزت أمي رأسها شعرت بالطمأنينة.

تدق النساء الطبول. ويزغردن ويغنين، نساء يدخلن المجلس لا أعرفهن جميعاً الأهازيج والأغاني تتعالى. وأرى المدادة، التي شاهدتها في الأعراس تزغرد وتغني، لطالما تساءلت، لماذا تنهال النقود على المدادة، ولماذا تخبئها في عبها كما يحصل الآن. لما رأيت الجارات والبنات يقبلن أمي، وينظرن إليّ، فكرت ربما أنا أتزوج، واستبعدت الفكرة. كنت قد

سمعت أن الزوجة تلف بسجادة أو ببساط. قبل أن يدخل والدي، صاحت عمتي: «اللي كاشفة تتستر»، شهقت النساء وما رأين والدي يحملني إلا تلصلصاً، وما استطعن عند صياحي إلا أن يحدفن الغطاء عن وجوههن.

«يُمَا، يُمَّا». وأوصلني إلى غرفته، كانت تتوسط الغرف الأخرى. رأيت شاباً يجلس فوق تلة فرش عليها غطاء أبيض. صرخت. لما ترك والدي الغرفة، وقف الشاب. صرخت. ابتعدت وما تحرك. وما تكلم. ابتعدت إلى الباب. لما خطا خطوة صرخت. لما اعتلى الفراش، صرخت. لما تكلم. صرخت، ربما وقفت ساعة. أردت فتح الباب، لكنني أسمع الدفوف والطبول والزغاريد. ألصقت وجهي بالباب. لمّا خفّت الضجة وسكتت الطبول فتحته وعدت أغلقه. وقفت ربما ساعة أخرى قبل أن أفتحه وأركض بين الغرف أبحث عن أمي. أراها في فراشها، حشرت نفسي بها أحتضنها باكية. مدت أمي بيدها تمسكني، تمنيت لو أنها تتلو علي قصة السميسكة حتى أهدأ. لم أستطع النوم من الحلق الذهبي الطويل والعقد والرشرش والحزام. خلعتها كلها ووضعتها جانباً على الأرض. لما سمعت أذان الفجر نهضت مذعورة، وما وجدت أمي في الفراش. كانت تتوضأ. قالت وهي تقبلني: «صباحية مباركة يا تمر»، وما أجبتها. أردت البكاء وما بكيت.

زوجة والدي الهندية تحضر الفطور، وأمي تصف الصحون على الحصيرة. جلست قرب عمتي التي حضنتني وقالت «كلاماً عن مسك الغزال»، وما عرفت ما تقصده، إلا أن كلمة مسك الغزال بقيت معي حتى كبرت. سألت عمتي مرة عن معناها وما تذكرت عمتي أنها قالت شيئاً عن مسك الغزال في صباحية زواجي، لكنها قالت إنه أغلى أنواع الطيوب يجدونه في كيس تحت بطن الغزال الذكر، وإنها حصلت عليه من امرأة التقت بها وهي تحج بيت الله الحرام مقابل خروف. عندها فقط تذكرت تلك الرائحة الخاصة، والتي شذاها سيطر على تفاصيل العرس. وما فارق ذاكرتي الحسية. كلما استرجعته، كلما تذكرت عرسي.

ألبستني فستاناً آخر عند الصباح. عدن ووضعن كل الذهب عليّ وأجلستني على طراريح عالية في صدر المجلس. وابتدأ النقر على الدفوف والرقص والغناء حتى الليل. التسلية كانت عظيمة. رأيت الأولاد والبنات الذين كنت ألعب معهم، وحتى الذين يصغرونني يسترقون النظر عبر الباب، يمدون ألسنتهم، ويحركون أعينهم، ضحكت لهم. نسيت أثناءها مجيء الليل، رغم أني ما فكرت لماذا أنا خائفة، وماذا سيحصل. هذه الليلة أخذتني أمي إلى الغرفة، وقبل أن تستقر عيني تركتني فجأة. ليدخل الشاب الحائر. صحت والتصقت بالحائط. وما اهتم لصياحي. وما قال شيئاً، بل وقف بدوره طويلاً ووجهه إلى الحائط. لما توقف صراخي بقيت واقفة. وما حركت عيني إلا مرة، لما صدرت حركة عن الفراش ورأيته متمدداً، ووجهه قبالة الحائط.

فتحت الأكرة دفشت الباب لكنه ما فتح، تمددت على الأرض بعيداً عن الفراش وجهي يلامس خشب الباب. يدي تحت إبطي، لا أعرف إذا نمت. إذ بين حين وآخر، كنت أرى نفسي أحملق إلى الظلمة، ألتفت إلى الفراش وأطمئنّ. الحلق الذهبي والحزام وعقد الرشرش كلها تضايقني. وما شئت خلعها كنت أحتمي بها. ولما سمعت أذان الفجر، دفشت الباب بكل قوتي، وعرفت أني أدفع طاولة أسنِدت إليه من الخارج. وركضت إلى غرفة أمي.

هكذا كل ليلة، إذ لم يكن يُفتح الباب كنت أصرخ أصرخ وأعض يده ويدي وأي لحم تطوله أسناني. وعندها يفتح الشاب الباب بنفاد صبر ويتركني أهرب.

ولما كنت أهرب، كنت أدخل في مصيدة أخرى. الأبواب كلها موصدة من الداخل. حتى المطبخ حتى الحمام لم أجد سوى الباب الخارجي أفتحه إلى الشارع. ثم أعود أغلقه خلفي.

عمتي هي التي استمالتني ورشت ماء بارداً على وجهي. وسخّنت لي كوباً من الحليب وأطعمتني حلوى وعلوكاً وجلست معي في المطبخ. سألتني إذا كنت أذكر البنت المربوطة إلى النخلة؟ تذكرت بسرعة. كل ما يحدث غير

الروتين، كنت أتذكره وبالتفصيل. أتذكر الأعراس والمآتم والولادة، وهبوب الجراد، وركوبي في السيارة، وركوبي الجمل، وفستاني الذهبي. وخناقة أمي ونجيه وجوهر والسميسكة. تذكرت البنت مربوطة إلى نخلة حتى بدت والنخلة كتوأمين. عمتي وأمي أخذتاني وعواطف في السيارة لزيارة قريبة لعمتي. وكانت النساء والأطفال بين البيوت وعند ساحة واسعة، والرجال إلى جهة أخرى. وما رضيت أمي أن تقف مع النساء رغم توسل عمتي، واضطرت القريبة أن تدخل بيتها معنا. وأخذت النساء في البيت يتناوبن على الشباك، بينما حشرت أنا وعواطف رأسينا بين الأجسام. قالت القريبة: «من ثلاثة أيام، والبنت بلا أكل وبلا شرب». ثم دلت على أمها. وكانت بين النساء، تدور حولها تصرخ وتغني، تبكي وتضحك، النساء يلمسنها ويضربنها، يبعدن عن جبهتها الرمل ثم يرمينها به. أمها تسوي ضفائرها وتعود تضرب بها وجهها. تضم فستانها الذي تمزق وتعود تشده. كن يحمن حولها كالجراد الجائع.

سألت بلهفة: «ويش فيها البنت؟».

ردّت عمتي: «ما جاها الدم. وبطنها كبرت. اسمعوني يا تمر ويا عواطف، لما تلحقوا النساء، لازم يجيكم الدم كل شهر، وإذا ما جاكم احفروا بالرمل مثل القطط. ناموا واستريحوا. ما تتركوا حجركم إلا لما يطقطق عظمكم. هذي البنت ما شافت الدم، وما حفرت بالرمل وما نامت واستراحت حتى عظامها تطقطق».

سألت عواطف وكانت أحياناً ترى قطرات دم على فستان أمها «ويش البنت ما جاها الدم»؟ ضحكت النسوة عالياً والعمة تجيب: «لازم اللي لعب معها نسي عصاه فيها». وقبل أن تستفهم عواطف قالت القريبة موجهة كلامها إلى عمتي وأمي: «الزانية، قسمت على القرآن، أنها لعبت هي وبنت تانية، وقالت اللي صاير معجزة، أمها والكل استنكرن كذبها». لكن وطفة العجوزة ما تحملت صرخت: «بنت وبنت مثل الكفين. وهي تلصق كفيها،

كل أصبع حتى يلامس الآخر، والإبهام. حتى أصبح الكفان واحداً وشهقت: «معقول؟».

وابتعدنا جميعنا عن النافذة لنأكل. في صباح اليوم التالي لما تركنا المكان وجدنا البنت لا تزال مربوطة تلاصق الشجرة، وعيناها مغمضتان، نعستان، شعرها الأسود، لامس الأرض. بعد يومين. تعالى الصراخ. السكين هوت عند أسفلها، امرأة، اسمها عليّه الوشمة، من كثرة ما غزت الإبر، في وجوه الصبايا وأيديهن لترسم لهن الوشم الأسود في اللحم، ولما كان يتعالى الصراخ، كانت تقسم أنها ستغز الإبرة في اللحم ولن تخرجها إذا هي سمعت صرخة. وهي أول من تتلقى الأطفال، وأول من تشهد الميت وتدفنه أو تساعد في دفنه. كانت عليّه تتمتم، كأنها تهذي. السكين في اليد ـ كذلك قطعة صغيرة من اللحم نفسه الذي حف عليه اللحم الآخر. وتصرخ، وهي تحاول أن تفتح فم الصبية المربوطة إلى النخل: إفتحي وكلي، وإعلكي. هوت مرة أخرى على أسفل البنت بالسكين وبسرعة كما تهوي على الحمل الصغير ليلة العيد. تصرخ وهي تحاول إطعام قطعة اللحم للصبية، والصبية كأنها تجد مخرجاً من الألم الشديد وهي تعض أصابع عليّه الوشمة. أصابع جافة كقرن التيس، تعض، لربما انغراز أسنانها تساعدها على تحمل الجرح الذي لا بد أنه ينز الدم. كان الجرح اتصل بالبطن. الألم يشتد عند بطنها والصبية تصرخ وتصرخ، تبدو الرمال كأنها متصلة بالسماء. كأن حبيبات ملح، غطت الجرح. «كلي، إفتحي، إعلكي». هذه المرة بقوة. إذ عليّه الوشمة شعرت بالأسنان تنغرز في أصابعها. الصبية تبعد رأسها، إلى اليمين، الشمال، النخل يجرح وجهها. ولما ذاقت طعم الدماء واللحم أغمضت عينيها، تقيأت وما عادت وعت على شيء.

كان عمري ١٢ سنة وأنا أقفز على سطح منزل أهل زوجي مع بنات الجارات، أنزل بسرعة، إلى داخل البيت، لأرى الغبار الأبيض، يهر من السقف. أعود إلى السطح. وقتها فقط، كنت أنسى أني متزوجة، وأني ألعب في بيت غريب. لعبت يومين فقط، وبعد الغداء بالذات، بينما أهل زوجي يغطون في النوم. أيقظتهم ضجتي. عرفوا ما أفعله. استنكرت أم زوجي،

ريحان، لعبي، وعبست في وجوه الجارات الصغيرات اللواتي كن فرحات بالعروس الصغيرة. وما عدن يأتين يسلين العروس، ولأن أمهاتهن قلن لهن: إن العروس أصبحت دارية بالأمور الأخرى، وربما شوشت عقولهن. أخذ النهار يطل ولا يختفي في البيت الجديد. الشمس تضرب بحروقها داخله رغم المراوح الدائرة. الشيء الوحيد الذي استأنست له كان رسوم الزخرفة عند السقف والأبواب الخشبية، إذ كانت أكثر جمالاً وتختلف بألوانها عن نقوش بيت عمي. لكن بعد أيام ما عادت تسليني. السكون يخيم على هذا البيت، لا ضحك ولا صخب كما في بيت عمتي. الجمود يعتلي وجه ريحان وابنتها. وما رأيتهما قط تضحكان. حتى الحب والعلوك ما كانت متوفرة في البيت. لما سألتها عنها مرّة، أجابت ريحان: «ما عندنا أولاد صغار» أردت أن أجيبها بأنه حتى عمتي وأمي تحبان الحب والعلوك. ووجدتني كلما زرت أهلي أو زارتني أمي أو عمتي أحصل على الحب والعلوك، أخبئها في قعر الخزانة، في علب مجوهراتي، بين خزامة الأنف والخواتم. كما أخبىء صورتين. واحدة لي في فستان العيد، وأخرى مع أمي نمسك بسعف النخل. يوماً بعد آخر، تأكدت أن ريحان لا تحبني، وأنها لا تحب أمي ولا عمتي، فهي صرخت بي لأني تململت وأنا أقف أمام الخياطة وهي تقيس عليّ الفساتين، قائلة: «إجمدي وإلا ما تلبسي فساتين». أجبتها بعناد: «عندي... أمي وعمتي.. يجيبوا لي..» ردّت ريحان بتهكم: «قصدك الرقع؟..».

أخذت أبكي وأنا أدافع عن عمتي وأمي، وفكرت أني سأخبرهما حالما أراهما. وعرفت أني لا أحب ريحان. وأني ضجرة أريد أن ألعب وأركض وأتعلم عن السمك والحيوانات في الكتب. وأني أتوق إلى أن أكون بين أمي وعمتي لا يوماً واحداً في الأسبوع موعد زيارتي لهما، حتى أشارك في هرج ومرج البيت، نسمع الأغاني كل لحظة. وكانت العودة إلى بيت ريحان دائماً صعبة. قبل موعد قدوم الخادمة خيزران كنت أتمنى قائلة: «يا إلهي، يا ربي ما شوف خيزران». لكن خيزران دائماً تطل طويلة، ناحلة، أهرع إليها، أدعوها لشرب الشاي، لأكل الحلاوة، حتى أؤخرها أطول مدة، لكن خيزران تظل كعود الخيزران جافة.

فكرت في الهرب من البيت الجديد الذي أرضه لا تتقبل قفزي، وحيطانه لا تتقبل ضحكاتي. لما شعرت بالدماء على فخذي ذات صباح. وعرفت أني بلغت. تذكرت قولي لما أردت أن يشفق علي الجميع ويبدلن رأيهن عن تزويجي: «تزوجوني وأنا ما لحقت النسوان بعد؟» وأجابتني وقتهاعمتي: «إن شاء الله ما تبلغي قبل ما يدخل عليك! زيادة على الزواج من بنت الطاويّ، لسّه أنت بنت صغيرة، تكبري عنده ويربيك». طلبت من خيزران قماشاً، رفضت البوح عن السبب. ثم أخذت أبكي أود الذهاب إلى بيتي ساعة واحدة. لكن ريحان رفضت مصرّة أن لموعد زياراتي ثلاثة أيام.

يوماً بعد آخر اكتشفت خيزران أن غطرات رأس إبراهيم في نقصان مستمر. وأن شراشف الأسرة شطرت جوانبها. ثم لتكتشف ريحان الشراشف والغطر حتى وملابسي الداخلية عليها بقع الدم ملفوفة في فستان معقود كصرة ومعلق خلف باب الحمام.

كنت كلما استيقظت وسمعت الأذان أفكر أن أمي وعمتي تسمعان الأذان نفسه. ومع ذلك فأنا لست معهما. بل ما يفصلني عنهما، شارعان وبعض البيوت. أجلس حزينة، لا أفهم لماذا هما لا تحباننني. ولماذا أبعدتاني عن البيت فأنا ما كنت نهمة وما كنت أوسخ ملابسي. ولماذا يجب أن أتخذ ريحان أماً وعمة أخرى، وأن أستمع إليها وأجلس مع أقاربها وجاراتها بدلاً من الجلوس بين أهلي.

كنت أبكي كل يوم زيارتي، وأرفض العودة إلى بيت ريحان مع خيزران. وكنت كلما زارتني أمي وعمتي ومعهما عواطف أفرح. تعود الشجاعة إليّ. يشتد وقع خطواتي في البيت. حتى إنه يتبدل صوتي، كان يرن. أنتقل في البيت براحة وبأمان، كأني أعرف أن ريحان لن تنتقدني أو تؤنبني أمام أهلي. وكنت أدخل وعواطف غرفتي. تحيط عواطف أصابعها بخواتمي الثمانية الذهبية. والخاتم الفضي حول الإبهام ثم ترتدي الفساتين

المذهبة وتقول بحسد: «يا حظك!». ثم تسأل عن إبراهيم وماذا نفعل ونحن في السرير. وكنت أبعد شعري عن جبهتي ولا أجيبها شيئاً.

لما سمعت أمي أني حامل، زغردت وقبلت وجنتي، ومدت يدها تحس بطني. أغمضت عينيها، رغم دخول ريحان التي وقفت ريثما تفتح أمي تاج العروس عينيها وتقول: «إن شاء الله رحمك يحمل وليدك. تسعة أشهر ولا تزيدي يوم، وإن شاء الله وليدك يطلع فيه شعر حواجب ورفراف شعر في العيون، وشعر بالرأس وعالبطن وبين الرجول». تمنيت لو أمي تسكت. لا أريد ريحان أو ابنتها حتى خيزران أن تسمع هذا الكلام. ولم أكن أعرف أن كل البلد تعرف تفاصيل ولادتي وقصة حمل أمي بي أربع سنوات. ولدهشتي، علّقت ريحان وهي تسوي من برقعها: «كلام بكلام يا تاج خرافات، الله عزّ وجل ما يغلط، وهو على كل شيء قدير».

احتارت أمي للحظة، وما عرفت بما تجيب ريحان التي تتهمها بالكذب. فهي تزورنا وحيدة ولأول مرة بلا عمتي نسب المتوعكة. أرادت أن تجيبها لكنها خافت أن تُغضب ريحان وتقتص مني لذلك بدّلت أمي الموضوع قائلة: «يا تمر عيوني ويا تمر خلقي، عساك تعبانة وتبغي تنامي؟»، ردّدت بلهفة: «لا يا أمي». ثم سكتت لأردف بجرأة: «لكنني أبغي أروح معك وأزور عمتي».

لما ساد الصمت. أعقبت أمي: «وتتركي الليلة زوجك إبراهيم، ما يجوز يا بنتي. بعد بكرة تزورينا وعمتك ما تعود تعبانة».

أخذت أبكي، ووجدت نفسي أرتعش، أود الارتماء في حضن أمي أعانقها وأسألها أن تحكي لي قصة السميسكة. كنت أشعر أني لست متزوجة، ولست حاملاً، وإذا كان إبراهيم ينام فوقي ويهتز وينزل سائلاً دبقاً، وبطني منفوخة. لما ازداد بكائي وأنا أتخيل نفسي وحيدة مع ريحان بلا أمي، نهرتني أمي تاج العروس قائلة: «لا يا تمر، ما يعجبني أفعالك، أنت ببيت أهلك وتبكي؟» رغم أنها قالت لي بعد مدة إنها كانت تفكر بعكس ما تقوله: «قهوتهم ماء ساخنة كذلك الشاي لا طعم له. التمر ما يحلي اللسان ولا الأسنان».

تمنت لو أنها تراني كالشيخات في فستان يلمع ككوكب، ورائحة شعري تفوح بالياسمين، ونقوش الحنة على يدي والجاريات بالعشرات يقفن حاملات صواني الشاي والقهوة والتمر. ثم وجدت نفسها تسمع صياحي:

«أنا أبغي أروح البيت، ما أبغي هذا البيت».

كأني كنت أعود إلى الحياة في يوم زيارتي لأهلي فقط، إذ كانت عمتي تحرص على أخذي ونساء البيت كلهن في نزهة بعد إقناعها لرشيد. نصعد فرحات في السيارة التي تأخذنا أينما نتمنى. إلى الصحراء، وإلى الشارع حيث السوق الوحيد، وإلى الهضبة التي تسمى الجبل، وعند البحر. تتوقف السيارة. لنطل عبر نوافذها، نشير إلى الطيور ونقول: «سبحان الله». بينما أمي تمد يديها تخبىء عيني، وتقول آمرة: «لا تشوفي يا بنتي، ولا تستحلي، ولا تشهقي ولا تقولي الطيور حلوة حتى وليدك لا يستحلي إللا الروح اللي نفخ فيها ربه». والعودة إلى بيت عمتي، كانت هي أيضاً نزهة السيارة. دق وغناء ورقص طوال بعد الظهر والليل. «أنت حاملة لا ترقصي» يقلن لي بفخر، الشعر طويل يلوّحن به. أمي ترقص. زوجة أخي ترقص رقصاً يختلف إلا بتلويح الشعر. الكل يغني لي ويبتسم. وأنا أضع يدي على بطني. أعد أيام الأسبوع، موعد الزيارة القادمة.

لما غادرت أمي بيت ريحان، تجاهلت ريحان عتابي. ربما لأن أمي استحلفتها بأني لا أزال صغيرة وجاهلة. لكنها قالت: «والله أنا ما عارفه أمك المسكينة تاج. تأخذ وتعطي بالكلام، هي طبيعية». ولم أعلق، إنما شعرت بالغيظ. لا أستطيع الدفاع عن أمي، الكل يعرف قصة تاج العروس، ما تركت أمي واحدة: صبية كانت طفلة أم عجوز، إلا وأخبرتها عن حياتها.

عندما شعرت بآلام المخاض هربت إلى بيت عمتي، ما أردت أن أتألم وأشد أمام ريحان، شعرت أنها لا تستأهل، حتى أن ترى هذه الخصوصية.

جيء لي بالقابلة خاتون، التي سحبت وهي تصرخ وتشد، وكأنها هي التي تلد بعد أن منعتني من الصراخ وقالت وهي تسحبه: «ولد، ولد،

سبحان الخالق، مكحل، مقمّر، حمامته كبيرة ما تجيب إلا الأولاد، مدكوك الصدر، عليه نسل ونسل، طبعاً أمه من الشيوخ وأبوه من التجار». وكانت تكذّب، ما كنا من الشيوخ! ثم التفتت إلى نسب وتاج العروس صارخة: «غمضوا عينيها لا يجوز تشوفوا الخلاص، روحوا احفروا عميق، عميق، وطموا الخلاص عميق، عميق لأن الكلاب دايماً جايعة...».

هربت مرة أخرى من بيت ريحان، وابني محمد بين ذراعي. كان ظهر ذلك اليوم اعتيادياً كبقية الأيام، وكانت عواطف كعادتها تزورني خفية ظهر كل يوم، حين يخلد كل من في البيت إلى النوم. بينما المراوح ومكيفات الهواء تشتغل. ضيحكنا كثيراً. ومضغنا العلوك وأكلنا الحب، وأحطنا الخواتم حول أصابعنا وقلدنا ريحان وعبوس وجهها وخيزران ومشيتها وشخرت عواطف تقلد الشخير المتصاعد من غرفة ريحان وغرفة الجلوس، حيث تمدد الأب وإبراهيم بعد الأكل مباشرة. أرادت عواطف أن تخربش على دفاتر إبراهيم. لكني منعتها.

دخلنا المطبخ كقطتين، رائحة البصل والتوم والأكل تعمه، أخذنا نفتح الخزائن ننقب عن لا شيء معين. أخذت عواطف عيدان بخور وخبأتها في جيبتها، بينما تناولت أنا علبة فيها سكر نبات. وما توقفنا عن فتح الخزائن إلا لما سمعنا صوت نحنحة.

كان محمد لا يزال في فراشه. حملته وهو لا يزال نائماً وقلت لعواطف: «وليدي وما يخلّوني أمسكه، أبغي أروح وآخذه، البارحة غلت له ريحان رصاصة عشان العين الحاسدة وفقعت الرصاصة ولامست جبينه».

غمزتني عواطف قائلة: «يللا نهرب».

أردت أن أبعد الفكرة، كنت أعرف أن هذه المرة لن أعود. حتى أهل إبراهيم لن يعيدوني. إذ فضيحة هربي لأضع في بيت عمتي ما زالت ترفرف بين حديث وآخر. لكني وجدت نفسي أتناول من على الخزانة شنطة صغيرة. وأضع فيها حفاضات محمد وعلب الحليب وأهمس لعواطف: «أنت تمسكينها وأنا أحمل محمد».

وما ترددت عواطف بل هزّت رأسها تخفي ضحكة. وسرنا على رؤوس أصابعنا بعد أن كتمنا أنفاسنا. وما تكلمنا إلا حين أصبحنا على بعد أمتار من بيتنا. أول جملة قالتها عمتي: «يا تمر ويا عواطف، لونكم لون الكركم».

- ٦ -

تتوافد النساء عادة إلى محلي بعد الظهر وعند المغرب مع أولادهن وأقاربهن. يحملن قطع القماش وأقاصيص مجلات موض الملابس وتسريحات الشعر. عدا هذا الشهر رمضان، إذ يفتح المحل من الساعة التاسعة مساء، ويقفل طوال بعد الظهر، أسوة في المحلات التجارية. بقيت في محلي منذ الصباح، حولي السشوارات هادئة. المناشف فوق بعضها نظيفة. صور لتسريحات على الحائط. منظر طبيعي. في وسطه ساعة لا تعمل. موسيقى فليبينية، ورائحة طعام تنفذ إلى رئتي. أشعر بالجوع. الخيّاطة والكوافيرة في المطبخ تطبخان. تغنيان مع الشريط المسجل وتكتبان الرسائل. أفكر بقلق، كيف سأعود إلى بيت أخي في الساعات الأولى من الصباح. المحل لن يقفل قبل الساعة الخامسة صباحاً. والليلة ستأتي جميلة وبناتها الست، يصففن شعورهن قبل سفرهن في الصباح. لا أستطيع النوم في المحل، أوامر أخي. «تنامي مع فليبينيات؟ وحدكن؟». لربما سألت جميلة أن تصحبني إلى البيت، حتى تبرد أعصابه.

نسيت ما يقلقني والنساء يكبسن على الجرس. يخبطن على الباب، يدخلن فرحات. يجلسن، يخترن الموض، يقفن أمام المرآة، يقسن الفساتين في الغرفة الأخرى، يتركن رؤوسهن تحت دوش المغسلة، العباءات مطروحة على الكراسي. والزبونة التي تنتظر تترك العباءة تلف كتفيها. جلست

خلف الطاولة سعيدة بالعشرات حولي، بالرؤوس تحت السشوارات، بالنقود في الصندوق والتي هي أكثر مما كنت أتوقع لهذه الليلة.

نهضت من خلف الطاولة، أسير في المحل مزهوة. أشعر بالراحة في كل خطوة أخطوها الآن بين النساء اللواتي جلسن ينتظرن أدوارهن كأنهن في عيادات رسمية. افتتاحي للمحل كان ضرورياً، إذ أصبحت معروفة بين العائلات والمناطق الأخرى. كنت أفرح بالعجائز اللواتي يصطحبن بناتهن فقط للفرجة، إذ قدومهن وجلوسهن على كراسي محلي معناه أنهن يثقن بي ويباركن خطوتي.

شيئاً فشيئاً أجد نفسي غير خائفة من الصباح ولا من رشيد. يدق الجرس دقات متتالية. أسأل كالعادة قبل أن أفتحه: «مين» يأتيني صوت أمي. ألتفت فرحة إلى الجالسات وأقول بلهفة: «أمي وعمتي» أفكّر: لازم عمتي أقنعت رشيد.

أدرت المفتاح في الباب وقبل أن أفتحه، التفت إلى النساء قائلة: «تستروا، ابن عمتي يحمل أمه».

هرعت النساء إلى الغرف الداخلية، بينما هبطت النساء اللواتي تحت السشوار بعباءاتهن، حتى غطت رؤوسهن والسشوارات. لما رأيت ابني محمد يعاون ابن عمتي، فرحت وصحت: «إلهي يحرسك من العين وتسلم لي يا محمد». ثم ضحكت على نفسي لجملتي هذه. وما رضيت عمتي أن يرفعها ابنها ومحمد من الكرسي الجرارة إلى الأرض التي فرشتها أنا بلمحة بصر. بل قالت: «أبغي أشوف محل تمر وانتو مع السلامة».

لما خرج الرجلان، أغلقت الباب. انحنيت بلهفة لأقبل عمتي التي تمسك وجهي بين يديها وتقول: «قلت له، نروح نبارك بمحل تمر التمور». أفلتُّ من بين يدي عمتي، واقتربت من أمي أقبلها ثم قلت لها مازحة: «يا تاج العروس، وتاج رأسي، أهلاً وسهلاً، ويش رأيك نكرج عمتي وتباركولي بالمحل؟».

وما فارقت ذراع أمي حتى وهي تكرج عمتي حتى غرفة الخياطة.

لمستا كل الفساتين المعلقة وبكرات الخياطة والمقص والأقاصيص. صاحت أمي: الله أكبر، جن بلا راس، وأشارت إلى المانيكان التي صنعتها الخياطة من القماش وحشتها بالأوراق والرقع إذ كانت المانيكان الخشبية لا تباع. وأخذت تضربها بيدها حتى أوقعتها. ثم عرفتهما بالفليبينيتين، ابتسمت لها أمي وقالت: «ما حب شوفها بمنامي» ثم عادت تقول: «مسكينة، فقيرة وبعيدة عن أهلها». كرجتها إلى الغرفة الأخرى حيث تنام الفليبينيتان، تأملتا كل شيء فيها، حتى تقويم الحائط، لمستا رسائلهما، أصابع الحمرة الكثيرة، المرآة الصغيرة المكبّرة مروحة من قش. حتى ملابسهما المطوية على سريرهما. لولا أن الكوافيرة دخلت الغرفة تتصنع البحث عن شيء ما، لما رضيت تاج العروس ونسب أن تغادرا الغرفة قبل أن تعرفا سر الشمعة البرتقالية المضاءة في وسط الطاولة. بينما أردت أن أعرف بالتفصيل بسماح رشيد لهما بزيارة المحل. سألتهما: «وبتول؟» أردفت أمي: «جاية، مستنية رشيد عشان يودي أحلام عند صديقتها» لم يعلق رشيد لما قالت له بتول: «آخذ أحلام معي الصالون، لكن أحلام خائفة حد يشوفها من الحريم في المحل ويخطبها لابنها أو قريبها. أنا عارفة، البنات رايحين، يحطوا الغطاء تقيل تقل جلد الجمل، والله ما يفكروا بالحرام والحلال، لكن ما يحبوا يتجوزوا الحين».

يرن التلفون؛ أركض أرفع السماعة وأرد بابتسامة: «أهلاً وسهلاً. أيوه حنّة ونقوش، مساج لا، نقدر. طبعاً عندي الفليبينية وهي تعرف لكن ممنوع. في ماسك للوجه في. من البيض واللبن أيوه الفليبينية تعرف كل شيء، متخصصة». أعيد سماعة التلفون لأقول مزهوة: «بنت آل شوفان، تبغي أمها مساج».

لما قدمت الفليبينية فناجين القهوة، رفضت نسب تناولها وقالت: «ما أبغي، حرّانة». لما طلبت وبالإنكليزية أن تأتي لها بعلبة عصير، فرحت أمي وقالت: «محل وإنكليزي؟ الله أكبر يا تمر التمور!». لكن عمتي رفضت أن تدلق لها الفليبينية العصير في الكوب ثم رفضت أن تشرب الشاي. قربتني منها وأسرت في أذني كلاماً أضحكني وقلت مداعبة: «يا عمتي». وما أن ذهبت

بعليبينية إلى غرفة الخياطة، حتى قالت عمتي: «يا تمر، اسمعي، هي تخيط ما في نجاسة، لكن والثانية تغسل الشعر، لازم تقول الحرمة «بسم الله الرحمن الرحيم». لكن ما يهم هذه نجاسة بسيطة. لكن تأكلي وتشربي من تحت ايديها، نجاسة عظيمة. حرام، نحنا برمضان» رددت بضيق: «معلهش يا عمتي».

لكن عمتي قاطعتني: «أنا أعرف، اسألي أي رجل دين ويقول كلامي مضبوط كلمة كلمة، لما جيت من الصحراء ما رضيت أشرب قهوة ولا شاهي، ولا آكل خبز الحضر، ولا لحمة، ما كان زوجي ولا أهله يعرفوا السبب. شفقوا علي وظنوني خجلانة. وقالت أخته زينب: حرمتك ضعفانة وما تأكل، ردّ زوجي ضعفانة وكل ما أطلع الفرش ترميني، لما استعد واتكمش بالفرش وفيها، ألاقي روحي على الأرض».

تضحك النسوة عالياً، بينما تسوي عمتي ضفيرتها، وتتنهد وهي تضع يدها على رجلها: «وين القوة الحين». تذكرها أمي بقصة أخرى: «ولما جابولك قميص النوم..» وكأنها تحمس عمتي لتصبح الجلسة مسلية. تضحك نسب وتزيد: «ولما جابولي قميص النوم، خلّيتو مثل ما هو»، زينب تقول لي: «إلبسي هذا»، سألتها: «ويش؟ قالت: البسيه وأنت تشوفي». لبسته، وقبل الليل سألتني عن قميص النوم وقلتلها، «لبسته». ما صدقتني، لما صارت تفتش عليه تحت الفرش، رفعت فستاني وقلت: شوفي والله أنا لابسة القميص. وصارت تضحك، وقالت لي شيلي فستانك والبسي قميص النوم، لما قلت: «ويش»، تعبت مني وقالت: «غلبتيني».

تسأل إحدى الصبايا عمتي: «ويش أكلت وشربت بعدها؟».

ترد عمتي بزهو وكبرياء لأنها أصبحت محط الجلسة، وهي تخبط بكفها فخذها: «شفت هنود وأحباش، وخفت اللحم ما يندبح على الشريعة. والطحين يخبزه كافر صرت أزيد من عالطحين وحطه بالمقلاة. القهوة ما أمنت إلا وأنا حمصها. وعرفت أنو يكذبوا علي لما يقولولي: «صفوان يذبح الخاروف»، أكلت أول يوم، واليوم الثاني ما أكلت، قالت ما أذوق إلا لما

أشوف الخاروف مذبوح بعيني». تسمع أحاديثهما عجوز كانت ترافق ابنتها وبنات ابنتها. تقول بعد أن خلعت وجبة أسنانها وفركتها بفستانها: «وأنا قلت لابني حتى يطلب هالقطة الآدمية»، وأشارت إلى الفليبينية التي انحنت تتناول الصينية من أمامهن. «قال لي ويش تسوي بها وأنت ما تشربي من تحت إيديها». قلت: «أفلتها في الوادي تزرع وتنجل وتحصد».

علقت عمتي بضجر: «ويش قال؟».

وما فهمت العجوز، بل ما سمعت السؤال، وعادت تنقل بعينها تدرس كل ما يجري في المحل.

تابعت عمتي، وهي تلعب بمرجان عقدها الأحمر والتي بين كل حبة من حبوبه، نقود فضيَّة: «من الصحراء جينا. أنا وأبوك»، والتفتت إليّ وكنت مشغولة أحاول الجمع والطرح على أصابعي. «ما عرفنا حلاوة إلا التمر. لما شفنا العنب، والبرتقال ضحكنا». ثم أخذت تضحك وتضرب كفاً على كف. كلما حاولت أن توقف نفسها، ازداد ضحكها. دب الفضول في من حولها واستحلفنها أن تخبرهن بما يضحكها. قالت: «بعدين عرفت أن الفتحات في أرض الحمامات والمطابخ ما هي للقرفصة وقضاء الحاجة. لما زرت الشيخة ودخلوني الحمام فيه مقعد أبيض، فتحت بابه وشفت بقعره ماء، قلت ها يخبوا المي من الذبان، وغسلت وجهي، والحمد لله أني ما شربت منه وفتشت عن بيت الخلاء. لما طفشت ورحت أسأل من جديد، عادوا رجعوني الحمام لكن في المرة الثانية دخلت الحبشية معي وهي فتحت باب المقعد ودلت بيدها». ضحكت النساء للحظة، ثم التهت أعينهن بتسريحة بنت جميلة. لكن عمتي ما أرادت السكوت. وجدت نفسها توجه الحديث لي قائلة: «وجدّتك ما رضيت مفارقة الصحراء إلا اليوم اللي أنا تزوجت. ويوم اللي تزوج أبوك من نجيّة، مسكينة أمي، الحر ينشف دمع الغزال وما تفارق الصحراء. وكنت أنا وبوك نفتش عليها ولما نشوف جفاف الماء نروح من واحة لواحة، وأمي ما هي دارية، تبعتلنا مراسيل، خزامي الصحارى وحليب جمال. ما حبت هي أهل الحضر، كانت لما تتخانق معي تقول لي يا نايمة على السرير، يا مولعة

الكهرباء، واللي صوتكم يروح ويودي عالتلفون، واللي ما تعرفوا الضب من الغزال، والجراد يتزحلق على السمن وما تعرفوا تعلقوه. وسألتها: «يا أمي، مين جوزني بالحضر؟ ومين قال أبغي نسب تعيش ببيت في طوب، وتلفزيون، وتشتري حبوب وعلوك من الدكاكين». حتى لما جاء بوي، جدّك الحضر، وكان يشكو من أمعائه أخذه أبوك لطبيب السلطان، وكان صار أخوي والسلطان زي الأخوة، ما رضي أبوي يفارق الجمل. وافق أبوك وربط الجمل عند الباب، وصار بوي يهرب من البيت كل ما زوجة أخوي نجيه تفتح الراديو. وما حب يقعد عالطاولة يأكل. كان يحط في صحنه ويروح يتونس هو والجمل.

مسكين، ما رضي نجيّه تخش الغرفة اللي ينام فيها. أبوك يعطيه الفوطة والشرشف ويغسل له غسيله ويطعمه؟ وكل ما نجية تحب تزور الأقارب كان بوك يكذب عليه ويقول له: «نجية مريضة تبغي تروح الطبيبة لان الحريم كان ممنوع عليهن ترك البيت».

إحدى النساء، تفتح كيساً فيه حلق وأساور وأمشاط أتت بها من بيروت. أرحّب بعرضها في محلي. تهجم النساء وأولادهن عليها، يتفرق الحلق، بعضها على الأرض، البعض في أيدي الأطفال، على الشعر وعلى الآذان. بلمحة بصر. اشترت النساء كل ما في الكيس. تضايقت عمتي، أرادت أن تقول الكثير ووجدت نفسها بلا آذان صاغية. ما أن قلت لها: وبعدين يا عمتي.. حتى بلعت ريقها، وضحكت ضحكة عالية، لتجذب الانتباه من جديد وتابعت: «كنا نشتاق إلى الصحراء ورائحة الرمل والماعز وحبيبات البن وشي اللحم وإضرام النار. لكن رضيت بالحياة السهلة بين الحضر، تعلمت بسرعة عاداتهم، أم زوجي فرحت بي لأن قدرتي على الشغل كانت عظيمة. رغم أني فكرت بادىء الأمر، أن أهل الحضر غريبو الأطوار. يحبون الأشياء التي لا معنى لها ويضعونها في بيوتهم. كان يصعب عليّ أن آكل ثلاث مرات في اليوم، وشوف الكمية من اللحم. رفضت أن أمسك بالسمك، دون أن أغطي عين السمكة بطرف منديلي. قلت لا حول ولا قوة إلا

بالله ، وأم زوجي تمسك بالإبرة والخيط وتخيط مؤخرة الدجاجة بعد أن حشتها فتات الخبز والرز. وتعجبت كيف تطبخ البندورة وهي نادرة، وما تصورت نفسي يوماً أسير بين بيوت الحضر، حتّى لما زوجني والدي من الحضري. فكرت أن الحضري سيعيش معنا في الخيم. لكن عدت معه، وكان من الممكن أن أعود مع صديقه الآخر. إذ لما قال لهما والدي عندي صبية في سن الزواج. صرخ هائل قبل صديقه: «أنا أتزوجها».

النساء ينغلن كقفير نحل. أمي وعمتي، تضحكان سراً على التسريحات. تشبهانها بقرون الماعز والموز وعرف الديك. خاصة عندما تغطي المرأة رأسها ويرتفع الغطاء عالياً. تغامزتا على الفليبينيتين، حركتا حاجبيهما كلما مرت الفليبينية أمامهما. قالت عمتي: «زي ملهلبة، لأن ما ذاقت طعم زوجها من ثلاث شهور وهي عندها أولاد، كل يوم تتخانق، عايزة تروح السوق وتمر عارفة قصدها، تبغي تسولف مع رجال من دينها وشكلها. قالت لها تمر: ما أنت خارجة إلا معي. على كل، الجيران وأصحاب الدكاكين مستنين إشارة، ما يبغو حرمة تفتح محل، يراقبوا الصغيرة والكبيرة، والفليبينية تعرف».

أغلقت الدفتر ووضعته في الدرج. أقفلت بالمفتاح، حركت كرسياً، أصبحت مواجهة لأمي وعمتي: «احزروا مين جات الصبح؟» تساءلت النسوة الرجال اللي يقفلوا محلات الحريم؟، أجبتهن ضاحكة: «لا. الرجال أجوا أول البارحة سألوا: في رجال؟، قلت: ما تقروا المكتوب على الباب. عادوا سألوني: متأكدة؟ قلت: تجبوا افتح الباب، دقيقة لما نستر. وما دخلوا». لما ما حزرت أمي وعمتي من أتاني وبان عدم الصبر على وجهيهما قلت بحماس: «ريحان أم إبراهيم، وبنات بنتها، وخوات ابني محمد، رايحين فرح، لو تشوفو ثيابها حرير، ومصاغها طلياني، شنتة يدها جلد أصلي. لكن لسه بخيلة هي، سألت عن كلفة الحنّة وقالت: «نار» تبغي تستعمل الحنة من اللي جايبتها وأنا ما رضيت. لما الفليبينية مكيجت بنت بنتها، ويش اسمها يا تمر، تذكرت، خلود، والله فضلت ساعة وريحان تقول: «نار». والبنت تسكتها. على كل أيام ما حب أتذكرها».

ساد الصمت، إلا صوت تاج العروس الجالسة قرب المـرأة العجوز. يقول: «وموزة قالت أنت تحتكي مع راجل تاني عنتر بينكم باب، لا يشوفك ولا تشوفيه. وما حدا يعرف، وتصيري سلطانة وابنك السلطان..».

نهضت أقترب من أمي. والانزعاج بدا على وجهي. لكن وجه العجوز الذي بدا حائراً طمأنني. لا يبدو أنها فهمت كلمـة واحـدة ممـا تقولـه أمـي ووجدتني أسألها: «تبغي تفصّلي فستان يا تاج؟».

- ٧ -

كنت أتضايق كلما كنت وأمي في مجلس نساء. لم أعد أطيق الجلوس كالراعي الذي لا تغمض له عين خوفاً من أن يشرد قطيعه. وإذ لم تقو تاج العروس إلا أن تخبر قصة حياتها، هددتها بعدم مرافقتي لها عبر عتبة الباب.

وحين كانت تجلس وحيدة تنتظر عودتي وعمتي، كانت تفكر بحرقة كيف أني لم أعد زوجة الشيخ، وهي تتذكر كيف جاءت عمتي نسب بالطرازة الإيرانية لتخيط لي قميص نوم الدخلة وكيف أصرت أمي علي أن تقص القماش على شكل قلب كبير عند السرَّة، وقلبين صغيرين عند كل نهد، ثم تصر علي تحنئة سرّتي ونهديّ بنقوش الحنة الصغيرة، حتى إذا ما ارتديت قميص دخلتي، ظهرت النقوش عبر فتحات القلوب.

وكانت تاج العروس متأكدة أن قميص الدخلة هذا هو الذي سيأسر قلب الشيخ إلى الأبد. إذ البنت السودانية التي دخل عليها السلطان، وبقيت زوجته طويلاً. لمّا كان يطلبها كل ليلة، أخبرتهن مرة عن السر. ارتدت أمامهن قميص الدخلة الأبيض. وأرتهن القلوب المطرزة والمفتوحة، على نقوش الحنة، وقالت لهن ليلتها إن السلطان كان يفتح صندوق مجوهراته يمضي يلاعبها ساعات، وهو يحاول ادخال كل حلية أو خاتم في كل فتحة قلب حتى تكون من نصيبها.

تنهدت وقتها تاج العروس وهي تسمع هذه القصة وفكرت أن الذي كان

في وسط الغرفة لما دفشتها موزه ثم نام فوقها وأحدث لها أوجاعاً وهي مغمضة العينين ربما ما كان السلطان. لأنه ما لاعبها هكذا، رغم أن غرفته كانت واسعة، وسريره مذهباً، والسجادة وثيرة، ومكيف الهواء يطن في الغرفة. أرادت أن تسمع المزيد، وهي تشعر بالحسد من السودانية، رغم تعليقات الأخريات ونعتهن للسودانية بالكذب.

كلما رأت تاج نفسها في مجلس نساء، فكرت أنها لربما كانت سلطانة عليهن، تجد نفسها تقاطعهن، تقص عليهن حكايتها، رغم أنها وعدت نفسها بألا تُغضبني بعد الآن، وألا تفتح فمها إلا لتأكل.

كانت تغني بصوت رقيق المواويل التركية، والكحل الذي يحيط بالعينين الخضراوين يذوب في الدموع، فتبدو العينان معكرتين تارة وصافيتين تارة أخرى بينما تصبح الوجنتان بلون الورد. والعنق الطويل يزداد طولاً يلحق بالوجه الذي يواجه السقف دائماً، أو الأفق، ولا يلتقي مرة بالعيون الشاخصة إليه. كأنها تلحق ذكرياتها، وذكرياتها حاضرة، ما فارقتها لحظة، منذ أن سارت إلى القطار، حائرة، وسمعت والدها ينحني يقبل يد السلطان، ويقول بالتركية: «تاج العروس حلالك كما هي زوجتك، وأختك وهي مطلقتك، هي أصغر بناتي وعنقود عيني». شد السلطان على يده، ومشى وهو يلم جوانب عباءته التي يطيرها الهواء، كان فضولها لركوب القطار، ورؤية البلاد الأخرى دخله فرح بسيط وخوف، لأنها ما كانت تفهم اللغة التي يتحدث بها هؤلاء الرجال. قالت لها أمها وهي تفلي شعرها الأحمر الطويل من الصيبان وتفركه بالطين الأسود، وتدلق عليه ماء الورد: «أنت سلطانة». وهي تفرك جسمها بالليفة وبصابون زيت الزيتون، ثم تدلق عليه الماء وتجففها وهي تغني «تاج العروس، صارت تاج الملوك».

كان بيتهم أكبر بيت في القرية، فوالدها كان المختار. والسلطان جاء من الصحراء مع حاشيته للاستشفاء بالمياه المعدنية. ونزل ضيفاً عليه. وبرمشة عين انتقلت تاج العروس واخوتها السبعة، وأمها إلى بيت عمّها. فتحول بيت عمها كله إلى مطبخ. حشوا البط، لفوا ورق العنب، ونتفوا

ريش العصافير وشووها، شكوا الكباب في الأسياخ. وكان والدها وأخواتها وعمها وأولاد عمها ينقلون الصواني. في الليلة الأخيرة، انحنى والدها حتى لامس الأرض والسلطان يمنحه ساعة ذهبية عليها صورته وخاتما ذهبيا فيه حبة الماس. ووجد نفسه يقول له إنه مستعد ليهبه روحه، وأغلى شيء عنده «تاج العروس».

ترجم أحدهم للسلطان اسمها. أعجب السلطان به وقال: «رضيت».

قبل أن تصعد تاج القطار، التفتت خلفها ورأت كل أبناء قريتها يلوحون بمناديل ملونة. والنساء يزغردن، والأطفال يركضون. لما تحرك القطار، وهبط قلب تاج العروس، مدت عنقها الطويل ورأت من النافذة كل كلاب القرية تلحق بالقطار وهي تنبح، وجدت نفسها تحنّ وتضحك، والقطار يبتعد والكلاب لا تزال تجري..

لما توقف القطار بعد ساعات طويلة، مدت من جديد تاج العروس عنقها. وما رأت سوى الرمال. ثم نزل الرجال وبقيت هي. فكرت إذا هم نسوها. حين أجلسوها في المقعد الخلفي في سيارة وتوقفت بعد وقت، لم تنهض، بل انتظرت فترة من الزمن. وهي تتساءل ما إذا كانوا قد نسوها، يأتي أحدهم ويدفع إليها بغطاء أسود، وعباءة سوداء، ويشير إليها بأن تلتف بها وكانت ترتدي فستانا تحته سروال، وتخبيء شعرها بمنديل مطرز تتدلى منه حبيبات فضية.

وما رأت سوى الرمال، وبيوت قليلة، وخيم، حوش، لا غرسة واحدة فيه، رمال أيضا وأحجار صغيرة، ثم بناء كبير لا لون له، سمعت ضجيج أولاد وأصوات نساء، ما رأت أحداً. لم تتحرك إلا حين فتح السائق الباب وأشار إليها. فدخلت خلفه إلى البناء الكبير، ونادى، «موزة» ثلاث مرات واختفى. جاءت امرأة لا يظهر منها سوى وجهها. كانت طويلة، عريضة. قبّلت تاج على الخدين ثم أخذتها من يدها، مرتا بغرفة واسعة، أسندت إلى حيطانها كنبات ضخمة ملونة. وغرف كثيرة من الجهتين. فكرت تاج بأن الحر شديد. فتحت المرأة باباً في آخر الرواق. كانت الغرفة سريراً نحاسياً. وقفت تاج تطرق

برجهها إلى الأرض. إلى أن أغلقت المرأة الباب واختفت، وما أوشكت تاج على الجلوس على طرف السرير حتى عادت المرأة فدخلت لتعطيها منشفة وصابونة. وتأخذها إلى حمام في الرواق معتم وغير نظيف. تشير إلى الماء في برميل وإلى الصابونة، ثم تمد يدها إلى صدرها بحركة. فهمت تاج وأخذت تغتسل وعينها على الباب المغلوق، وهي تفكر بضيق أنها ستتوه حالما تخرج. لكن المرأة كانت بانتظارها، أعادتها إلى الغرفة وأشارت المرأة لتاج حتى تفك صرة ملابسها.

فهمت تاج العروس وفكتها، قلبت المرأة ما فيها ثم ألقتها جانباً، ثم تركت الغرفة، لمست تاج العروس ملابسها والتي جمعتها لها أمها من الجارات والقريبات وهي تفكر بتصرف المرأة. عادت المرأة تمسك فستاناً طويلاً أعطته لتاج العروس وأشارت بأن تلبسه. كان الفستان ضيقاً عند الصدر، حبست تاج العروس نفسها وارتدته، ثم عادت تجلس على السرير. فتح الباب، وجاءت لها المرأة ذاتها بصينية عليها كوب شاي، شديد السكر، قبل أن تشربه، قدمت لها التمر بيد، ثم دلقت في فنجان صغير سائلاً أخضر من إبريق نحاسي. أكلت تاج العروس التمر بشهية، ولما ذاقت ما في الفنجان الصغير، أبعدته عن شفتيها.

قالت لها المرأة: «هذه قهوتنا، ولازم تحبيها، طيبة». ابتسمت لها تاج العروس دون أن تفهم. سارت المرأة وأشارت إلى تاج العروس بأن تتبعها. مرت بغرف صامتة، ثم بغرف تضج بالصراخ والقهقهات. ورأت عبر الغطاء الأسود الذي طرحته المرأة على وجهها وجه رجل، ورجلاً آخر.

وكان السير صعباً والعباءة السوداء تلفها، فجأة لسعتها سخونة. كالسخونة التي تلسعها وهي تمد يديها فوق الفحم والرماد المولع في الكانون النحاسي. وما فارقتها السخونة إلا حين عادت تدخل إلى بناء آخر في الحوش نفسه، وعرفت مصدر ضجيج الأولاد وصراخ النساء. أدخلتها المرأة، قاعة كبيرة، حول الطاولة كراسٍ كثيرة وفوقها غطاء من البلاستيك. وعليها ثلاث صوانٍ من الرز واللحم، ظنّت أنه لا بد احتفال بها، عادت بدّلت رأيها وهي تشيح بوجهها عن أعينهن الثاقبة التي أظهرت استهزاء وعداء وهن يتحدثن مع

المرأة ثم سمعت ضحكات تخللها كلمات. ولما مدّت يدها تأكل، وجدت قطع اللحم والأرز تملأ صحنها. بقيت جالسة هنيهة، قبل أن تمسح المرأة فمها بكمها تنهض وهي تومىء إلى تاج التي نهضت خلفها. لتعود السخونة تلفحها إلى أن تصل إلى البناء. أدركت تاج أنه البناء الأول حين فتحت المرأة الباب ورأت صرتها. تركتها المرأة لحظات، لتعود وبيدها قنينة تنثر منها العطر على تاج وهي تسأل: «طيب؟».

تركتها من جديد للحظات، أتت بمبخرة، تدنيها من تاج العروس، وهي تشير إليها أن تمد كفها حتى تلوح بالدخان. وإذ عجزت تاج عن فهم ما يجب أن تفعل، قربت المرأة المبخرة من صدر تاج، ثم انحنت ترفع الفستان وتقرب المبخرة، شعرت تاج بالدخان الدافىء على فخذيها. ثم رفعت المرأة بدورها فستانها ومرّت بالمبخرة على فخذيها ثم والمبخرة لا تزال في يدها سارت أمام تاج العروس. صعدت سلالم قصيرة، ثم دقت الباب. لما جاءها صوت أو نحنحة دفعت تاج العروس بهدوء.

في اليوم التالي، أتتها المرأة ذاتها، أعطتها قرآناً مرصعاً بالالماس والياقوت وأساور ذهبية وحلية كتب عليها «ما شاء الله». وقالت لها: «من السلطان». فرحت تاج بالمجوهرات التي ما رأت مثل بريقها من قبل.

ووجدت نفسها تفكر بعائلتها وبجاراتها وصديقاتها لأول مرة منذ أتت وهي تتصور أعينهن وأصابعهن تلاحق البريق، غير مصدّقة أن هذا كله لها. أنزلت المرأة تاج إلى الطابق الأرضي، ثم إلى الحوش ثم إلى بناء آخر يشبه ثكنة جيش في تركيا. وما عادت المرأة تناديها. رأت تاج نفسها كأنها وسط السوق، حركة وضجيج، نساء وبنات وأولاد، من كل الأجناس والأعمار والألوان. أخذت تقلّد الأخريات، تجلس لتأكل عندما يجلسن، تذهب إلى الحوش عندما يذهبن، ثم تدخل المجالس، تجلس كما يجلسن، حتى إنها أصبحت تشرب الخيط الأخضر المنساب من الإبريق في الفناجين الصغيرة.

في اليوم التالي. بدأت تاج العروس تعرف طريقها، في الحوش وفي المجالس وغرف النوم. لم يعد الضجيج يربكها، اعتادت وجود العديد من

الأولاد والبنات والسود والبيض، وأصواتهم العالية ولعبهم بالطابة، والأمهات والنساء السود والبيض وكلامهن وضحكاتهن. وما عادت تخجل وهي حول الطاولة. تمسك الأرز كما يمسك به الجميع، تجمعه في كفها وتقذفه إلى فمها. وهي تفسخ اللحم، تتذكر أخواتها، جميع من في بيتها يتقاسمون معاً ما تأكله هي الآن بمفردها.

في الحوش رأت النار موقدة. عليها ملعقة كبيرة، فيها الحب أخضر، حب القهوة، رأت المرأة تحمصها لدقائق ثم تدقها حتى تصبح كالبرغل ثم وقفت أمام موقد، رأت الطحين والسكر والسمن تغلي على مهل. تمنت لو كانت بدل هذه المرأة المسنة خلف الموقد. تريد أن تعرف كيف ستعيش، ماذا ستعمل، اعتادت على الشغل في تركيا منذ الفجر.

هل صدر عنها خطأ ما عندما دخلت الغرفة الواسعة، واقترب منها السلطان ونام فوقها، حتى عندما تألمت ما بكت. عند صوت المؤذن كانت تفكر بأمها وأبيها، وبأخواتها الخمس، وبشجر الجوز، وكيف كانت تأتي بجوزة، وتفرك قشرتها بشفتيها حتى تصطبغ باللون الأحمر للحظات ثم تتحول إلى لون غامق.

وتنسى أهلها عندما تسمع الصوت الجهوري يردد في أنحاء البناء الكبير: «الصلاة، يللا الصلاة». كان عليها أن تسرع كالباقيات، إلى الوضوء والصلاة مع الأخريات في قاعة كبيرة. بينما كان للرجال جامع خاص. كانت تقلد الأخريات وتبتهل. في الليل، وحين التقت عيناها بعيني المرأة إياها فلم تنادها، فكرت، لربما المتوقع منها أن تنام كالبارحة في غرفة السلطان، ثم تذكرت صرة ملابسها، ونهضت تحاول أن تتذكر الطريق المؤدية إلى الباب الخارجي. كان موصداً. ولا تعرف كيف نبذت امرأة تسألها وهي تشير إلى الباب، وتاج لا تفهم شيئاً من كلامها. لكنها عرفت أنها لا تستطيع الخروج. وعادت تدخل الرواق إلى حيث النساء. تبتسم لهن، تبحث عن موزة، المرأة إياها، خائفة ألا يكون لها مكان تنام به. ونامت تاج بملابسها

في سرير فارغ بين أربعة أسرة، يدها على حملتها حيث خبأت هدية السلطان.

في الصباح، فتحت عينيها باكراً. بقيت في السرير، تلاحظ الجدران العارية، إلا من مراوح السقف الكبيرة فالمكيفات المركزية لم تكن متوفرة في جميع الغرف. فكرت بمرآة بيتها وعند إطارها الخشبي شكت الصور، من جميع الجهات. كانت الغرف شبه فارغة إلا من الأسرة والخزائن، ووسائد على الأرض مسندة إلى الحائط. وحين انحنت لتأتي بحذائها، رأت الغبار تحت الأسرة وفي كل مكان. بل كان الغبار متراكماً في بعض الأماكن لدرجة خيّل إليها أنها ترى فئراناً رمادية اللون. كم تمنت لو تدلق الماء من أعلى السقف وتنظف كل شيء، لكنها عادت ففكرت بأنها سلطانة.

وأيقنت أن السلطانة هنا غير الملكات التي سمعت أو قرأت عنهن. السلطانة هنا، تأكل وتشرب وتصلي وتنام وترقص وتغني ولا تعمل. غير ملكة القصص التي تجلس على العرش، وعلى رأسها التاج، وفي يدها السوط، تأمر الشمس بالمغيب والقمر بالسطوع. والسلطان لا يعد مجوهراته، بل يسافر كثيراً. ولكنها احتارت في أمر الأولاد الصغار وكانوا ربما يعدون المائة.

كانت للمكان رائحة بخور وطعام، حتى الضجيج، كان له رائحة، والركض والتنقل بين الغرف والتمدد على الأسرة وعلى الأرض، كان له رائحة، كان عطر النساء يفوح. عطور غريبة، ما عرفت تاج أنها كانت من العطور الهندية والصحراوية. أما العطر الأوروبي فهو فقط لمحظية السلطان. كانت تصدر عن خشخشة الأساور الذهبية والمصاحف والأحزمة، رائحة حنة ورائحة زيت وياسمين.

ووجدت نفسها تألف الحياة المريحة والصاخبة بما فيها النوم والسهر أحياناً حتى الفجر. على أنها لم تفتح قلبها ولا لواحدة. ما كن يشبهن نساء قريتها إلا بامتلاء أجسامهن وذهب أسنانهن.

ما عادت تفكر كما في السابق بأن اللغة هي العائق، بل السبب هو ما تراه ليلاً وتسمعه من وشوشات وهمسات. تنهدات فاطمة وصرير سريرها.

جلبة الباب وبلقيس تلتصق به. كانت هذه تؤرق تاج لساعات. بعد مدة، عرفت لماذا تتنهد فاطمة، إحدى النساء كشفت عنها غطاءها في الوقت الذي أضاءت أخرى النور. كانت بلا سروال، كلما شتمتهن فاطمة ضحكن، كلما صرخت بهن، قلّدنها وإذا لم تستطع التغلب عليهن، لفت نفسها بالحرام وأغمضت عينيها.

بعدها نقلت تاج العروس إلى غرفة أخرى بعد أن رفضت الطعام لمدة يومين. والمرأة التي نقلتها هي موزة التي أتتها بصرة ملابسها. حوت الغرفة الأخرى أسرة قليلة، كانت البنات جميلات، في عمر تاج العروس أو يكبرنها قليلاً. بينما فاطمة والأخريات كن أكبر منها، إحداهن توددت إليها أكثر من مرة، بوضع يدها فوق صدرها. فكرت تاج أنها تود سرقة مجوهراتها في بادىء الأمر.

لم تمضِ الليلة الأولى بسلام كما توقعت. ولا الليالي الأخريات. كان يقلقها وقوف بلقيس طويلاً، واستنادها كل ليلة عند الباب المقفل بعدما تدور موزة تقفل الغرف جميعها بالمفتاح وتطفىء النور، وتسمع الشكاوى.

لم تجرؤ تاج العروس على سؤال بلقيس عما تفعله كل ليلة عند الباب المقفل، وتستند بيديها عليه عالياً. رغم شكوكها بأنها تحاول فتحه. إذ كانت تصدر عنها جلبة خفيفة. وعندما عرفت تاج العروس بعد حين سبب التصاق بلقيس بالباب واستنادها بيدها إليه. عرفت رغم سنواتها الأربع عشرة الكثير عن الرجل والمرأة. وعرفت سر النساء هنا، الكبيرات والصغيرات، السوداوات والفاتحات اللون. عرفت عن الأولاد الصغار، عن السلطان، وعن السلطانة وعن نفسها. عرفت أنها تنتظر والكل ينتظرن معها. حتى السلطان ينتظر إطلالة آخر الشهر، إذا لم تطل العادة الشهرية، حسدتها الباقيات. وقيل للسلطان إنه ينتظر صبياً أو بنتاً من عروسه الأناضولية، الحمراء الشعر، وهي تبقى زوجته، ولا يفسخ العقد الذي تمّ في القرية، بين والدها الشاهد، ومرافق الملك الشاهد الآخر. «هل أصبح سلطانة؟» سألت تاج العروس موزة التي اتضح أنها تعرف كل اللغات، الحبشية، الصومالية، الحلبية، الألبانية. هزت موزة رأسها وقالت: «سلطانة. تصرف لك النقود

والذهب وفساتين وغرفة ويمكن قصر. والسلطان يزورك، ويزور نسله. الكل يسمع كلمتك، وبالمجالس يبخرونك الأول، ويعطوك فخذ الخروف وفنجان القهوة الأول ولك وصيفتان». ولئن كن جميعهن يتمنين هذا، تمنته تاج العروس لنفسها وكادت عيناها تشتعلان من كثرة توهجهما، ونظرت إلى أعلى تبتهل إلى الله وعرفت لأول مرة سرّ العيون الشاخصة إلى الأعلى..

لا بد أن الصغيرات يبتهلن ليحملن. والكبيرات يبتهلن العكس. ثم أمسكت تاج العروس يد موزة كأنها تستنجد بها وسألتها: «وإذا ما حملت؟» وهي تشير إلى بطنها. قالت موزة وهي تبتسم: أنت تحملي إن شاء الله، أنت اعملي بمشورتي وتشوفي بطنك صارت لحد فمك. وحين يسمع السلطان بكاء المولود الصبي يعطيك وزنه ذهب. والبنت نصف وزنها ذهباً، وأنت تتذكرين موزة وتعطيها اللي من خاطرك. وبسرعة سألت تاج العروس، وإذا ما حملت؟

ردّت موزة «أنت تحملي إذا توكلت على موزة».

وعرفت تاج العروس أن عليها أن تستند إلى الباب بعد أن تنام الباقيات، وحين تسمع حشرجة، ترفع قميص نومها، وتنزل سروالها حتى قدميها. وتلتصق بالباب تماماً حيث هناك ثقب واسع وكبير. ورجل يقف خارج الباب مستعداً.

خبأت تاج العروس وجهها بين يديها، وما أرادت السماع أكثر بينما أسرعت موزة عند ردة فعل تاج العروس تتصنع الضحك وتقول إنها كانت تستدرجها وتكذّب عليها، اكتشفت تاج العروس أنها حتى لو حملت وجاءت بالصبي أو البنت، سيطلقها السلطان ولن تصبح سلطانة، وإلا تعدت زوجاته المائة، وإنه يطلق حتى الزوجة الصغيرة، حتى يتاح له الزواج من أخريات.

ثلاث ما زلن زوجات السلطان، والأخريات مطلقات، فضلن البقاء في البناء الكبير، يساعدن في تربية السلاطين الصغار، والبعض عدن وتزوجن من الخدم والسائقين.

ولم تحمل تاج العروس، ولم تفكر في العودة إلى قريتها، كانت لا تزال تتسلى بالنور الذي يسطع من اللمبة، وتتعجب للماء الذي ينساب من الحنفية.

شهر آخر. وجاءت موزة، تطلب من تاج لملمة أغراضها والاستعداد للرحيل، وتطلب منها تذكاراً. فكرت تاج العروس بأهلها، لأول مرة من زمان ودق قلبها، لكن موزة قالت إن السلطان سيزوجها صديقه. وفي إحدى الغرف قرأت الفاتحة من غير حضورها، غادرت البناء الكبير وهي ملتفة بالعباءة، تحسست المجوهرات، حملتها وهي تفكر أنها كانت سلطانة. لأن ما تبدل لون مجوهراتها، كما حدث للأخريات لما سمعت صيحة بعضهن وهن يرين زمرداً وياقوتاً وخواتمهن تتبدل ألوانها كلما غسلن أيديهن أو حففن ملابسهن في مسحوق الغسيل، الذي أصبح كأنه وباء تستعيذ من شره النساء. وعبر الغطاء الأسود، رأت الحوش، رمالاً وأحجاراً صغيرة بلا غرسة واحدة. أشير إليها للدخول إلى المقعد الخلفي للسيارة. والطرق كانت كحوش البناء، إنما طويلة وما توقفت السيارة، إلا لما هبط الليل. نزلت، بعد أن ترجل السائق والرجل الذي كان بقربه.

لما رآها قال لها: «أنتِ تاج العروس وتاج الملوك». أمسك شعرها الطويل الأحمر وشدّه. لم يظن أن شعراً كهذا هو للآدميات بل للجنيات. ولما صدر عنها أنّة، قال في نفسه إنها آدمية. وما فارق غرفتها لليال ثلاث. وكان قد وضعها في غرفة عالية بعد أن أتى بها في الليل، وصعدا سلالم طويلة قبل أن يدخلها غرفة فيها رائحة تمر. وطلب منها أن لا تفارق هذه الغرفة إلا للتوجه إلى الحمام في الطابق الثاني، وأن لا تتكلم مع أية امرأة تراها. وأصبح الأكل يأتيها في صينية تحملها صبية صغيرة. وفي اليوم الثالث دفع الباب. امرأتان تقفان لم تنطقا بكلمة. أنزلتاها السلالم الطويلة حتى المدخل.

أشارت إحداهن إلى سطل ماء وأشارت إلى تاج العروس حتى تحمله وتصعد به السلالم الطويلة وتفرغه في برميل كبير. ثم لحقت بها تشير لها بأن

تنزل السلالم ذاتها، تفتح خشبة، تدلي منه سطلاً آخر ينتهي بحبل ثم تشده، تدلق الماء في السطل الآخر، تشير إليها حتى تقلدها ثم تنظر إلى أعلى مشيرة إلى السلالم الطويلة. خافت تاج العروس من البئر، وما قالت شيئاً، ولما أتى زوجها ورأته بكت. سألها وردت عليه، فما فهم. غادر الغرفة العالية وعاد يكلمها وما فهمت شيئاً مما قاله.

ثم عرفت أن هاتين المرأتين هما جوهر ونجية. زوجتاه، وعرفت أنهما تتآمران عليها، وتنسبان إليها كل الأخطاء. بل كانتا تفتعلان هذه الأخطاء. طبيخ محروق، مياه على السلالم. صراخ الأولاد، ثم اتهامها بضربهما. حتى إنها كانتا تسرقانها وتسرقان زوجها. وأخذت تحمل وتضع الولد الميت، والبنت الميتة. أول ما تعلمت العربية قالت لهما إنها كانت زوجة السلطان، ولو أنها حملت منه لما كانت بينهما، لما حملت في المرة الأخيرة، جلست في الفراش في الغرفة العالية، ترفض النهوض منه. بعد أن عرفت أن حمل السطل كان اعتداء منهما. لأنها رأت بلال الخادم الأسود، يدلي بالسطل إلى أعلى السلالم إلى زوجته الواقفة عند البئر تعبئه، حتى يسحبه إلى الأعلى. ورأته أحياناً يضخ الماء من تحت. لاحظت أن زوجها تبدل. ما عاد يناديها بتاج الملوك، بل كان يصرخ بها ويسألها بتهكم لماذا الشقاء، والانتظار، إذا كانت ستلد الولد والبنت ميتين؟. أحياناً كانت تراه متلهفاً عليها. لكنه، ما أن يريح رأسه على الوسادة حتى يشخر وينام. وما عاد يأتيها كل ليلة. أمسكت الوسادة ذات صباح بين يديها، وفكرت لماذا ينام زوجها ما أن يستند إليها. تحسستها ارتطمت يدها بشيء قاس، أخذت تفك خيطان الوسادة، رأت بين القطن كلاماً على أوراق أطرافها محروقة. في الليل، أرت زوجها الأوراق، أمسكها بلهفة وبغضب ونزل السلالم وسمعت صوته يتوعد ويصرخ. عاد يدخل الغرفة ويصرخ بها ويضربها. وقال لها إنه يعرف بخيانتها مع الخادم. ثم شدها من شعرها إلى المجلس في الطابق الثاني يشير إلى البندقية المعلقة، وقال لها صارخاً: إنه ينتظر الولد الأسود أو البنت الميتة السوداء حتى يطلق الرصاص. ابتسمت وعادت إلى سريرها ونامت كما لم تنم من قبل. وولدتني بعد أن حملت بي أربع سنين.

وعاد والدي إلى الغرفة العالية، بفضة وتمر وعلبة فيها الليرات الذهبية الإنكليزية والتركية وعقود المرجان والياقوت والذهب والزمرد يحيطني بها وكنت جميلة، بشرتي بلون بشرته. وجعل من السطح الملاصق للغرفة، غرفتين واسعتين حتى أركض ولأنزل ولا أتعثر بالسلالم. لكن نجية وجوهر لم تسكتا. القهر والغل زاد من اتهام تاج العروس بكل الأخطاء التي تحدث في البيت. ولا تعرف لماذا جاء بعد رحلة طويلة لبلاد الهند وقال لها طالق، ولم تفارق البيت، قالت إنها ستنتظرني حتى أتزوج. ولم تعد تراه. بل كانت تسمع صوته وهو يداعبني، إذ تزوج من صبية جاء بها من الهند. ولم تسأله لماذا طلقها وما طلق نجية وجوهر؟ قيل لها إنهما قريبتاه. سألت، لماذا لم يأت بزوجته ويسكنها البيت كما جاء بي، وأجابتها جوهر: «الراجل يخاف منك، سبحان من غيّرك، بسم الله الرحمن الرحيم، رأسك صار قماش منشور، الهوا يأخذو هان وهان. عيونك صارت ترقص وتتحرك، والبوبو ما عاد ركّز، وصوتك، بسم الله الرحمن الرحيم، سويعاتي، ساعة عاقل وساعة مجنون، وأنت ساعة لربك، وساعة للشيطان، قولي، خبّري أنت مجنونة أو صاغ؟».

- ٨ -

الضجة تخف بذهاب معظم النساء.

لما جاء ابن عمتي وابني محمد نزلت وأمي. دخلنا السيارة ننتظر إنزال عمتي. بينما وقفت الفليبينيتان وسط الشارع، السعادة فوق وجهيهما. هذه المرة، من المرات القليلة التي يتسنى لهما الخروج إلى الشارع، ورؤية الليل وتنفس هواء غير هواء المكيف، وإن كان حاراً دبقاً. ثم ساعدتا في حمل العمة. لما دخلتا، نزلت من السيارة أقفل الباب خلفهما بالمفتاح قائلة: «تصبحوا على خير» ولم أسمع ردهما.

أغمضت عيني، والسيارة تسير بنا، أفكر لماذا هما متضايقتان، لأنهما لا تخرجان؟ كيف أدعهما تخرجان، والرجال هنا كالفخ المنصوب؟ أشعر بسعادة وأنا أفكر في استئجار شقة ثانية، لم تعد الكراسي كافية للزبونات، رغم اعتراض ابني اليومي. اسمع عمتي تقول: «مبروك يا تمر وإن شاء الله نبارك لك بالعريس».

عمتي أعطتني ثلاث بطاقات في زمن متفاوت لأفضل الرجال. تحثني على أن أكلم الثلاثة عبر الهاتف وأختار واحداً. وأنا مصرّة على اللقاء. لن أتزوج إلا من رجل أراه وأكلمه. الماضي ما عاد واضحاً، ولا مؤلماً، أشعر بالتعب، استدير إلى أمي، أجدها مغمضة العينين وعلى وجهها شبه ابتسامة، لا بد أنها تحلم ببلدها.

ذات ليلة، الكل نام، عدا تاج العروس، خافت أن تغمض عينيها ويطير بها ملاك أو شيطان إلى تركيا، وأن تنفذ رائحة الينابيع الغازية التي اشتهرت بها قريتها إلى عقلها فتفقده، هو الذي اعتاد رائحة الرطوبة والرمل وضجيج المكيفات.

فتحت تاج العروس عينيها برعب وقالت بسم الله الرحمن الرحيم. حملقت طويلاً ولم تر شيئاً. بلعت كل ظلمة الغرفة، لم تر شيئاً، صاحت: «تمر، تمر، رشيد، بتول». صاحت حتى رأتنا ثلاثتنا نكب فوقها، وما عرفت لماذا هذه الوجوه مرعوبة تسألها. أيدينا تهزها، أصابعنا تقرب الماء من شفتيها، ووجه واحد يبكي. وجهي. لما التففنا حولها، رأت كل ما اعتادت عليه عيناها في المرآة المعوجة، تلال الأكياس والثياب في زاوية. شقوق الحيطان، شريطاً يتدلى من السقف وبآخره لمبة. ولم تكن للغرفة نافذة.

«رشيد، تمر، بتول»، تعرف هذه الأسماء، لا الوجوه. قالت إنها كانت بين أمها ووالدها وأقربائها سمعت صوتها يناديهم ويضحك مع بنات القرية. عرفتهن واحدة، واحدة. تذكرت فستان كل واحدة، ولون قمطة الرأس، وكل بيت، ولون التراب والوحل. وبعد كل منعطف وطريق. ورأت نفسها ترفع قمطة رأسها عن جبينها حتى لا تلامس الخرز والحلقات الذهبية عينيها، وهي تنتف ريش البط وتشوي الكباب. عادت رأت النمش على يديها المكتنزتين البيضاوين، ثم رأت النمش على وجهها. تمعنت في الوجوه أمامها. وتمتمت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وعرفت أنها تحلم، وأننا نحن وجوه هذه الأسماء التي تعرفها. دخل رشيد وبتول إلى غرفتهما، بينما دخلت في السرير قرب أمي التي أغمضت عينيها، ومالت إلى جهة اليمين كعادتها. ولم تنم. ولم تصح، رغم دقات قلبها، والحشرجة في حلقها التي عاقت تنفسها، همست: «مالك يا أمي، ويش يضايقك؟» وجدت نفسها تقول: «سامحني يا ربي، سامحيني يا أمي، يا والدي». وجلست تخبرني أنها تذكرت أختها وأخاها الصغيرين، وهي تحمل كلاً منهما على جهة من خصرها، وتركض بهما فرحة، سلاسل رقبتهما تخشخش، تسمع

بكاءهما. وهما يتشبثان بها خوفاً. عاد إلى ذاكرتها فستان اختها الصغيرة، وقدما أخيها الحافيتان حتى شكل وحجم الحبوب عليهما.

عندما شغرت تاج العروس بحماوة في صدرها، وهبّت تبعد عنها الغطاء، وتسير في الغرفة، كقطة تبحث عن صغارها رغم أنها رأتها تتدلى كلها في فم حيوان. ارتفعت الحرارة إلى رأسها، وهي تسأل نفسها: «لماذا كل هذه المدة؟ وماذا حلّ بهم؟».

ولما أخذ وقع قدميها يدبّ على الأرض رغم نحالتهما، نهضت أعيدها إلى الفراش. سمعت عمتي صياح أمي، ونادت من غرفتها: «ويش فيك يا تاج، السلطان صار عظام، تمر ما تبغي تتزوج سلأطين، الله يهديك روحي نامي».

لكن، تاج العروس جلست تصف لي الطرقات، وأسماء الأشجار، وكيف كانت كل القرية تفكر أن الينابيع الغازية هي حمام الشيطان، ثم أمها، والدها، أخواتها، وكوز التين الذي بحجم الحجر، الثلوج، البط، عصير الرمان، كيف كانوا يقطرون ماء الورد، تضع أكلاً للخروف حتى يسمن، وتعمل عرائس من قماش، وقططاً من طين وماء. لما اهتممت وسألتها أكثر، استأنست تاج العروس واندفعت تحكي، كأنها تصل شيئاً فشيئاً إلى قريتها ثم توقفت فجأة لتسأل بالتركية «يا ترى؟ هم يتذكروني؟».

نهضت في الصباح، وتململت عمتي. كأن الحياة في البيت ابتدأت روتينها اليومي. ضجيج أولاد رشيد، وصراخ بتول، وإبريق الماء على النار يغلي، ورائحة القهوة ملأت المكان. لمت تاج العروس قميص نومها عليها، كأنها ما أرادت أن ينفذ أحد أو شيء إليها، ويقرب شعورها، لربما أخذ ما تحتفظ به. وانزوت. المسبحة في يدها، وهي تسبح، ما رأت النمش على يديها. ومن زمان ما عاد النمش على وجهها أيضاً. قالت لها إحدى ضرتيها بتهكم: «الله يستر عندك عيون كثيرة في وجهك» ولما كان والدي توقف عن زيارتها، ما تركت تاج العروس امرأة مسنة، شابة، إلا وسألتها حتى أزالت النمش. لما نهضت من زاويتها وقالت لنا جميعاً، إنها ستذهب إلى تركيا،

ضحكت عمتي. بينما خفت من أفكار أمي ورددت بسرعة: «عساهم زمان ماتوا وأنت إيش يوديك؟» وما علقت تاج العروس. لكنها صممت على السفر، وأخذت تكوم ملابسها في شنطتي، وتعد جوابها إذا ما سألها أحد إذا هي حقاً سلطانة. وملابسها ما كانت ملابس سلطانة، ولا حلقها الذهبي وعقدها وأساورها. وحين لم تنقطع عن التفكير والهدس والانزواء والبكاء. قرر رشيد تسفيرها رغم قسمها وتأكيدها بأن قريتها لا تبعد عن بورصة، وأنها كانت تذهب إلى بورصة سيراً على الأقدام. تحرى رشيد عن بلد تاج العروس، ولم يستطع أحد مساعدته كما كان متأكداً، اللواتي قدمن للسلطان من كل البلاد، لا يحصى عددهن. وما اطمأن رشيد، إلا لما أرسلها مع حجاج من تركيا، عائدين إلى بلادهم، مؤكداً أن يعودوا بها متى تشاء إلى الصحراء.

أثناء غيابها عن البيت، كانت عمتي نسب تتكهن قائلة: «لازم تاج العروس نايمة عند أخواتها. أو يمكن أمها ما ماتت لسه». بينما كنت ألوم نفسي لأني لم أعارض رشيد عندما مانع في سفري معها، ثم أستبشر خيراً، وعمتي تضحك: لازم تاج العروس تكذب عليهم بأنها سلطانة، بينما كنت أتخيل حيرة أمي، وهي وحيدة لأول مرة منذ أربعين سنة.

لما عادت تاج العروس بعد أسبوع. وزعت علينا علب راحة الحلقوم، رفضت أن تخبر شيئاً عن رحلتها، حتى وجهها لم يعكس أي تعبير.

لما وصلت إلى بورصة. عرفت أنها لن تصل إلى قريتها. حتى مآذن الجوامع التي قيل لها إنها من مئات السنين استغربت كثرتها ونقوشها، وأخذت إلى عدة قرى. وفي الساحات تحلق حولها الصغار والكبار، والنساء والرجال، بملابسهم البعيدة عن الذاكرة. ما عادت ترى الطرقات التي رأتها في حلمها ولا الأشجار ولا البيوت التي حفظتها حجراً حجراً. وما ركضت إلى بيتها. لما كان الدلاّل يخبرهم قصتها لعل أحد العجائز يذكر زيارة السلطان والعربات الكثيرة التي تجمعت في حقل القرية، ويذكر الكلاب التي نبحت ولحقت بالقطار طويلاً، كانت قصتها توشوش من أذن إلى أخرى. ويتقدم الجميع خطوات حتى يروا عن كثب المرأة التي تزوجها سلطان تلك البلاد

البعيدة ما وراء سكة الحديد عندها كانت تلم نفسها وتلف عباءتها، ويدق قلبها، وتلوذ بالصمت، وهي تبتهل، كانت تجد منفذاً لعين واحدة عبر السواد وترى الوجوه فضولية، أحدهم تعرف بها وقال إنها عمته، أخذها إلى بيته الغريب.

وهي تتأمل وجهه الغريب، ما شمت رائحة الينابيع الغازية ولما سألته عنها عرفت أنه يكذب ومع ذلك بقيت تنتظر المفاجأة. ولما عرف أنه لا ذهب في حقيبتها من النساء اللواتي التممن حولها سلّمها من جديد إلى الدلاّل.

وما يئست، إلا عندما فكرت مرة بينما الرجال والنساء والأطفال يتحلقون حولها، وهي في ساحة القرية تجلس على حجر تحت شجرة وارفة، وعصفور يغرد فوق رأسها تماماً وما توقف عن الغناء، رغم رشقات الصغار له بالحصى. كانت ككل مرة تشعر بالخجل، لكن هذه المرة كان خجلها تشوبه خيبة الأمل والحزن، ربما لأن الصغار ما همهم وجودها وهم يرشقون العصفور، والكبار ما علقوا والحصى تحط حولها، وواحدة ضربت يدها. ولأن العصفور أفرغ أمعاءه، أكثر من مرة على عباءتها، ووجدت نفسها تفكر لأول مرة لماذا؟ وهي تتخيل والدها ينحني يقبل يدي السلطان سعيداً وكل القرية اصطفت تشاهد رحيل تاج العروس لتصبح ملكة، وما لحقت بها سوى الكلاب.

***

حنان الشيخ

في هذه الرواية، تصل حنان الشيخ إلى مفترق في تجربتها الروائية. فهذه الكاتبة التي استطاعت أن تستكشف عالم المرأة العربية، وتكون صوتاً خاصاً في تقديم هذا العالم، تصل في «مسك الغزال»، إلى القدرة على القبض على التجربة وتقديمها بأشكالها ومستوياتها المختلفة.

أربع نساء وثماني عيون، والواقع يقدم نفسه بنفسه. كأن الكتابة القصصية هي قابلة الواقع الذي يولد من جديد، نكتشفه، وندهش من وجوده المغطى بحجابات عيوننا. الكتابة تكشف العين وتتركها وحيدة أمام ما تراه.

بعد ثلاث روايات: «انتحار رجل ميت» و «فرس الشيطان» و «حكاية زهرة» (ترجم إلى الفرنسية والانكليزية) ومجموعة قصصية واحدة: «وردة الصحراء»، تأتي «مسك الغزال»، لتؤكد حضور حنان الشيخ وتميزها، ولتعطي شهادة أولى عن واقع المرأة في الصحراء العربية.

«مسك الغزال»، هي بهذا المعنى رواية أولى. أولى لأنها تقترب من الواقع كمن يكتشف قارة جديدة. وفي الاكتشاف دهشة وخوف وحب. أربع نساء وحكايات وعالم جديد يتشكل أمامنا.

الياس خوري

دار الآداب - بيروت